

نصوص وأبحاث جغرافية وتاريخية عن جزيرة العرب

رحلة إلى بلاد نجد

تأليف
الليدي آن بلنت

ترجمة
محمد أنعم غالب

منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض - المملكة العربية السعودية

(٥) نصوص وأبحاث جغرافية وتاريخية عن جزيرة العرب

رحلة إلى بلاد نجد

تأليف
الليدي آن بلنت

ترجمة
محمد أنعم غالب

الطبعة الثانية
١٣٨٩ هـ - ١٩٧٨ م



كلمة عن هذه الرحلة

كان الدكتور عمر حليق قد كتب مقالاً نشرته مجلة اليمامة، بعنوان : (مراجع أجنبية ، عن المملكة العربية السعودية) في سنة ١٣٧٣ ﻫ في ص ٣٤٨ – ٣٥٣ من المجلد الثاني . ورد فيه وصف موجز لهذه الرحلة .

فلما زرت مدينة (لندن) في شهر اكتوبر سنة ١٩٦٠ م بحثت عن نسخة منهـــا ، وكانت طبعت في سنة ١٨٨١ م فأصبحت نسخها نادرة ، وهـذا ما كلفني بضعة عشر جنيهاً استرلينياً ثمنـــاً لنسخة مستعملة ، لحرصي على جمع ما يتعلق ببلادنا من رحلات ، ومؤلفات تاريخية وجغرافية .

ثم دفعت الكتاب الى اخي وصديقي الاستاذ محمد انعم غالب ، ليعرّب الملائم من فصوله للنشر ، فكان أن عرّب جلّ ما يتعلق بنجد من تلك الرحلة ، باستثناء ما ورد فيه عن (الجبل) ونشرت ذلـــك في (اليمامة) الصحيفة – في

حلقات متتابعة – العدد ٢٧٠ في ١٣٨٠/١١/١ – وما بعده – على أمل جمعها في كتاب يضم ترجمـة كاملة لتلك الرحلة ، بنشرها .

وقد كتبت الى الاخ الاستاذ محمد انعم – المدرس في « كلية بلقيس » في عدن – أستحثه باكمال الترجمة ، وباعادة النظر فيما ترجم ، فوعد بذلك ...

إلاّ أن عدم الاستقرار في تلك الناحيـة ، ومضي فترة غير قصيرة من الزمن – مما دفعني الى نشر الفصول التي ترجمت من الرحلة ، وهي خلاصة ما فيها عن بلاد نجد ، ممـا يهم جمهرة القراء .

صاحبة الرحلة :

وصاحبة الرحـلة هي الليدي آن بلنت ، نبيلة انجليزية ، حفيدة الشاعر الانجليزي الشهير « بيرون » وزوجـة الشاعر السياسي الانجليزي «ويلفريد سكوين بلنت» (١٨٤٠/١٩٢٢م) وزوجته بعـد تركه العمل في السلك السياسي (الذي بلغ ١٥ عاماً (١٨٥٨/١٨٧٢ م) في اليونان ، واسبانية ، وفرنسـة ، والبرتغال ، وجنوب امريكة .

وكان زوجها على خلاف كبير مع حكومته ، لمعارضته لسياستها الاستعمارية ، ومناصرته للحركات التحررية ، وهو يشبه – الى حـدّ كبير – الشيخ عبد الله فلبي . فقد قام

– مع زوجته صاحبة الرحلة – برحلات طويلة في شمال افريقية ، وفي البلاد العربية ، وفي الهند ، وأبدى تأييداً قوياً لحركة « عرابي باشا » في مصر .

وكان يرى ان المستقبل للاسلام ، وكانت له صلة قوية بالامام الشيخ محمد عبده .

وفي سنة ١٨٨٧ م اعتقلته حكومته في (ايرلندا) بينما كان يرأس اجتماعاً سياسياً ضدها ، وبقي في السجن شهرين .

وفي عام ١٨٧٢ – أسست الليدي آن مع زوجها مزرعة ، لتربية الخيول العربية ، أصبحت مشهورة في بريطانيا منذ ذلك الوقت الى اليوم .

والسيدة آن بلانت – كزوجها – مولعة بالاسفار ، ومعجبة بالصفات العربية ، ويتضح هذا جلياً من رحلتها هذه . ومن مؤلفاتها :

١ – قبائل الفرات – طبع سنة ١٨٧٩ م .

Bedouin Tribes of The Euphrates

٢ – الحج الى نجد – طبع سنة ١٨٨١ م .

Pilgrimage To Nejd (*)

(*) يرجع الفضل في هذه المعلومات للصديق الكريم سعادة الشيخ عبد الله الحبال .

والأخير هو الذي نقدم للقراء أهم فصوله ، مع مراعاة عدم التقيد بترتيب الكاتبة لها او ببعض ألفاظها لظروف خاصة. إلا أننا لم نزد شيئاً ، أو نغيّر تغييراً يحيل المعنى .

أهمية هذه الرحلة :

تظهر أهمية هذه الرحلة – بالنسبة لما يتطلبه الباحث في دراسة احوال بلادنا – من ناحيتين :

أولاهما : قلة المؤلفات التي تتعلق بالفترة الزمنية إبان حكم آل رشيد (من آخر القرن الثالث عشر الهجري الى الربع الاول من القرن الحالي) .

ثانيتهما : عمق الملاحظات المدونة في هذه الرحلة ، ودقتها، وصدق تصويرها .

وهي أمور ، سيؤخذ القارىء بروعتها ووضوح تصويرها.

و « دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر » تسعى لتقدم للباحثين كل ما تستطيع تقديمه مما يضيف جديداً الى معلوماتهم عن هذه البلاد الكريمة ، وهذا ما دعا الى نشر هذه الرحلة .

حمد الجاسر

فصول من كتاب :

Lady Anne Blunt.

Pilgrimage To NEJD

The Cradle of the Arab Race,
Second Edition 1881, John Murray,

London.

القسم الاول : قُريّات المِلح

[هذا هو الفصل الخامس من رحلة اللادي بلانت الى نجد ، وفيه تقدم مشاهداتها وانطباعاتها أثناء سيرها من كاف – احدى قرَيّات الملح – الى الجوف ، مشاهد ربما بعضها مـــا زال قائمًا ، لكن ثمانين عامًا وان أبقت على المكان كما هو ، فقد نميت بالسحر والخطر وروعة المغامرة]

بلدة « كاف » وسكانها :

٢٨ ديسمبر [سنة ١٨٧٩ - ١٢٩٧ هـ]

كاف قرية صغيرة لطيفة لها طابعها الخاص ، متميزة تماماً عن أي شيء يراه المرء في سورية ، وكل شيء نموذج مصغر ، الستة عشر بيتاً المربعة الصغـــيرة ، والأبراج الصغيرة ذات المشارف والأسوار بمشارفها بارتفاعها البالغ ٧ أقــدام — والسبعون أو الثمانون نخلة في بستان يُروى من آبار ، وبعض أشجار حسبتها في البداية سرو ، ثم اتضح انهـا نوع رقيق من الاثل [١] . ومع انهـا محل صغير جداً ، فان (كاف) ذات منظر فريد مزهر ،فكل شيء هناك أنيق ،وفي اصلاح حسن ، ولن تجد شرفة واحدة مكسورة أو باباً خارجاً عن مفصلاته ، كما هي الحال بكل تأكيد في سورية . وهناك أيضاً عدد طيب من صغار النخيـــل غرست في وسط النخلات الأكبر سناً ، وشجرات تين حديثة ، وكروم ، أشياء قل أن تجدها في الشمال .

---

(١) الاثل ، شجرة تزرع في كل قرية من قرى بلاد العرب الوسطى ، ولكنها لا توجد هناك وحشية ، بقدر ما أعلم . (الاصل)

المترجم : بل يوجد نوع من الاثل يسمى الطرفاء ينبت في الاودية بدون أن يزرع . ولكن خشبه ضعيف .

والناس لطاف المنظر حسنو السلوك ، ولو انهم في البداية أفزعونا قليلاً بطوافهم ،والسيوف في أيديهم . وهذه اما يحملونها منكسة على كلا الكتفين أو يقبضون غمدها بكلتا اليدين ،أشبه كثيراً بما يشاهد المرء في الاشكال المنقوشة على الصخر لشهداء العصور الوسطى ، أو في صور المجاهدين الصليبيين .

في ضيافة شيخ البلدة :

استقبلنا عبد الله القاسم ، شيخ القرية ، والذي اليه حملنا رسالة من حسين ، بأدب عظيم ، ونظفت غرفة في بيته من أجل استعمالنا . وككل الغرف الاخرى ،فتح بابها على الفناء ، الذي في وسطه ربط فَلُو عمره سنتان ، وكانت غرفتنا مخزناً للوقود ، كما كانت بدون أثاث من أي نوع ، ولكننا اغتبطنا أن نجدها بدون سكان أيضاً ، والهندسة المعمارية هنا بسيطة جداً ، بمجرد جدران من الطين بلا شبابيك أو فتحات من أي نوع باستثناء ثقوب مربعة قليلة قريباً من السقف. وكان السقف من عمدان من الاثل بقواطع من النخل تملأ ما بينها فروع من النخل . وتسمى الغرفة الرئيسية « القهوة » أو غرفة القهوة ، وفيهــا يوجد موقد مربع في الجانب أو من الوسط لصنع القهوة . ولا توجد مدخنة ، ويخرج الدخان كما يستطيع ، ولكن هذا ليس غير مريح كما قد يتبادر الى الذهن ، لأن

احتراق الحطب هنا له لهب لامع جميل، ويعطي أقصى حرارة بأدنى قدر من الدخان . انـــه (الروثة)[1] أو (الغضا) (نوع من الاثل) ويجلس الناس حول الموقد ، بينما يجري صنع القهوة ، اجراءاً صامتاً يستغرق نصف ساعة تقريباً .

وبمجرد وصولنا ، أحضرت قصعة من التمر من محصول العام الماضي، وهو لزج ومهروس ، ولكنه طيب ، وفي المساء تناولنا عشاءاً معتاداً مكوناً من البرغل ولحم الدجاج المسلوق. اننا مندهشون جداً من الأدب الذي عليه كل فرد . فعبدالله، مضيفنا ، سألنا على الأقل عشرين مرة عن صحتنا قبل أن ننتقل من شيء إلى آخر ، ولم يكن من السهل أن نجد ثناء مناسباً للرد . وكل شيء بالطبع بائس وبسيط ، ولكن المرء لا يملك إلا أن يحس انه بين قوم متحضرين . وقد اكثروا من اللجب مع محمد الذي يعاملونه كشيخ .

و (تدمر) معروفة الاسم جيداً وتعتبر على هذه المسافة مدينة هامة . ووجود انسان في مركزه يقوم بعمل شبه حقير كالذي يقوم به محمد معنا ، يعتبر مفاجأة كبيرة و لهذا وضع

---

(١) الروثة : من مراعي الابل المفضلة .
ومما يتندر به على قيمة الروثة ما ينسب الى أحدهم ، أنه عندما سمع واعظاً يعظ ، ويصف الجنة التي أعدها الله للمتقين يوم القيامة ، وانها حوت ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، سأل الرويلي الواعظ قائلا : وهـل فيها روثة ؟ !

موضع استجواب مهذب في المساء في مـــا يتصل بالباعث وراء رحلته .

لم يشاهد (الفرنج) قط في (كاف) من قبـــل ، هكذا يقول الناس،وهم لا يفهمون الاحترام الذي يقابل به الاوروبيون في أماكن أخرى . وعلى أية حال،فقد شرح لهم محمد وأخوته مع البيك « ، واحتج أن رحلته هي رحلة شرقية ، لا رحلة من أجل الربح،حتى نعامل بنفس القدر من البشاشة كما لو كنا عربا بالولادة . وكان عواد الشعري ذا فائدة عظيمة لنا ، من حيث أنه معروف جيداً هنا ، فيقوم بدور التقديم .

من تاريخ « كاف » :

و (كاف) مستقلة تماماً عن السلطان ، ولو أن العساكر الترك نهبوها مرتين، مرة بقيادة ابراهيم باشا ، ومرة ثانية منذ بضع سنين فقط، عندما أرسلت حكومة دمشق حملة عسكرية إلى وادي السرحان . وشاهدنا خرائب قلعة ، قصر السعيد ، على تل فوق البلدة ، هدمها السابقون (جنود ابراهيم باشا) ، وسمعنا كثيراً من النواح حول أعمال الآخرين .

كاف تابعة لحكم ابن رشيد :

وسكان (كاف) يعترفون بأنفسهم رعـــايا لابن رشيد ، رئيس جبل شمر ، وكان بعض قومه هنا منذ أيام قليلة فقط ، يأخذون الاتاوة ، وهي مبلغ صغير جداً ، عشرون مجيديـاً (٤ جنيهات استرلينية) ، وهم يدفعونها بابتهاج مقابل حمايته لهم . وهم متحمسون جداً (للامير) ، كما يسمونه ، وحقاً ليس هناك من سبب حتى يرغبون في الانضمام إلى سورية .

تجارة كاف وأثري :

ان مدينة (كاف) الصغيرة وجارتها (آثري)حيث نحن الآن ، تجارياً ، لهما من الاتصال بالشمال أكثر من الجنوب ، لأن ثروتها الأساسية، – كما هي الحال – تنبع من تجارة الملح مع (بصرى) . ويبدو أن عبد الله القاسم ميسور الحال ، لأنه يملك عدة عبيد ، ولديه أكثر من زوجة واحدة . إلا أن القلو الذي أشرت اليه هو كل ما يملك من ذوات الأربع ، كان سيأتي معنا ، كما قال ، لو كان له ذلول . ولاحظت بضع جمال وحمير وماعز حول القرية .

وكان مقبول الكريشة ، قد عاد ، ونحن نريد الآن أن نجد شراريا ليأخذنا إلى الجوف .

بلدة أتري :

لقد أتينا إلى (أتري) ، الواحة التوأم لـ (كاف) ، على بعد ساعتين ونصف إلى الشرق منها،في وادي السرحان أيضاً. وهذه ليست مثبتة على كثير من الخرائط الحديثة ولو أن (شني) وضعها على خريطته بطريقة خاطئة . ولقد وجدنا على طريق (البارومتر) أنهما يقعان على نفس المستوى وهكذا يبدو أن ظننا أن وادي السرحان ليس له منحدرات قد تأيد.

وادي السرحان :

أن وادي السرحان منخفض فوضوي غريب ، من المحتمل أنه قاع لبحر قديم مثل البحر الميت ، وهو هنا ذو اثني عشر ميلاً عرضاً ، إذا كان لنا أن نحكم بالتلال التي نراها خلفه ، والتي هي بدون شك المرتفعات المقابلة للحوض .

وتوجد آبار عديدة هنا وفي (كاف) ، وهي عريضة وضحلة ، لأن الماء على عمق ٨ أقدام فقط من سطح الأرض . ومن هذه تسقى بساتين النخيل . وتوجد أيضاً آبار في الخارج، وكلها تقع على نفس المستوى ، والماء صالح للشرب ، وغير ممتاز بأية حال . عبرنا بحيرة مالحة واسعة ، وهي الآن جافة، ومنها يجمع الملح للقوافل .

محمد الدليل وعراقة حسبه !!

وفي طريقنا سلانا محمد بحكايات عن مولده وأسلافه .

وقد سمع أهل (كاف) بـ (ابن عروج) .

وأخبروا محمداً أنه سيجد أقرباء في أجزاء كثيرة من بلاد العرب علاوة على (الجوف) ويقولون أن هناك شخصاً ما في بريدة، وأحد (آل حميدي) الذي سمع عنه محمد كأحد أبناء عمومته . وزوجة الشيخ هنا في (أثرى) من عائلة الجوف .

وفي الواقع يبدو أن كل شيء يسير تماماً كما توقعنا .

وصف بلدة أثري ... وآثارها

و (أثري) هي أيضاً محل أصغر من (كاف) إلا انها تفخر بالبناية القديمة ، القلعة المصغرة في داخل الأسوار ، شيء ما على طراز بيوت (هارون الرشيد) . وهذه مبنية بحجارة سود ، حسنة التربيع منتظمة الوضع ، بدلاً من الطين ، المادة العربية الشائعة في البناء .

وعلى عتبة المدخـــل توجد ، أوبالاحرى كان يوجد ،

كتابة بحروف قديمة ، ربما حميرية ، التي كنا سننقلهـــا لو أنها كانت واضحة ، ولكن الجو قد كاد يمحوها [1] .

وهنا هـــا نحن قد أضافنا (جروان) وهو شاب عديم الترتيب بنصف ذكاء ، وله شعر طويل في جـدائل ، ووجه أشبه بكلب (اسكوتلندي) ، وهو ابن مرزوقة ابنة عم محمد ذاته . ومع أنه لا شيء فيه يدعو إلى الفخر بـــه كقريب ، فانا نجـده مضيفاً لطيفاً يقظاً . وأمه امرأة ذكية وكريمة الأصل ، وانه ليبدو غريباً أن يكون لها ولد بهذه الضعة وأبناؤها الثلاثة الآخرون (جروان وهو أكبر اربعة) لهم ذكاؤهم مثل سائر الناس ، ولكنهم موضوعون في الخلفية وجاءت (مرزوقة) لتراني الآن بطبق كبير من التمر في يدها، وتوقفت لتتحدث . ان وجهها ما زال جذاباً ، ولا بد أنهـا كانت جميلة إلى حد كبير. وألاحظ أنها تلبس عدداً من الخواتم الفضية كخواتم الزواج .

وتخبرنا (مرزوقة) اننا سنجد كثيرين من اقربائه (ابن عروج) في الجوف . وهي نفسها غادرتها صغيرة ، هي تتحدث عنها كفردوس ارضي ، من حيث انتزعت لتعيش في هذه الواحة الصغيرة التعيسة ، وحقاً أن (أثري) مكان يائس كل شيء فيها ما عدا بستان جروان ، وبعد مشية في بستان النخيل ،

---

(١) أخبرنا أن هذه الكتابة ذات صلة بكنز مستور وهو وهم شائع بين العرب الذين لا يستطيعون القراءة (الأصل) .

منعني تحرّجي من الانضمام ، وجلسنا جميعاً إلى عشاء طيب مكون من خروف وخبز ثريد – وللخبز مذاق كالفطائر الممتازة – قام بتقديمه لنا جروان بشخصه ، وهو واقف، طبقاً للاسلوب العربي عندما يأكل الضيوف ، وتلاحظه أمه بعناية ، وتخبره ما يجب أن يفعل ، ومن الواضح ، ولو أن لديه من الحس ما يجعله قليل الكلام أنه ينظر اليه كمن (لا وزن له) في العائلة ، ويصف (ولفرد) المشية في البستان بأنها ممتعة نوعاً ما ، فمحمد وعبد الله يلقيان خطباً طويلة ثناء على كل ما رأيا ، ويحكيان لرئيس رجال جروان قصصاً خارقة عن أبهة (تدمر) وثروتها .

وبستان جروان ، الوحيد في أثري ، يحتوى على ٤٠٠ نخلة ، كثير منها مغروس حديثاً ، ولا يوجد فيها شجرة يزيد عمرها عن ٢٥ سنة. وكان من بينها نخلة من صنف (الحلوة) ، تمر الجوف الحلو، استوردت من هناك، واعتبرت هنا من النوع المظيم الندرة. وفي هذه النقطة كان هناك ترديد حار بالاعجاب (كورس) . وبان اعجاب شديد بشجرات الاثل أيضاً. وهي تربى من أجل الأخشاب، وتنبثق من الارومة حين تقلع ، وست سنوات من النمو يحملها على ارتفاع عشرين قدماً .

بين القريات والجوف

وصل رجلان من (الجوف) بأخبار سارة ، وهي أن

كل شيء على ما يرام بين هذا المكان وبين الجوف ، أي أنه ليس هناك عرب بعد في وادي السرحان ، سارة لأنه لم يكن هنا لدينا مقدمات ، وأي لقاء ربما كان غير مقبول . لقد تأخر الموسم كثيراً والمرعى سيء جداً . بحيث أن الوادي قد هجر منذ الربيع الماضي . لن يكون هناك الآن طريق ، أو أثر من أي نوع ، وبما ان المسافة مائتا ميل على الأقل إلى الجوف ، فيجب أن يكون معنا دليل ليرينا الابار . وشخص كهذا وجدناه في بدوي صغير منظره مضحك شراري ، صادفناه هنا ، وهو سيذهب معنا مقابل عشرة مجيديات .

٢٩ ديسمبر (١٨٧٩)

كانت هناك ريح شرقية حادة تهب حينما ابتدأنا هذا الصباح ، ولاحظت زقزاقا كطائر بري في البحر ، بطير هنا وهناك تحت روضة من أشجار النخيل ، ينظر بلا أمل ، متعبا برحلته الطويلة . يالمسكين !! سيموت هنا ، لانه لا شيء هناك يأكله الطائر في أي مكان مئات الأميال . من المؤكد انه قد طرح به بعيداً عن منطقته ، ربما من الفرات !!

على ضفة وادي السرحان

ان طريقنا اليوم يمتد على طول حافة الوادي ، نعبر أحيانا رؤوسا صخرية من السهل الاعلى ، واحيانا اغوارا من الوادي وكانت ارتفاعها دائما نوعا ما واحدة (٢٢٥٠) قدما علوا

و(١٨٥٠) انخفاضا - وهكذا يمكن أن تؤخذ هذه على انها الارتفاعات المقابلة لـ (الحماد) ووادي السرحان . وبالاضافة إلى ذلك ، يوجد هنا وهناك تلال منعزلة ، بارتفاع يزيد بما يتراوح بين ثلثمائة واربعمائة قدم عن أي منها ، أرض صخرية صعبة متكسرة طول اليوم ، مكونة بصفة أساسية من رمال مع حصى ملحية منثورة عليها ، والنبات شحيح على الأرض المرتفعة ، ولكنه أوفر في التجويفات . وفي وهدة متعرجة تقود إلى الوادي ، وجدنا شجيرات (الغضا) ، وغير ذلك لا شيء اكثر من اعشاب . وهناك اخبرنا (عواد) انه نُهب منذ سنتين وجُرد بغزو من حوران . فقد جمال وكل ما يملك. كان عدد الحورانيين ثمانية وجماعته ستة وسألته: كيف حدث أن قطاع الطرق ظفروا به ؟ قال: انه كان (من الله). ويبدو ان وادي السرحان هو المكان المفضل لقطاع الطرق ، و(عواد) يعتبر الحادثة أمراً عادياً. وسألته : لماذا ترك قبيلته، شمر ، وجاء ليعيش بعيداً في الشمال في (صلخد) ؟ قال: انه (نصيب) شيء مقدر ، ان زوجته من (صلخد) ، وكانت لن تترك قومها . وسألته: كيف يكسب معيشته ؟ فضحك ، وقال : (املك نصف مهر وذلولا ، واقوم بالغزو . ويوجد تسعة منا ، من شمر ، في حوران،ونحن نخرج معاً نحو (الزرقا) أو إلى (اللجاة) القريبة ونأخذ المواشي ليلا ، أرانا بعض ندوب مفزعة لجروح أصيب بها في هذه المناسبات ، وجعل

(ولفرد) يتحسس رصاصة لا تزال مستقرة في جنبه . وهو مخلوق محب للاستطلاع ولكننا نحبه ، وسواء كان قاطع طريق أم لم يكن ، فان فيه روح الرجل الماجد (الجنتلمان) . وفوق ذلك فهو صاحب ملائم ، ويحسن الغنـاء ، ويروي الأقاصيص الشعرية ، وهو محبوب في كل مكان . ففي (كاف) و (أثري) استقبله الرجال ، شيبا وشبابا ، بالعناق والقبل ورحبت به النساء في كل بيت .

آبار قراقر ..

كادت أجسادنا تتجمد طيلة الصباح ، فقد كانت الريح تنفذ من خلال جبيننا المصنوعة من الفراء . وفي الساعة الثانية عشر والنصف (ظهراً) بعد أربع ساعات من السير ، أتينا إلى بعض آبار تسمى (قراقر) ، ست منها في تجويف عار ، وحولها آثار جمال تؤدي من جميع نقط الدائرة نحوها . ومن الواضح أن الوادي يسكن في بعض أوقات السنة ، ويقول عواد: أن (الرولة) تسكنه في الشتاء ، غير أنه لا يوجد أحد هذه السنة . والماء ، شأنه شأن ماء (كاف) و (اثري) ، ضارب إلى الملوحة بعض الشيء .

وبالقرب من (قراقر) رأينا بعض الغزلان وطاردناها دون جدوى . وانـه لأمر مكدر ، لأني نسيت أن أحضر لها ، وما لم نستطع أن نقبض أو نرمي شيئاً مـا ، فلن يكون لدينا شيء حتى نصل الى (الجوف) .

كان ينبغي أن أفكر في الأمر ، لأننا ، وإن كانت المؤن ليست وافرة في (الرى)، كنا ربما في استطاعتنا أن نشتري خروفاً ونسوقه معنا ، إن ألَمّ عرجي صرف انتباهي – عذر سيء ، ولكنه العذر الوحيد . وعندما أركب أعاني ألما أقل من أي وقت آخر .

ها نحن الآن ، منذ الساعة الرابعة (بعد الظهر) ، مخيمون على الرمل تحت أيكة من أشجار الغضا ، وقد توقفت الريح ويبدو أنها من هنا تهب دائماً ما عدا ساعة حوالى الغروب وأخرى عن الفجر . وسنتعشى لحم بقر مسلوقاً ، وبرغلا مع (صلصة) كاري ، وحبحباً ، هو آخر مخزوننا من حوران .

٣٠ ديسمبر : (١٨٧٩ م)

طول الصباح على مستوى عال ، فوق أرض مثل (الحرة) ذات صخور بركانية ، ريح جنوبية شرقية هوجاء في وجوهنا فلم نستطع الكلام ولم نكد نستطيع التفكير ، طريقنا يمتد نحو سلسلة من التلال منظرها (غير كريم) تسمى (المسَمَّة) (لعلها المرتفعة) وعندما وصلنا هذه :

صيد من « الجراد » والارانب !:

اتجهت (طريقنا) الى يمينها لأننا نسير في غير طريق ،

رأينا رجلاً من الجراد الأحمر يطير حول المكان، عندما أدفأت الشمس الارض ، وطاردها الرجال وصادوا بعصيهم منها ما يكفي لصنع طبق العشاء . هذه الحشرات ، عندما تطير ، تبدو شديدة الشبه بذباب مايو الكبير ، من حيث ان لها نفس الطيران القليل الحيلة ، تجرفها الرياح . وقل أن تكون لها قوة كافية للتحكم في الاتجاه حتى تتغلب على الصعوبات . فأحياناً تطير في اتجاه معاكس للجبال ، وأحيانا تسقط بقوة على الشجر حيث يسهل القبض عليها . وحين تستقر على الأرض يصعب ، على أية حال ، أن تراها ، وتظل يقظة وتنط ثم تنساب مبتعدة مرة أخرى حين تقترب منها . ويبدو أن لها إحساساً أكثر مما لها من قوة على الحركة .

وفي الساعة الثانية أتينا إلى آبار أخرى (المشويهة) [1] ومعظمها تخنقها الرمال ، غير أن واحدة تحتوي على كميات كافية من المياه الضاربة الى الملوحة .وتقع هذه الآبار وسط أدغال من الاثل ، من حيث أفزعنا عدداً من الأرانب البرية التي لم تستطع كلابنا السلوقية أن تقبض عليها ، لأنها كانت دائماً تتملص بجفلة لتختفي. وانتظرنا - (والفرد) وأنا - لهذا القنص غير المثمر الذي كان عشاؤنا يعتمد عليه ولم ننضم الى بقية الجماعة مسافة أكثر من ميل . وقبل أن نلحق بهم

---

(١) نبهنا الى صحة (الموبهة والملسة) الأخ سيف بن زيدان الشمري ، فله الشكر . (المترجم)

صادفنا (حنا) يجلس على هدومه (لحاف وعباءة) وابراهيم يقف بجانبه ، وكلاهما يصيح : « واه ، واه ، واه ! » ولم نستطع أن ندرك ما حدث ، كما لم نقدر أن نحصل أيةمعلومات منها ، سوى انهما كانا سيبقيان حيث كانا . هذان الرجلان من أهل المدينة يجلسان على فراشهما وحيدين في وادي السرحان ، كانا يمثلان مشهداً للعبث بشكل لم نتمالك ، في تلك اللحظة ، من التغلب على الضحك ، إلا ان المسألة لم تكن مسألة ضحك ، وكان من المستحيل ، بالطبع ، أن نتركهما هناك ، فأصررنا على أن نحصل على ايضاح . لقد كان هناك خصام بين (حنا) و (عبد الله) لأن الاخير ساق ذلول (حنا) بسرعة مع الجمال الاخرى ، ورفض أن يتركها تنيخ ثم تنهض من جديد وكان عواد وعبدالله في عجلة جديدة ليبدا عن (المُونَهَة) قدر الامكان ، لأن (حمدان الشراري) يقول انها بقعةخطرة ولكن (حنا) كان غاضبا ، وفي غضبه رمى عباءته ، وقفز عليها ، وسحب فراشه على أثره ، وجلس على الأرض ، وهناك تركه الآخرون ، معولاً هائجاً . وعلى هذه الحالة وجدناه . واقترح ان يترك هو و (ابراهيم) هناك ليأكلهما الضبع ، الذي قد شاهدنا آثار أقدامه . وعلى أي ، فابراهيم ، الذي بقي معه فقط لمصاحبته ، كان مستعداً تماما لمواصلة السير ، وعند رؤية ذلك لم يتوان (حنا) عن النهوض ، وتبعنا تاركاً أخاه يحمل عنه فراشه . ولم يكن من الصالح أن نستفسر عمن كان المخطىء ومن المصيب ، وأوقفنا الجمال ، وأعدنا الذلول ملحين

على (حنا) أن يركب ، وهو ما فعله بعد مقاومة . وانتهت الحادثة . وكلف محمد بمهمة الاصرار على السلم مع العرب ونظن أننا حملناحناًعلى الاقتناع بألا يحمل ضغينة . انه من المستحيل على الاطلاق على أي واحد أن يعود الآن بدون أن يفقد حياته ، واني لواثقة انهم جميعاً سيكونون مقتولين . انه من غير المقبول أن نفكر ان خلافاً حدث في جماعتنــــا الصغيرة ، وهي على حالتها هذه منفصلة عن بقية العالم الآن . نحن الآن نخيمون في واد جانبي حيث كلأ الجمال طيب . رأينا المكان من مسافة كبيرة ، لأننا الآن اصبحنا ماهرين في إمكان تخمين البقـــاع فحين ترى أرضا صخرية في خطوط يمكنك أن تتأكد من وجود كلأ . لم نر مؤخراً أية أمارة للعمران في البلاد منذ أن تركنا (أوري) ، ولا آثار خف جمل ، ولا قدم انسان.

ان الجراد المشوية صالح للاكل !!

في بطن وادي السرحان :

٣١ ديسمبر (١٨٧٩ م) :

يوم طويل آخر من السير ، وها نحن في نهاية العام في مكان من اكثر أماكن العالم إقفاراً . كان البرد شديداً جداً ليلةأمس لدرجة أن جميع الجراد ميت . انه طريبع في كل مكان ، تاكله طيور الصحراء والقبرات والابالق . انحدرنا مرة أخرى

الى القرار الرئيسي لوادي السرحان ، وهو لا يزال على نفس المستوى كما كان من قبل ، وهو هنا منبطح تقريباً ، ومغطى بأعذاق من البهق وأعشاب أخرى ، وكلها مالحة المـــذاق ، والتربة سهلة التفتت وغير مكينة ، وبيضاء في أماكن بفعل ملح البارود (نترات البوتاسا) ويصرح عواد والشراري انه توجد رمال متحركة نقرة (حَضَوْضَى ، حرفيا ، هاوية) ، في مكان ما مجاور ، حيث يسوخ أي شيء يمر عليها ويختفي دون أن يترك أثراً : رجال ، جمال ، وغزلان ، غير أننا لم نر شيئاً من هذا .

سير مع خوف وحذر :

ولما سرنا محاذين حافة الوادي ، قابلنا فجأة بعض الغزلان التي قادتنا الى أرض أعلى ، حيث وجدنا قفراً صخرياً من نمط (الحرة) ، وبين الصخور رأينـــا ضبعاً يمشي الهوينا . ولم نحصل على شيء على أية حال ، لا عليه ولا على الغزلان ، وها نحن لا نزال من غير لحم . ولم تحدث مصادفة أخرى حتى أتينا الى نخلة تقف وحيدة في مكان مكشوف (مكان يسمى وُسَيْط ؟) ، وبالقرب منها يوجد نبع ساحر صغير ، بين جذور أيكـــة كثيفة من النخيل (مكان يدعى قدير ؟) واتساع الفتحة حوالي ثلاثة أقدام ، وعمقها قدمان ، وعمق

الماء فيها حوالي قدم واحد . ويرتفع الماء من جديد بمجرد أن يؤخذ ، ولكنه لا يغيض قط . وتوجد آثار أقدام ضباع وغزلان حول المكان ، وهذا ، فيما افترض ، هو المكان الذي إليه تأتي حيوانات الصحراء للشرب ، لأنه الماء الوحيد على السطح الذي رأيناه حتى الآن. ويسمى هذا النبع «مميصر ؟» بقعة سارة حيث كنا نحب لو خيمنا ، ولكنه من الخطر دائماً أن نقف بالقرب من ماء ، خوفاً من يأتي ناس .

ويقول عواد : أن هناك رواية عن مدينة أو قرية وجدت هنا في السالف ولكن ليس من خرائب ترى . والماء عذب وطيب ، كما يمكن أن يدرك من الحشرات التي تسبح فيه . إن العرب يميزون طيبة الماء بهذه الطريقة. لا شيء في الصحراء أكثر ريبة من الماء الكامل الصفاء ، خال من الحياة الحيوانية

في هدوء الليل ..

وعلى أنغام مغن من قبيلة الشرارات !!

نحن الآن نخيمون تحت حرف منخفض مجوف في شكل كهوف كما لو كان بفعل الماء ، مغارات رئيسية للضباع. وهناك مشهد جميل يشرف الى الخلف على تلال (مزمة ؟)

(لعلها مرتفعة) الليل هادىء وبارد ، ولكننا لا نحب أن نضرم كثيراً من النيران خوفاً من الأعداء . وحمدان ، دليلنا الشراري ، وهو مخلوق فظ ، متوحش ، لتنظر إليه ، كان ينشد أقصوصة شعرية جميلة جداً ، ويخبرنا أنـــه هو نفسه ناظمها . وهي في أدوار كل منها مكوّن من أربعة سطور ، مع تعاقب في القوافي ، وتتعلق بحادثـــة حدثت في عائلته ، وعندما كان ينشدها كان بقية العرب يرجعون ، مرددين دائماً الكلمة الأخيرة في البيت بمقطع التنقية ، وكان لها تأثير طيب. كانت القصة بسيطة ، وتقص كيف أن أم حمدان وأختـــه تخاصمتا ، وكيف أنهما رفعتا همومهما أمام عُبَيد بن رشيد في حائل ، وكيف ان الشيخ العجوز سوّى القضية بأن لف حبلا حول عنق الإبنة آمراً الأم أن تفك به، وأن تفعل ذلك بقية أيامها . وحين قبلت الابنة امها صرفها عبيد بهدايا ، ذلول ، وعباءة لكل واحدة منهما ، ومائة صاع من البر ، هدية استمر في تقديمها لهما كل عام الى أن مات ، ولا يزال يقدمها الآن ابن أخيه محمد، حاكم جبل شمّر الحاضر . وقدم لنا حمدان أيضاً تقريراً مثيراً للانتباه عن سياسة حائل ، ويكاد يتفق مع ما تتذكره من تقرير (بلجريف) [1] ، مواصلا ذلك الى تاريخ

---

(١) هو : وليم جيفرد بلجريف ، قام في سنة ١٨٦٢ برحلة الى بلاد العرب ، بدأها من « معان » في شهر حزيران ، ماراً بوادي السرحان ، فالجوف ، فجبة ، فمدينة حائل حيث وصلها في شهر تموز ابان حكم طلال بن ←

متأخر . وابن رشيد الحاضر ليس بأية حال تلك الشخصية المحبوبة بنفس درجة أخيه طلال ، وتقرير حمدان عن حرقته مفزع نوعاً ما ، ويظهر أنه قد أذاق الموت نحواً من ١٢ شخصاً (دوزن) من أقربائه ، وهو مخوف في شمر أكثر منه محبوبا ، وهذا مزعج جداً ، لأنه قد يكون سبباً لأن لا نذهب الى نجد بعد كل شيء . ولكننا سنسمع أكثر عندما نصل الى الجوف .

وإنشاد حمدان كان ، بالقدر الذي استطعت كتابة الجزء الموسيقي منه مثل هذا :

(صورة النوتة الموسيقية على صفحة ٩٩ من المجلد الأول من الأصل الانجليزي) .

طعام قليل ولحم صيد ..

اول يناير ١٨٨٠ :

صقيع أسود ، ولكنه هادىء . لقد غيرنا طريقنا ، وكان اتجاهنا طول اليوم في اتجاه الجنوب تقريباً — ٢٥ ميلاً بقدر

← عبدالله بن رشيد الحاكم الثاني في الأسرة الرشيدية (من سنة ١٢٦٣ الى سنة ١٢٨٥) واجتمع به وبعمه عبيد الرشيد .

وقد أورد في رحلته معلومات مهمة عن مشاهداته في مدينة حائل ؛

ثم سار حتى بلغ مدينة الرياض وبعد اقامته فيها مدة ، هرب خلسة ، ثم سار الى الاحساء فالقطيف ، ومنها أبحر الى سواحل الخليج .

ورحلته مطبوعة .

مـــا نستطيع حساب ذلك بالتقريب – وفي وسط وادي السرحان ، سهل مستوى من الرمل والحصى ، مع رواب من الرمل الابيض النقي هنا وهناك مغطاة بالغضا . خطتنا أن ننهض ونقلع خيامنا في أول ومضة الفجر ، ونشرب فنجان قهوة ، ونأكل بسكويتا أو بقسماطا (كمك) ثم نمشي حتى الثالثة أو الرابعة بعدالظهر بدون توقف حتى ولا لحظة،ونأكل ست تمرات ،وشيئاً من البقسماط ونحن نسير . ثم بمجردوقوفنا وقبل أن نضرب الخيام نوقد ناراً ونصنع قهوة ، تصبرنا حتى يكون العشاء معداً حوالى مغيب الشمس . انه لمدهش كيف أن طعاماً قليلا يمكن للمرء أن يعتمد عليه وهو مسافر . لم نتناول لحماً مدة الاربعة الايام الماضية الى اليوم ، فقط مرق لحم بقري ، وبرغل ، وتمر ، مع بصل مشوي أحيانا ، أو دقيق مخلوط بمسحوق (الكاري) والزبدة ، يخبز في هيئة كعك (كليجا) وهذا الأخير طيب جداً وسهل الصنع .وعلى أية حال ،فإننا اليوم في رخاء حيث ان الكلاب طاردت أرنبا برّياً فاصطدناه . والأرنب الصحراوي أكبر قليلا من الارنب الكبير ، وهو كثير جداً لواحد ،ولا يكفي لاثنين ، غير أن محمدا يتنازل بشهامة عن نصيبه ، ويقول انه يستطيع أن ينتظر

من حكايات « محمد » الدليل ..

ان محمداً يعمل على تخفيف نزاع شب هذا المساء على اختيار مكان المخيم ، بأن يحكي لنا بعض قصص مغامراته في الصحراء ، ونحن نحكي له قصصنا . كان له اخ أصغر ، وكانت امه شديدة الكلف به ، طفل عادي من المدينة ذو « وجه ابيض كفتاة » عرف القراءة ، والكتابة ، ولم يعرف شيئاً عن الصحراء (محمد نفسه ، .... ، كان دائماً جمالا) . والآن في تدمر يثور القتال والخصومات بينهم باستمرار من اجل الشياخة ، وفي مناسبة من هذه المناسبات ارسل ابوام اخاه إلى السخنة ، القرية المجاورة ، على بعد حوالي ٣٠ ميلا من تدمر ، وهناك اقام بعض الوقت مع قريب . واخيراً ، مل ، على اية حال ، من البقاء بعيدا عن وطنه ، واراد ان يرى امه . فخرج مع غلام اخر (من ١٠ إلى خمسة عشر سنة) ليسيرا عائدين إلى تدمر . وكان ذلك في منتصف الصيف ، وضلا طريقهما وهاما بعيداً حتى حماد حيث ماتا من العطش . وخرج محمد يبحث عنهما ، فوجدهما ميتين متلاصقين .

وفي مناسبة اخرى كان لمحمد نفسه لقاء مع الموت تقريبا .

فقد سار وحيداً إلى القريتين ، ووقع في غزو لقطاع الطرق من التلال . وجرده هؤلاء من كل شيء باستثناء قميصه

وطربوشه . إما بندقيته فقد دبر ان يخفيها في حرج، ولكنهم لم يتركوا له أي شيء آخر ، لا طعام ولا ماء ، وكان ذلك في منتصف الصيف . وكانت القريتين ، اقرب مكان ، على بعد حوالي ٤٠ ميلا . وكان مصابا بالعرج من ضربة تلقاها . وعلى اية حال ، اتجه بعد ذهاب اللصوص، في ذلك الاتجاه وتحامل على مواصلة السير حتى الليل واليوم التالي إلى ان وصل إلى خرابة تسمى قصر الاخيضر ، سقط فاقد الاحساس في الظل، وتمدد ٢٤ ساعة غير قادر على الحركة ، يعاني سكرات الموت من العطش . واخيراً ، حينما قال لنفسه : « الآن سيكون على ان أموت » ، مرت جماعة من الجمالين ووجدوه طريحا هناك . وفي البداية ظنوه عبدا ، لأن الشمس قد حولته إلى اسود ، وكان لسانه جافا فلم يستطيع الكلام . ولحسن الحظ ، عرفه واحد من الجماعة ، وعندئذ اعطوه ماء . وكان ما زال غير قادر على ان يخبر عن نفسه ، ولكنهم وضعوه على حمار واحضروه معهم إلى تدمر .

وكانت قصتنا هي خصامنا مع (أبو تجاد) واندفاعنا من العقبة الى غزة ، حينما كدنا نهلك من العطش .

برد شديد يسبب مرضاً

كان العام سيبدأ بداية رخاء ، لولا البرد الشديد الذي أصيب به (ولفرد) . لقد فقد صوته .

٢ يناير : (١٨٨٠م).

صقيع شديد – الماء متجمد في الدلو . وصلنا (ابار شيبا؟) في الثامنة والنصف ، وسقينا الجمـــال – ملوحة الماء شديدة – المستوى طبقا للبارومتر الجاف ٩٥٠ العمق حتى سطح الماء ١٢ قدماً . أتينا إلى ما يشبه الدرب ، جزءاً من السباخ ، إلا أنه من الواضح غير مطروق كثيراً .

في الساعة الواحدة (بعد الظهيرة) أتينا إلى بئر آخر ، بالقرب من صخرة غريبة ، حسبناها في البداية قلعة

« النبك » أبو قصر ، وبئر (الجراوي)

لقد عبرنا الآن الوادي وها نحن على ضفته الغربية . مررنا ببيت خرب ، ليس ذا قيمة أثرية كبيرة ، يسمى (النبك أبو قصر) بئر أخرى بالقرب منه ، وفي الساعة الرابعة والنصف خيمنا تحت تلال رملية ، تتوجها الغضا . بقعة مبهجة ليست بعيدة عن بئر رابعة تسمى بئر الجراوي – المستوى طبقاً للبارومتر ١٨٤٠ . استعاد (ولفرد) صوته لكنه ما زال يعاني برداً خبيثاً . وأنا مازلت عرجاء كما كنت ، ولو أن الألم قد قل . وأني لا أظن أحياناً انني لن استعيد قدرتي على المشي .

هجوم على الكاتبة .. وعلى زوجها

الجمعة ٣ يناير : (١٨٨٠م).

لقد قمنا ، بمغامرة ، أخيراً ومغامرة غير موفقة ، درس قاس يتعلق بخطر إقامة مخيم قرب الآبار ، ابتدأنا مبكرين ، ولكننا عوقنا ساعة كاملة في الجراوي نأخذ ماء ولم نغادر الآبار حتى الساعة الثامنة تقريباً . ثم درنا متجهين نحو الشرق تقريباً نحو الوادي . التربة رمل صافي البياض وكان يصعب السير فيه ، فسرنا متمهلين ، عابرين تموجات بدون أية علامة أخرى غير التلال التي تركناها خلفنا . وهنا وهناك برزت روابي يكسوها الغضا . الى واحدة من هذه هرعنا ، (ولفرد) وأنا ، تاركين الجمال خلفنا ، ترجلنا وربطنا مهرينا الى الأشجار ، حتى يمكننا أن نتمتع ببضع دقائق من الراحة ، ونأكل نصيبنا من لقيمات منتصف النهار — بينما لعبت كلابنا السلوقية وطاردت بعضها بعضاً في الرمال . انتهينا نتحدث عن لست أعلم ماذا ، حينما مرت بنا الجمال . كانت على بعد لا يكاد يبلغ مائتي ياردة أمامنا حينما سمعنا فجأة ، وقعاً ، يتردد وقعاً على الرمال ، صوتاً يحدثه عدو ، ووثب (ولفرد) واقفاً على قدميه ، ونظر حواليه ثم نادى : « اركبي على مهرك هـــذا غزو » وعندما زحفت بـــين الأشجار الى مهري رأيت كوكبة من الفرسان مندفعين بأقصى سرعتهم مشرعين رماحهم ، على بعد

لا يبلغ مائتي باردة . كان (ولفرد) راكباً حين تكلم وكان يجب أن أكون كذلك،لولا ركبتي المرضوضة والرمل العميق، وكل منهما انتهى حينما كنت انهض . وسقطت ، لم يكن هناك وقت للتفكير ، وما كدت أقف بجهد على قدمي ، حتى كان العدو يقف علينا ، وحتى صرعت بضربة من حربة . ثم احدقوا جميعاً بـ (ولفرد) ، الذي انتظرني وثب بعضهم على الأرض يمسك بعنان مهره . وكانت بندقيتي معه ، وكنت ناولتها له قبيل قليل ، ولكنها غير معمرة ، وكانت بندقيته وسيفه على ذلوله . ولحسن الحظ كان يرتدي ثياباً ثخينة (كثيفة)، عباتتين أحدهما فوق الأخرى ، ومن تحتهما ثياب انكليزية ، ولذلك لم تؤذه الرماح . وأخيراً تمكن مهاجموه من أخذ البندقية منه وكسرها على رأسه ، مسددين له ثلاث ضربات، محطمين كرمي البندقية . وبدت لي المقاومة لا فائدة منها،فصحت باقرب فارس:(انا دخيلك .. انا تحت حمايتك)، الشكل المعتاد للتسليم . وعندما سمع ولفرد هذا وظن انه قد لقي ما يكفي من هذه المبارزة غير المتكافئة ، واحد ضد اثني عشر ، رمى بنفسه من فوق المهر .

وتوقف الخيالة (الفرسان) ، وقد قبضوا على كلا المهرين ، وما ان جمعوا انفاسهم ، حتى بدأوا يسألوننا : من كنا ؟ ومن أين جئنا ؟ اجبنا،، انكليز وقادمونمن دمشق ، وجمالنا قريبة من هنا . تعالوا معنا وستسمعون عنا ، بينما كان هذا يجري ،

واستمر فقط ٥ دقائق ، شكلت قافلتنا مربعا ، وكانت الجمال مناخة ، كما استطعنا ان نرى هذا ببساطة من حيث كنا . وما كدت اتوقع ان يفعل الفرسان ما طلبنا ، ولكن الرجل الذي ظهر انه عقيدهم تركنا في الحال نسير (وهو عمل يسبب لي الما حادا) ، وتبعنا مع الآخرين إلى القافلة . وجدنا محمدا وبقية جماعتنا ، متحصنين خلف الجمال ومصوبين بنادقهم ، وخرج محمد متقدما إلى الامام . وكان أول سؤال : « من انتم ؟ » . « رولة .. ابن ضباع » . « والله ؟ تحلفون بالله ؟» والله ! نحلف » . « وانت ؟ » « محمد بن عروج من تدمر » . « والله ؟ » « والله ! » . وهذان الفرنجيان المسافران معكم ؟ « والله ! فرنج ، اصدقاء ابن شعلان » .

سلامة .. بسبب حماية ابن شعلان

وكان كل شيء على ما يرام لقد وقعنا في ايدي اصدقاء . كان ابن شعلان ، مضيفنا في العام الماضي ، ملتزما بحمايتنا ، حتى على البعد من الصحراء . ولم يكن أحد من قومه ليجرؤ على التدخل في شؤوننا ، وهو يعلم هذا . وفوق ذلك . فمحمد كان تدمريا ، ولذلك لا يقدر (الرولة) أن يسيئوا اليه ، لأن تدمر تدفع إتاوة لابن شعلان ، وللتدمريين حق في حمايته .. وهكذا ، فبمجرد ما أصبحت الملابسات جليـــة ، صدرت الأوامر من رئيس الجماعة الى أتباعـــه أن يعبدوا مهرينا ،

والبندقية ،وكل شيء وقع في الهرج.حتى كيس دخان (ولقرد) كل شيء استعيد . وتجهم وجه الزميلين الشابين اللذين كانا أخذا المُهْرَيْن يندبان بمرارة الحظ السيء في أنهم وجدونا أصدقاء . قال : آه يا للمهرين الجميلين والبندقية الجيدة !! ولكن العرب ذوو مزاج حسن ، مهما كانت أخطاؤهم الأخرى ،وكنا حالياً على خير وفاق ، نجلس في حلقة على الرمال ، نأكل تمراً ، وندير أنبوبة السلم . لقد كانوا الآن ضيوفنا .

ثناء على حسن معاملة أولئك الاعداء

كان ما جذب اهتمامنا كشيء غريب في كل هــــذا ، هو حسن الظن الذي به صدقوا كل كلمة قلناها . لقد تكلمنـــا بالصدق،ولكن لماذا وثقوا بنا ؟ أنهم لم يعرفونا نحن ولا محمدا، ومع ذلك ، فقد أخذوا كلمتنا على اننا أصدقاء ، في حين كان بمكنهم بسهولة الاغارة علينا وعلى ممتلكاتنا بدون سؤال . لا أحد مطلقاً كان سيسمع عن الأمر ، أو يعرف من كانوا .

ويبدو ان ابن (الضبعة) [١] ، الشيخ ، وأصدقاءه كانوا جماعة صغيرة في طليعة الجماعة الرئيسية (للرولة). لقد جاءوا يستطلعون أماكن الكلأ الممكن توافرها في الوادي ، ورأوا

(١) تقدم ذكره باسم (ابن ضباع) والمعروف انه يسمى ابن ضيعان من قبيلة الشرارات لا من قبيلة الرولة ، ويدل على هذا ان البلاد كانت تحتلها اذ ذاك قبيلة الشرارات .

أثرنا على الرمال ، فتتبعوا ، راكبين في سرعة حامية ،ليلحقوا بنا . كانت مجرد صدفة ،أن وجدونا منفصلين عن بقية القافلة، وهدأوا بمجرد أن رأونا . كل شيء يعتمد على السرعة في هذه الهاجمات ، وقد كان هذا ناجحاً تماماً .أقل تردد من جانبهم، وكنا نجونا بجمالنا . وهناك لم يكونوا ليستطيعوا أن يمسونا بسوء ، ذلك مع أنهم ١٢ بالنسبة لثمانية منا ، لم يكن لديهم الا حراب ، بينما كان معنا أسلحة نارية .لقد أحببنا منظر هؤلاء (الرولة) الفتيان . فبالرغم من سلوكهم الخشن ، استطعنا أن نرى فيهم رجالا نبلاء . لقد شعروا بالعار لاستعمالهم لحرابهم ضدي ، وأفاضوا في تقديم الاعتذارات ، لقد شهدوا شخصاً يرتدي عباءة ، ولم يشكوا مطلقاً في ان لابس العباءة رجل . وحقاً ان خطاهم ليس مسألة ناتجة عن المفاجأة ، فانفاسهم كانت منقطعة وكان العدو قد أثارهم لدرجة انهم لم يكونوا ليروا شيئاً سوى موضوع يتعلق برغبتهم - المهرين . وفقد هذين - على اية حال اخشى ، كان بالنسبة لهم سبباً لحزن أكبر من تصرفهم الخشن الذي عاملونا به ، حينما ركبوا مولين ،بعد أن أعطيت التوضيحات وتبودلت الاعتذارات . كان محمد قلقاً ألا يؤخرهم ، معتبراً بفطنة أن تآلفنا معهم قد سار بما فيه الكفاية ، وكان من الواضح ان (عواداً) كان في تمثل مريع . واتوهم ان عليه ديوناً كثيرة من الدم مستحقة الاداء ، وانه الى حد ما يخجل من الغرباء . وكان الآخرون ايضاً خاضعين نوعاً ما وصامتين ، وهكذا

ودهنا ابن ضبعة وتركناه يلهب .

كانت الامهار المنتمية لهـــذا الغزو صغيرة (مدموكة) ونشيطة ، ذات أكتاف طيبة على الخصوص، ورؤوس رفيعة، ولكنها كانت من النمط البوني (السيسي) أكثر من أمهارنا المنزية . وكان معظمها كُمَيتة . ورأيت أحدهـــا مركوباً في اللجام .

من آثار الهجوم

ولما ذهب (الرولة) قارنا ملاحظاتنا . فحصت اولا جروح (ولفرد) . ولكنها ليست إلا رضوضاً . تلقى الثوب السميك الذي يلبسه حول رأسه كل الضربات ، ومع ان كعب البندقية محطم تماماً بصلبه وخلافه ، فما زال رأسه سليماً . ولم تستطع الرماح ان تخترق ملابسه . أما فيما يتعلق بي ، فان الضرر الوحيد الذي أصبت به هو تجديد للالتواء الذي كنت مصابة به . غير اني لم أستطع تقريباً ان أنسى آلامه في غضبي عليه، باعتباره سبب القاء القبض علينا . ولولا هذا لربما أمكننا ان نعدو مبتعدين الى جمالنا ، وان نستقبل العدو باسلوب آخر تماماً . وسئلت فيما اذا كنت قد خفت ، ولكن الواقع انه في البداية لم يكن هناك وقت ، وبعد ذلـــك ابتلع الغضب كل احساس آخر . ويقول ولفرد غير اني لا أصدقه —: انه احس بالخوف ، وكان على وشك ان يهرب ويتركني ، ولكنه بقي

بعد التفكير . وتبدو المسألة الآن ، وهي منتهية ، أكثر ارعاباً ، وقد يكون أمراً طبيعياً .

أما بالنسبة للاخرين ، فمحمد مطاطيء الرأس بشكل مريع ،بسبب عدم قيامه بنصيب بطولي في العملية . وكان الموقف الدفاعي المحض للقافلة حصيناً بدون شك ، غير انه بدا لا يتناسب تماماً مع المثل الأعلى للفروسية التي يعترف بها محمد دائماً . ويستمر في تأنيب نفسه ، ولكننا نخبره انه فعل عين الصواب . كان ، بكل تأكيد ، خطأنا اننا فوجئنا بهذه الطريقة . ولو ان العدو ، كما كان محتملاً ان يكون ، كانوا حقاً قطاع طريق وخارجين على القانون ، فان سلامتنا كانت تعتمد على احتفاظنا بالقافلة سليمة كقلعة لنعود اليها بعد ان نكون قد نهبنا . فلو انهم هرعوا في فوضى لمساعدتنا كان سيعرض القافلة للهزيمة ، التي كانت لن تعني في منطقة مقفرة كهذه ، شيئاً اقل من الموت برداً ومسغبة .

حقاً قد نكون ممنونين ان الامور لم تكن أسوأ . لن أترجل أبداً ما دمت عرجاء ، ولن اربط حصاني الى شجرة ما حييت .

ويبدو أن نذوراً كثيرة من الأغنام نذرت من قبل المشاهدين أثناء الواقعة ، وهكذا ستكون عندنا وليمة في الجوف — اذا وصلنا هناك .

كل شيء هادىء الآن ، وحمدان الشراري يغني غراميات

شاب وعذراء فرق بينهما المفسدون ، ودبرا فيما بعد استمرار وصالهما بربط اشاراتهما الاصطلاحية (من الخرق والورق والعظام) . في الماعز حين تخرج هذه الى المراعي .

في الحماد : بين وادي السرحان والجوف

٤ يناير ، (١٨٨٠م).

لم يكن هناك تلكؤ هذا الصباح ، فكل واحد قد أصبح جاداً ، وانطلقنا في السابعة ، وواصلنا السير ثلاثين ميلاً بدون توقف ، بسرعة ثلاثة أميال ونصف في الساعة . لقد تركنا وادي السرحان نهائياً ، وها نحن نعبر (الحماد) إلى الجوف . لا ماء يوجد في هذه الطريق ، ولكنه أقل عرضة للغزو . وكانت التربة حصباء خفيفة ، قل أن يوجد فيها نبات أو عدم استواء يعوق خطو الجمال . وأتينا في الساعة الواحدة (ظهراً) إلى بعض تلال من الصخور الرملية (يغطيها الحديد) ، وهي بداية الأرض المتكسرة ، التي تقوم فيها الجوف ، كما يقولون . لقد كنا نسير صعداً بالتدريج طول اليوم ، وحين وصلنا ذاك أعلى نقطة على طريقنا ، سجل (البارومتر) ٢٦٦٠ قدماً . وجدنا هنا عدداً من الحفر ، تستعمل ، كما أوضح حمدان ، لجمع وتنقية السمح[١]، وهو حب صغير أحمر ينمو وحشياً (شيطاني)

(١) السمح : نوع من النبات يؤكل ، ويسميه بعضهم (البسيسة) .

في هذا الجزء من الصحراء ، ويستعمله أهل الجوف كطعام .

وبعد قليل أبصرنا رجلين على ذلول ، أول من رأينا من الناس عدا الغزو ، منذ أن تركنا (كاف) وعدا (ولفرد) ومحمد ليريا ماذا يكونان، وأطلق محمد عدة أعيرة نارية، ليكفر عن جوده، كما افترض، في المناسبة الأخيرة ، ونجح في افزاعهما وإطارة صوابهما . كانا رجلين في غاية الفقر ، يرتديان قمصان بالية ، وكان معهما قربة من التمر في أحد جانبي الجمل وقربة من الماء في الجانب الآخر . قالا انهما خرجا بحثاً عن رجل ظل في وادي السرحان أحد الرجال الذين أرسلهم ابن رشيد إلى كاف من أجل الأتاوة . لقد أخذ مريضاً ، وتوقف خلف رفاقه ، ولم يره أحد منذ ذلك الحين . وقد أرسلهما حاكم الجوف ليبحثا عنه . وقالا: إننا كنا على بعد بضعة ساعات من المدينة فقط .

وفي نفس الوقت ، بقينا مع جمالنا نستمع إلى ملاحظات عواد وحمدان ، يقتلهما حب الاستطلاع عن (الزلمتين) من الجوف . وأخيراً لم يعد في مقدرة عواد أن ينتظر ، ورجا حمدان أن يذهب معه . وقفز الاثنان من فوق جمليهما وانطلقا يجريان بأقصى ما يستطيعان ليقابلا الجوفيين ، اللذين كانا في هذا الوقت قد تقدما في طريقهما ، بينما كان (ولفرد) ومحمد عائدين . ومد ولفرد عند عودته إليّ حفنة من أحسن التمر

الذي ذقته في حياتي [١]، كان الرجلان قد أعطياه إياه. وعاد عواد والشراري الآن بلا تمر ، بل بقدر كبير من القيل والقال عن الجوف .

نحن نخيمون هذا المساء بالقرب من بعض التلال العجيبة من الصخور الرملية ، الحمراء ، والصفراء ، والارجوانية ، تكوين مشابه تماماً لأجزاء من شبه جزيرة سيناء . وهناك منظر فخم إلى الجنوب ، وتستطيع أن ترى في البعيد خطاً أزرق من التلال (جبال الطويل) ، وهي كما يخبروننا خلف الجوف في طرف النفود .

الدليل الشراري يتحدث عن قبيلته

لقد ظللنا نسأل حمدان عن قبيلته ، الشرارات ، وقدم ما يأتي باعتباره البطون الرئيسية [٢] :

الحميرة ... الشيخ الحاوي .

الحلبة ... الشيخ ابن حديجة .

الجيالي ... الشيخ زيد الوردي .

---

(١) هو النوع المعروف بالحلوة (حلوة الجوف وبقعاء) .

(٢) التحريف واضح في هذه المعلومات وقد نعود الى تصحيحها بمعرفة القراء الكرام .

الشملات ... الشيخ فتح الله الدندة .

وليس الشرارات خيول، ولكنهم يربون أرقع أنواع الهجن في بلاد العرب . وأحسن قصية تسمى (بنات عدهان) [1] ويلت عدهان ، كما يقال ، لو ابتدأت من حيث نحن الآن عند الغروب ، لكنت في الغد . عند الشروق في (كاف)، مسافة تقدر بمائة وثمانين ميلاً .

منذ مدة ليست بالطويـــلة سرق لص ذلولاً شرارية في (المزاويب) ، وركبها إلى حائل في سبعة أيام بلياليهن .

الوصول الى الجوف

٥ يناير : (١٨٨٠م).

ركوب طويل متعب مسافة ميلين ، متوقعين دائماً أن نرى الجوف ، ودائماً نصاب بالخيبة . والسطح مكسر الى تلال وسلاسل رائعة ، ولكن على مستوى ارتفاع أدنى من الأمس ، في الحقيقة ظللنا في انحدار طول اليوم ، وبين اونة وأخرى كنا نلمح وادي السرحان في البعيد إلى اليمين ، مع تلال زرق خلفه ، ولكن بدا أمامنا متوالية لامتناهيـــة من

---

(١) عدهان فحل مشهور عند الشرارات، وهم ينسبون الابل النجيبة اليه فيقولون (من ساس عدهان نسل عبدهبة) .

السلاسل الصخرية . وفي النهاية من قمة واحدة من هذه ،أصبح خط أسود ممكن الرؤية ، ينتصب بسواده مواجهاً التشويش الاصفر تكونه تلال من الصخور الرملية ووديان جديبة،عرفنا انها يجب أن تكون قلعة مارد . ولقد بدت ، حقاً ، حصناً يوحي بالجلال والهيبة . ولو أنهـــا موحشة بشكل كاف في وسط هذا القفر . ونحو هذا اندفعنا رغبة في منظر أقرب ثم جئنا الى طريق طبيعي مرتفع من صخور بيضاء ، أكد كل من عواد وحمدان انها استمرار لطريق الرومان الى (صلخد). كنا حريين أن نصدق هذا ، غير أنه كان واضحاً جداً أن الطريق صنعتها الطبيعة . وعلى طول هذه ، سافرنا بعض أميال حتى اختفت .

وفجأة أتينا الى ما يشبه طرف حوض ، وهناك بالقرب منا الى الاسفل، امتدت واحة واسعة من النخيل محاطة بسور ذي أبراج على مسافات بينها ، ومدينة صغيرة ملتفة حول القلعة السوداء .

لقد كنا في الجوف .

القسم الثاني :

بلاد الجَوْف [دومة الجَنْدل ، وسكاكه[1]]

(في هذا الفصل - وهو الجزء السادس من الكتاب - تقدم المؤلفة وصفاً شيقاً لمدينة الجوف ، وسكاكا ، ولمحات عن الأحوال السياسية في ذلك العهد .

وترسم - في الفصل السابع ، المضاف الى هـذا القسم - صورة واضحة للمجتمع النسائي في الجوف ، حيث اختلطت بكثيرات من النساء ، قائمة بدور الخاطبة لمليلها التدمري من محمد آل عروج من اسرة آل عروج في الجوف) .

---

(١) سمتها الكاتبة (سكاكا) وهو تحريف .

ليست الجوف مطلقاً كما توقعنا . كان ظننا أننا سنجدها منطقة واسعة عامرة ، ويتحول ذلـــك لتكون مجرد مدينة صغيرة ، لا شيء هناك على الاطلاق خارج الأسوار سوى بضع بقع مربعة ، كل منها نحو نصف فدان ، مخضرة بالحنطة الفتية وتسقى هذه ، من آبار ، وتروى تماماً مثل البساتين داخل الأسوار ، بمجاري صغيرة رسمت بعناية في أشكال ، مثل كملك المربى .

حوض الجوف كان بحراً :

وكل حوض الجوف بحق يكاد يبلغ ثلاثة أميال عرضاً في أوسع نقطة منه ، ويبدو ، وهو كذلك بدون شك ، الحوض الخالي لبحر داخلي ، أما كيف ، أو متى ، أو لماذا جف في الأصل ، فأمر فوق طاقتي لأخمن (يستطيع المرء فقط أن يقول مع محمد، انه « من الله ») ، لكن براهين أصله البحري واضحة في كل مكان . ويبدو أوطأ من بقية وادي السرحان ، الذي من المحتمل انه يتصل به ، وفي البداية ظننا انه ربما كان آخر التجويف المائي ، عندما كان « البحر » حينما جف . ولكن القضية ليست كذلك في الواقع ، من حيث أن أوطأ جزء منه بالضبط على مستوى واحد مـــع جميع تجويفات الوادي .

آبار الجوف وبساتينها

وابارة بين ارتفــاع ١٨٠٠ و ١٩٠٠ قدم فوق سطح البحر ، وهي ضحلة ، بضعة أقدام فقط من سطح الأرض ، وينزح المـاء بواسطة جمال تجر حبلا طويلا ذي دلو ، يفرغ نفسه عندما يصل إلى السطح في ما يشبه الحوض .

بنيان البلدة ، وسوقها :-

والمدينة ، مع بساتينها ، محاطة بسور من اللبن ، ارتفاعه عشرة أقدام ، وطولها نحو ميلين من الشمال إلى الجنوب ، ونصف ميل عرضا . وبقية السهل تقريبا مسطح موات من الرمل ، مع بقعة هنا وأخرى هناك من الأرض الصلبة ، وصلصال رملي حيث تتجمع المياه عندما ينزل المطر ، ويبقى الملح عندما تجف .

وأينما حُفِرَتْ بِئْرٌ اتخذ بستان صغير ، مسيج بحائط ، ومزروع بنخل .

ويوجد حوالي اثنى عشر من هذه الحقول القاصية يحتل كل واحد منها حوالي فدانين أو ثلاثة .

وفي مكان واحديوجد اربعة أو خمسة بيوت بساتينها معها ولها منظر قرية . والحوض بكامله ، باستثناء هذه الواحات ، أبيض يخطف البصر ، وتظهر احراج النخيل كبقع سوداء على سطحه .

والجوف نفسها لا تحتوي على أكثر من ستمائة بيت ، وهي كصناديق مربعة من اللبن ، ملتمة ، معظمها ، حول خربة (مارد) ، لكن ليس جميعها ، إذ يوجد حوالي ستة منها منفصلة تلتم في أجزاء مختلفة من الحرج ، وكثير من هذه البيوت لها نوع من الابراج ، أو طابق علوي ، وهناك ابراج صغيرة على مسافات غير منتظمة حول السور الخارجي . ان احدى القسمات الرئيسية للمدينة ، بالاضافة إلى مارد ، هي قلعة جديدة خارج صحن الحصن تماما ، يعيش فيها نائب ابن رشيد وتقع على أرض مرتفعة ، وهي مبنى مؤثر في النفس ، مربع الشكل ، وله أسوار ذات شرفات ، وذات ارتفاع قدره ٤٠ قدما ، تتاخمها ابراج دائرية ومربعة تستدق أطرافها مرتفعة ٤٠ قدماً على البقية ، وليس لها نوافذ ، بل ثقوب للرمي منها ، ولكل برج زوائد تشبه القلنسوة لنفس الغرض .

وليس في الجوف ما يمكن ان يعتبر سوقا ، ولا حتى شوارع ، كما يفهم المرء عموما من هذه الكلمة ، مجرد عدد من الخطوط المتعرجة ، ذات جدران من اللبن على الجانبين

السكان ، وبعض اخلاقهم

وعندما دخلنا المدينة راكبين وجدنا هذه الخطوط مزدحمة برجال مسلحين ، جميعهم يحملون سيوفا بالطريقة التي رأيناها في كاف ، مسودي الوجوه ، وغير مسرورين من رؤيتنا ، كما

ظلتنا . وردوا على تحيتنا (السلام عليكم) ببساطة ، وبدون حركة ، وتركونا نمر دون بادرة معينة للكرم . ان نفترض أنهم غيرمكترثين كان على أيّة حال خطأ، كان برودهم البادي مجردرسميات عربية،فعندما بدأ محمد يستفهم عن بيت اقربائه، أشاروا إلى الطريق بكل مدنية ، وجاء معنا ولحد أو اثنان منهم وأخذنا باتجاه عدد من المسالك الضيقة، ومن خلال بساتين النخيل إلى الجانب الآخر من المدينة،ثم خارج المدينة من خلال بوابة أخرى إلى الخلف إلى أحد الحقول المنعزلة التي رأيناها من المرتفع . وكان قريبا ، على بعد لا يبلغ الميل ، وفي بضع دقائق أخرى ترجلنا ، وعوملنا بكرم بالغ في (قهوة) حويسين الانيقة .

في ضيافة أحد أقرباء الدليل

أما عن ما هي بالضبط علاقة حويسين بمحمد ، فلم أستطع بعد اكتشافه – ومحمد نفسه لا يكاد يعرف – غير أنه من الواضح هنا ان أية قرابة عصب مها كانت خفيفة،تعتبر ذات أهمية عالية .

لم نكد نجلس الى نار حويسين نراقب تحميص البن ، حتى وصل قريب آخر ، جذبه نبأ وصولنا ، ثم آخر ، وكلاهما يضجان بالمعاتبة لكوننا قبلنا ضيافة حويسين لا ضيافتهما .

وُقبّل محمد ، وعونيق ، وكل ما استطاع أن يفعله

لتهدئة هذين القريبين المجروحين هو أن يعد بأن يقيم أسبوعاً عند كل منهما بمجرد ما تنتهي زيارتنا لحويسين . حقاً ان الدم هنا قوامه أثقل من قوام الماء . ان الظهور المفاجيء لابن العم العشرين يكفي لأن يولد الخصام عند كل أحد .

ذبح خروف، واستمتع كل واحدمنا بترف الحمّام في خيمتنا. وتغيير تام للملابس . ان الخيمة منصوبة في بستان صغير للنخل خلف المنزل ، ونحن هادئان في سلام ، وفي قدرتنا أن نعيد التفكير في كل ما حدث ، ونضع مشاريعنا من اجل المستقبل.

دعوة من الحاكم الرشيدي

٦ يناير : (١٨٨٠م).

البارحة ، بينما كنا جالسين نتناول القهوة للمرة للتاسعة أو العاشرة منذ وصولنا دخل الى القهوة شابان وجلسا . كانا في ملابس زاهية ، جُبَب حريرية وقمصان مطرزة تحت عباءتهما الصوفية السنجابية اللون . وكل منهما وضع على رأسه كوفية (غترة) حمراء من القطن ، وعقالاً أبيض ، وكان سيفاهما بمقبضين من الفضة . وقف كل واحد في (القهوة) عند دخولهما وظن كلانا انهما ابني الشيخ ، أو من شخصيات الجوف البارزة. وهمس (ولفرد) بسؤال عنهما الى حويسين ، الذي ضحك وقال : انهما لم يكونا من أبناء المشايخ ولكن « زلمات

ابن رشيد » — رجال ابن رشيد ، من جنوده ، في الواقع . كانت الكوفية (الغترة) الحمراء والسيف ذو المقبض الفضي ، نوعاً من الزي الرسمي . لقد جاءا ، كما اتضح الآن ، من عند "دوّاس الحاكم بالنيابة في الجوف ، ليدعوانا الى القلعة ، ومع اننا كنا آسفين أن نترك بستان حويسين الهادىء وكرمه اللطيف ، فقد ظننا أن من الحكمة أن نستجيب .

في قصر الحاكم الرشيدي

وبدا انه لا حويسين ولا أي شخص آخر يفكر أنه من الممكن أن نستطيع أن نرفض ، لأن حكومة ابن رشيد مطلقة في الجوف ، ورغبات نائبه ينظر اليها كأوامر ، ولا يبدو أن هناك أي شعور سيء بين الحامية والمدينة .

ويظهر ان الجنود الذين رأينا على وفاق تام مع كل انسان وهم حقاً ذو أرواح مرحة بحيث أنه سوف يكون من الصعب أن نتخاصم معهم . ولكن الجوف محل مقهور ، وفي حالة حصار دائم ، والنظام المحافظ عليه صارم جداً .وعلى ذلك فقد انتقلنا بكل مخيمنا الى أرباض المقر الرسمي ،وها نحن مخيمون تحت أسواره .

ان القصر ، وهو — كما قلت — خارج المدينة قام ببنائه منذ حوالي اثني عشر عاماً ، متعب ابن رشيد ، أخو الأمير

طلال (صديق المستر بلجريف) ، ورغم أنه حديث جداً في تشييده ، فله مظهر العصور الوسطى الكامل ، لأن الهندسة المعمارية لا تتغير قط في بلاد العرب .

وهو مبنى بهيج بأبراجه الأربعــــة في الأركان ، تتخلله الثقوب ولكن بدون نوافذ . ويوجد باب واحد فقط ، وذلك صغير في زاوية من زوايا الســور ، ويبقى دائماً موصداً . وفي داخله يدور المدخل ويتعرج ، وبعد ذلك يوجد فناء صغير تحيط به أسوار عالية ، و (قهوة) ، بالاضافة الى بضع غرف صغيرة وكلها مظلمة وكئيبة كالجب .

هنا يعيش نائب الحاكم مع ستة جنود شبان من حائل ، الذين يحكمون ويقومون بأعمال الحامية وأعمال الشرطة في الجوف . والحاكم نفسه غائب الآن فقط في (سكاكا) ، المدينة الصغيرة الأخرى في نطاق منطقة الجوف ، وهي على بعد ٢٠ ميلاً من هنا وهو عبد زنجي ، كما أخبرنا ، ولكنه شخص على درجة كبيرة من الأهمية ، وصديق شخصي للأمير .

من تاريخ الجوف الحديث :

والجوف ، بقدر ما استطعنا أن نعلم من محمد ، لأننا لا نحب أن نسأل أسئلة كثيرة ، كانت في السابق اقطاعية لآل شعلان مشايخ (الروله) ، ولا تزال تدفع الاتاوة (لعطام) ، ولكن متعب بن رشيد فتحها منذ حوالي ٢٠ سنة ، وعوملت

منذ ذلــــك الحين كجزء من نجد . وقد حدث تمرد مرة أو مرتين ، غير أنه أخمد بعنف ، وتخاف الجوف الآن من أن تحرك أصبعاً ضد الأمير . وبمناسبة واحدة من هذه التمردات قطع متضب عدداً كبيراً من أشجار النخيل ، وترك المدينة في حالة نصف خراب ، وهكذا أجبروا على الاصطبار والانتفاع بها . وفي الحقيقة قل أن تستطيع الحكومة أن تكون شديدة الجور فهؤلاء الستة الجنود بأقوى ارادة في العالم لا يستطيعون أن يستبدوا كثيراً في مدينة ذات أربعة أو خمسة آلاف من السكان . انهم جميعاً شبان أشداء ، نشيطون ، لطاف الروح ، يخدمون هنا سنة دفعة واحدة ، ثم يعفون . انهم متطوعون ، ولا يحصلون على رواتب ، ولكن لهم ، كما افترض ، بعض ميزات حينما يكونون قد أدوا خدمتهم . ويبدو عليهم الاخلاص للأمير .

محاولة تركية للاستيلاء على الجوف

يخبروننا أن حاكم دمشق التركي ، منذ أربع سنوات ، أرسل حملة عسكرية ضد الجوف (نفس الحملة التي سمعنا عنها في كاف) ، ولكن ابن رشيد شكا من هذا إلى السلطان ، وهدد بطردهم وبعدم استمراره بدفع الاتاوة لشريف المدينة إذا لم تسحب القوات ، وهكذا كان عليهم أن يذهبوا من حيث أتوا .

ابن رشيد كان يدفع أتاوة للترك

وهذه الأتاوة يدفعها الأمير بسبب أملاكه النائية مثل (كاف) ،و(تيما) و(الجوف) التي حاول الترك في مناسبات متعددة أن يتحرشوا بها . وهو ، على أية حال ، مستقل تماماً عن السلطان ، ولا يعترف بالسيادة لأي مكان .

ان عظمة ابن سعود والوهابيين الآن شيء يتعلق بالماضي ، ومحمد بن رشيد أقوى حاكم في جزيرة العرب .

استقرار الامن في نجد

اننا نسمع تقريراً ساحراً عن نجد ، على الأقل عن الجزء الشمالي منه ، يمكنك أن تسافر في أي مكان ، كما يقولون ، من الجوف إلى القصيم بدون حراسة . ان الطرق آمنة في كل مكان . إن قطع الطريق لم يعرف في مسالك بلاد الأمير سنين كثيرة ، والناس الذين يوجدون يتلكأون قرب الطرق تقطع رؤوسهم . ولا يسمح ابن رشيد بغزو يشن على المسافرين ، وعندما يقوم بحرب فهي ضد أعدائه . وابن هذال وابن مجعل صديقان له ،ولكنه ليس على وفاق مع صطام وشيوخ الشنعة .

ويوجد في القلعة مدفعان زنة ١٢ رطلاً ، انجليزيا الصنع .

وهما قطعتان قديمتان لا قيمة لها ، ولكنهما استعملا كما يبدو ، في حصار الجوف بواسطة متعب .

سكان بلاد الجوف

ان الجوفيين من عنصر مختلف عن شمر نجد، فهم خليط في أصلهم تقريباً مثل التدمريين أو القرويين في الفرات .

يحدثنا حويسين الكلب، مضيفنا الأول، انه ينتمي (الطى)، وان آخرين من جيرانه من السرحان أو(بنى لام) وهو ليس في الحقيقة ابن عم لحمد ولكن ابن عم لابن عم ، فأبناء العم الحقيقيون يعيشون في (سكاكا) .

الحاكم وجنده

ومع أننا كنا مرتاحين جداً معه، فلسنا هنا أقل ارتياحاً، وانه لأمر أكثر امتاعاً أن نكون في القصر . ودواس ، نائب الحاكم ، امرؤ ينتزع الحب ، وجميع جنوده لطفاء وفضلاء للغاية . انهم مجموعة من الناس تثير البهجة ، وانهم ليتكلمون معنا بصراحة ، في السياسة وفي كل شيء . انهم يؤكدون لنا أن ابن رشيد سوف يسر لرؤيتنا ، ولكن ينبغي علينا أن نرى (جوهر)، الحاكم الأسود، أولاً . هناك عدد من الأرقاء

الحقيقيين في الحصن ، غير أنه لا نساء . ان الجنود يتركون زوجاتهم خلفهم في حائل حينما يذهبون في الخدمة العسكرية .

الحيوانات في البلدة

لا توجد خيل في الجوف ، باستثناء فلو عمره سنتان يملكه (الطويحي ؟) أحد الجنود ، الذي يبدي إعجاباً شديداً بشقرائنا (مهرة الكاتبة الشقراء) بقوله : انه ليس هناك في نجد شيء في جمالها . كما لا يوجد أي نوع من حيوانات الحمل ، حتى الحمير . والجمال القليلة الموجودة في المدينة يحتفظ بها لمتح المياه من الآبار ، وكل ما رأيته من المخلوقات ذات الأربعة أطراف هي فقط عدد قليل من الماعز ، وثلاث بقرات في القصر يعانين المسغبة .

ولا توجد ذرة من الخضرة في نطاق أميال من الجوف ، وعلى الجمال وهذه البقرات أن تأكل قشاً معطماً ولا تقبل أن تأكل التمر .

مائدة غير شهية • بعدها سهرة

تألف غداؤنا اليوم من حمل وثلاثة أطباق أخرى — احدها

نوع من المعجون يشبـــه العجينة المستعملة في لصق الورق ، وآخر مجرد زبدة زنخة مع بصل مفروم ("مهدّى")، والثالث خبز مفتوت في الماء – وكلها قذرة ما عدا الحمل . وعلى اية حال ، فقد كان هناك دور اضافي احضر لنا كمفاجأة ، لحم (فليتو) بقر وحشي من النفود ، مشوي في الرماد ، وكان من احسن اللحوم التي ذقتها .

وفي المساء رتب لتسليتنا رقص وغناء ، واشترك فيــه دواس والجنود . لعبوا نوعاً من رقصة السيف ، وكان احد اللاعبين يدق على طبل صنع من خشب النخل وجلد الحصان بينما رفع الباقون سيوفهم على اكتافهم وغنوا لحنـــاً مهيباً ، ورقصوا بمهابة وجلال . ومن وقت لآخر كانت السيوف ترفع ويلوح بها ، ثم تنطلق صرخة تشبه الى حد كبير ما قد يسمع في حلبات الصيـــد في بلادنا . ومرة او مرتين كان هناك « هو – هوب » مميزة، ومضبوطة في المفتاح الموسيقي الملائم، وبالتفخيم المناسب . كانت اكثر الألحان أخاذة ، على طريقة الموسيقى العربية . وجرى احدها على النحو التالي :

(صورة النوتة الموسيقية على صفحة ١٢٢ من المجلد الأول من الكتاب) .

انتهى الرقص ، وفي طاسة ضخمة مزج الدبس وعصير الاترج ، وشربت كميات هائلة من هذا السائل المهدىء . نحن الآن هادئان خارج القلعة ، التي توصد طيلة الليل ، وفي حريتنا

لنكتب او نضع رسوماً تخطيطية على ضوء القمر ، أشياء لا نجرؤ على فعلها أوقات النهار .

دعوة لزيارة (سكاكا) :

٧ يناير : (١٨٨٠م).

حمدان ، دليلنا الشراري الذي كان قد اختفى ، عاد هذا الصباح خفية من أجل الحساب المستحق له. يقول: انه خائف من القوم الذين في القلعة ، ولا يستطيع البقاء معنا .

جاء رسول من (سكاكا) بدعوة من جوهر لنا ، ولهذا فنحن ذاهبون هناك غدا . وسوف لا نقيم مع جوهر ، على أية حال ، حيث انه ليس له منزل خاص به ، بل سنقيم مع اقربائنا ، آل عروج ، الذين اكتشفناهم اخيرا . وقد ارسل ناصر بن عروج رأس الاسرة عند سماعه بوصولنا ، ابنه برسالة تتضمن كل صنوف الأدب ، وإلى بيته سنذهب . والشاب متواضع ، وحسن التهذيب بدون تظاهر بالأمانة والاستقامة ، لو كان بإمكان أي واحد ان يقرأ شيئا ما في الوجوه ، ومن الواضح انه شديد التأثر بالشرف الذي ناله بزيارتنا المعتزمة .

لقد كنا نقوم بزيارات طيلة الصباح ، الأولى لضيفنا

السابق حويسين الكلب ، والاقرباء الآخرين ، ثم لواحد أو اثنين من وجهاء المدينة ويقول حويسين انه يوجد (بيت حبوب) التي ذكرها المستر بلجريف .

شيخ الجوف السابق

ولكن انبل الأسر هي اسرة (محسن بن دره) ، شيخ الجوف السابق ، ولكنه الآن انزل إلى حالة واحد من رعايا الأمير . و(ابن دره) (يخبرنا محمد) ليس راضيا عن التغيرات السياسية في الجوف بأية حال ، ولكنه يخاف ان يظهر اكثر من عدم رضا ، نصف كظيم ، لأن محمد بن رشيد يحتفظ برهينة على حسن سلوكه في شخص ابنه الاكبر . ويقيم هذا الشاب في حائل ، وهو هناك ليس سجينا بالمعنى الحرفي ، لكنه لا يستطيع ان يعود إلى اصدقائه . اطعمنا ، واكرمنا في كل المنازل .

القهوة والتمر . .

وكان علينا أن نشرب اكوابا لا نهاية لها من القهوة المتبلة بالهيل وان نأكل ما لا يحصى من التمر ، حلوة الجوف ، التي يقولون عنها : انها اجود ما في جزيرة العرب . انها ذات نكهة

ممتازة ، ولكنها شديدة الحلاوة وشديدة اللزوجة للاستعمال العام . ان اهل الجوف يكادون يعيشون كلية على التمر ، ليس على (الحلوة) ، على أية حال ، وهي ليست بأية حال نوعا شائعا . توجد هنا اصناف من التمر هي من الكثرة بقدر التفاح في حدائق بلادنا ، وكل صنف مختلف عن الآخر تماما . والنوع المفضل لدينا للأكل الاعتيادي يجعد خفيف اللون ، واكثر استدارة من (الحلوة) ، في حين ان هذه لا شكل لها ، وبلون الفرس الشقراء .

انه لخطأ كبير ان تفترض ان التمر احسن ما يكون لأنه حديث الجنى ، على العكس انه ينضج مع الحفظ . واحلى الانواع تحتوي على سكر كثير ، لدرجة انها حين توضع في طبق مكشوف تنحل (نضجا) إلى شراب يتكون فيه السكر قطعا كبيرة . ولا أشك في أن السكر العادي يمكن ان يصنع منها .

طريقة صنع القهوة :

ان طريقة صنع القهوة هنا هي الى حد كبير نفس الطريقة المعروفة بين بدو الشمال ، باستثناء انها أكثر املالا . فهناك ، أولا ، عملية لا متناهية لتنقية وفرز حبات البن ، وهي أصغر حجما وأخف لونا مما يلقى المرء في أوروبا ، ثم ، بعد التحميص ،

عملية سحن طويلة في الهاون (النجر) ، ولو أن البن لا يسحن ناعماً قط ، ثم غسيل مفرط لآنية القهوة ، خمسة أو ستة منها ، وأخيراً الغلي الفعلي ، وهو يجري ثلاث مرات . ان (اهوان) الجوف أنيقة جداً، ومصنوعة من الصخر الرملي الأحمر ، الذي هو الصخر الشائع في البلاد ، وهي ، كما اعتقد، سلعة للتصدير . واني لأحب أن آخذ واحدا منها معي ، ولكنها ثقيلة جداً، كل واحد منها ربع حمل البعير . وتصميمها بسيط ولكنه أنيق ، ولن تكون مفاجأة لي لو انها قديمة جداً.

صناعات الجوف :

أما صناعات الجوف الأخرى التي سمعت عنها فهي فقط احزمة وعباءات صوفية .والاولى بهية المنظر ومطرزة بالفضة، وجميع الخدم ، اشتروا منها ، أما الأخيرة فهي مصنوعة من الصوف الذي يجلب من بغداد . واشترى عواد واحدة بستة مجيديات ونصف .

قلعة (مارد) :

بعد ذلك ألقينا نظرة على قلعة (مارد) ، البناية الوحيدة من الحجر في الجوف . ويرجع تاريخ تشييدها ، كما يمكن أن

إقول » إلى العصور الوسطى[1] وإنها بالتأكيد ليست كلاسيكية وليس لها ملامح خاصة تجعلها مثيرة للاهتمام . وتبدو أجمل على بعد . أجد الخرائط تضعها على طـــول الطريق من الجوف ، ولكنها في الحقيقة داخل أسوار المدينة ، على الطرف الغربي وتقف على ارتفاع ٢٠٠٠ قدم فوق سطح البحر .

دعوة الى الصلاة بالقوة :

بينما كنا نجلس في منزل ابن (درة) رأينا مثلاً لحكومة ابن رشيد الأبوية (البيتراركية) وأولى علامـات الوهابية . نودي لصلاة الظهر من سطح المسجد القريب ، إذ ليس هناك منارة في الجوف ، إلا أنه لم يبدُ على أي فرد لبرهة من الزمن ، أي ميل لأن يتحرك ، متخذين من زيارتنا عذراً . ثم ابتدأ رجل مسن ذو وجه فظ يحاضر الأصغرين ويخبرهم أن ينهضوا ويذهبوا للصلاة ، وعندما لم يجد لأمره أي جدوى معهم ، ضرب لهم المثل في النهاية . ومع ذلك ظلت المجموعة الرئيسية للضيوف قاعدة ، الى أن نهض فجأة الجنديان الشابان اللذان جاءا معنا ، وهما يصيحان : « قم ، قم » واضعين صفحات سيفيهما على البقية وساقاهم جميعاً الى المسجد ، جميعاً ما عدا مضيفنا الذي جعله مركزه بهذه الصفة مرعوبا من الاهانة .

---

(١) مارد : حصن قديم في الجوف ، غزته الزباء ملكة تدمر ، فامتنع عليها ، وفيه وفي الأبلق حصن تيماء جاء المثل : تمرّد مارد ، وعز الأبلق .

ومن الواضح جداً أن الدين ليس مقدراً هنا ، وباستثناء الرجل ذي المنظر المسن والوجه الفظ لم يبد أن أحداً ينظر الى الصلاة نظرة جدية ، لأن الجنديين بعـــد أن أديا واجبهما في سوق الآخرين الى المسجد عادا من المسجد بدون صلاة . ان المظهر الخارجي للدين لا يبدو طبيعياً بين العرب .

رقصة السيف مرة أخرى هذه الليلة ، ووليمة أخرى من الليموناده .

هدية : أترجة كبيرة :-

٨ يناير : (١٨٨٠م).

صباح غائم ، ضبابي تقريباً وممطر . ودعنا دواس وجنوده. وبدا عليهم الأسف حقاً لفراقنا . انهم أناس ذوو مزاج حسن وأمناء بشكل غير عادي ، ولقد عاملونا بلطف بالغ . كانت آخر التفاتة من دواس تحوي هدية من الاترج هـــائلة في كبر جوزة الهند الضخمة . ان الاترج ليمون حامض وليس حلواً ، ولكن له قشرة سمكها بوصة ، وذات حلاوة تكفي لأن تؤكل ولو انها كثيرة الزغب (الصوف) .

بين (سكاكا) و (الجوف) :

تقع سكاكا ، حيث أتينا اليوم ، على بعد حوالي ٢٠ ميلاً من الجوف ، ويوجد خط بين المكانين مطروق كثيراً . كنا

جماعة كبيرة العدد نسبياً ، من حيث ان عـــدداً من الجوفيين جاءوا معنا للمرافقة ، ومعنا ابن عروج ، ابن ناصر ، وعروج آخر ، ابن عم له،ورجل ذو بندقية الذي هو في طريق ذهابه معنا الى حائل . كل الجماعة ما عدانا كانت تسير على الأقدام ، لأن الجوفيين لا يركبون أبداً ، فليس لديهم خيل ولا جمال حتى ولا حمير . وكان مع أحد الرجال صدفة بيضة نعام مدلاة في شبكة من نوع ما ، وتستعمل كقلة لحفظ الماء . أخبرني ان النعام مألوف في النفود ، الذي هو الآن قريب من هنا . كان المنظر على طول الطريق رائعاً ، وأحيانا يستحق التصوير . عبرنا أولا حوض الجوف الى الناحية الاخرى ، مارين بعدد من الحقول الخراب ، السطح جديب تماماً ،وأدناه مغطى بالملح. ان هذا الانخفاض بكامله ليس الا ميلا عرضاً .ثم فجأة ارتفعت طريقنا مائة قدم فوق ضلع من الرمل واقف الانحدار، ثم مرة أخرى مائة وستين قدماً فوق سلسلة صخرية ، منحدرين مرة أخرى لنعبر سبخة ذات حاشية من الاثل في حالة إزهار الآن ثم بقع من حصباء ناعمة من صخر الحديد لا يستطاع تمييزها عن فضلات الاغنام .

وعلى بعد ساعتين من الجوف تجويف مائي يسميه الجوفيون نسماً ، والماء على انخفاض حوالي ٨ أقدام تحت سطح الأرض . وفي الوديان حيث قد جرى الماء (لأن المطر نزل هنا منذ شهر تقريباً) ، وجدت نباتات بصلية زاهية ذات زهور زعفرانية تخلع على المكان مظهراً رائقاً للخصوبة .

وفي أماكن أخرى أحجار عجيبة من الصخر الرملي الوردي مكللة بالحديد .

وعلى بعد ، ناحية الشمال عدد من الكتل الرفيعة لتل ، جبل الحمامية ، (أو جبال الحمام) ، وهي أكثر شيء جدارة بالملاحظة . وهذه يمكن أن تكون أعلى من الجوف بألف قدم . وبعيداً وراء ذلك ، الى الشمال الشرقي وإلى الشرق جرى خط الأفق مستوياً على ارتفاع مساو ، طرف الحماد ، لان كل الجهة التي كنا نقطعها هي في نطاق بحر قديم ، من المحتم انه شمل ، كا نفترض ، وادي السرحان ، والجوف ، وسكاكا .

وعلى احدى الصخور لاحظت نقشاً ، أو بالأحرى صور جمال وخيول ، محفورة على وجه مسطح عرضه حوالى خمسة أقدام . ولم نستطع ، على أية حال ، في مثل ظروفنا أن ننقله .

وصف بلدة (سكاكا) ..

ان سكاكا ، مع انها ليست مقر حكومة جوهر ، مدينة أكبر من الجوف - سبعمائة بيت ، كما يقولون ، وبساتين للنخيل على الأقل ضعف ما في الاخرى . ومركز المدينتين يكاد يكون واحدا ، تجويف عريض محاط بحروف من الصخور الرملية ، ولكن حوض سكاكا اقل انتظاما وتنتصب فيه تلال رملية وتلال نائبة من الصخور .

وسكاكا كالجوف ذات قلعة قديمة تجثم على مرتفع يبلغ علوه

حوالي مائة قدم ، وتسيطر على المدينة ، والمدينة نفسها مبنية بطريقة غير منتظمة ، وليس لها سور متصل حول بساتينها .

وتوجد بساتين كثيرة ومجموعة منازل منفصلة ، وهذه لم تخرب مثل تلك التي في الجوف من جراء الحروب الاخيرة. وفي جملتها ، لها منظر بالغ النضارة ، ولم يترك فدان واحد قابل للري بدون استنبات . كل شيء مرتب ونظيف ، والاسوار جديدة الشرفات ، وكل منزل منسق ، كما لو كان بني حديثا . والقطع المربعة الصغيرة المزروعة شعيرا يحيط بكل منها سياج من اغصان النخيل المجدولة ، والشوارع والازقة انيقة بشكل دقيق .

في ضيافة (ال عروج) :

من خلال هذه عبرنا راكبين بدون توقف وجاوزناها بميلين ، الى مزرعة (نصر) .

نحن الآن في قلب عائلة ابن عروج ، وفضلا عن ذلك لا خرافة بل حقيقة فهي مضيافة ، تتلقانا بسواعد مفتوحة، كما لو كانوا يتوقعوننا كل يوم طيلة المائة سنة الاخيرة . انهم يعرفون اقصوصة ابن عروج الشعرية ونسب محمد احسن بكثير مما يعرف هو نفسه . وهكذا يمكننا الآن على الأقل ان نأمل ان نكون في النعيم ، وإذا لم نذهب إلى ابعد من هنا ، بعد كل شيء ، فربما نحس اننا لم نسافر قط عبثا .

ثلاثة أيام للراحة

مكثنا ثلاثة أيام مع ناصر وبنيه وزوجات بنيه وأطفالهن في بيتهم الريفي الهادىء .

كانت راحة كنا في أشد الحاجة اليها، وبرهنت -الى جانب ذلك- على أنها تجربة مثيرة للاهتمام، وفرصة ممتازة لنعرف عن الحياة العربية المنزلية أكثر مما عرفنا في رحلاتنا السابقة .

حديث عن (آل عروج) أسرة الدليل

وليس آل عروج اصحاب (سكاكا) في أنفسهم ذوي أهمية خاصة ، فكأقربائهم في تَدْمُر ، قد أصبحوا مستقرين منذ مدة طويلة كمجرد سكان مدينة ، يتزوجون من بنات البلاد ، ويقتبسون من الميول الحقيرة المدينة ، ولكنهم كانوا أمناء وذوي قلوب ذات عَطْفٍ ، وتقاليد أصيلة خاصة بهم ، وما زالوا محافظين دينياً ، ويلقون أحياناً ومضة من شيء ما كالخيال (رومانس) على ما عدا ذلك من شؤونهم المتعلقة بحقائق الحياة .

عميد الاسرة

وناصر ، أفضل الجيل الارشد ، يشبه سيداً (اسكوتلنديا)

صغيراً ، فقيراً وشحيحاً ، ولكنه مدرك لحقيقة كونه ذا دم في شرايينه أكرم من دم جيرانه - الانسان الذي يفكر ، كل يوم من أيام السنة إلا يوماً واحداً ، كيف يدخر ستة بلسات ، ولكنه يظهر نفسه كل يوم انه رجـــل ماجد (جنتلمان) ، ورئيس بيت .

كان ابناؤه هادئين ، ومتواضعين ، وغير مدّعين ، ومثل كل شباب العرب ، ميالين الى (الرومانتيكية) أكثر من أبيهم . بل ان لهم تقديراً من نوع ما للافكار الفروسية خاصة (تركي) الأكبر ، وفيه يتغلب الدم البدوي والتقاليد البدوية تقريباً الى الحد الذي لا تترك مكاناً للغرائز التجارية ، بينا هذه الأخيرة في أخيه (عربي) هي فوق ما ينبغي لموازنة الأولى . أحببنا كلا الأخوين مفضلين بالطبع (تركي) ، ومعه أقام (ولفرد) صداقة كبيرة .

شيء من تاريخها

ان قرابة محمد لهؤلاء القوم أقل بعداً مما كنت قد افترضت ان سلفه ، علي بن عروج ، كان أحد الأخوة الثلاثة ، الذي ترك العارض في نجد ، في اعقاب ثأر ، أو ، كما يظن (ولفرد) انه الاكثر احتمالاً ، هرباً من الطغيان [1] الذي ساد نجداً منذ

---

(١) الكاتبة متأثرة بما تسمع عن الحركة الاصلاحية التي قام بها الشيخ محمد ابن عبد الوهاب - رحمه الله - قامت الدولة السعودية الكريمة بنشرها قياماً قضى على نفوذ الدولة التركية في قلب جزيرة العرب ، ولم يبق لها الا أن تبث الدعايات المضللة عن تلك الدعوة ، خشية من امتداد انتشارها ، ومن هنا كانت الكاتبة متأثرة بما سمعت من تلك الدعايات .

مائة سنة ، وجـــاء الى الشمال حتى وصل الى تدمر ، حيث تزوج (علي) وأقـــام ، وأخ آخر ، عبد القادر بن عروج ، توقف في الجوف واستقر هناك ، وصار جداً لناصر . أمـــا بالنسبـــة للثالث ، مطلق ، فان نسل الاثنين السابقين ، لا يعرفون شيئاً عن مصيره ، سوى انه لم يحبب لا تدمر ولا الجوف ، فعاد في اتجـــاه نجد . وصل اليهم تقرير غامض عن موته ، الا ان أحداً لا يستطيع ان يجزم متى أو كيف مات. وجاء ناصر من الجوف الى سكاكا منذ سنوات ليست كثيرة .

وناصر الآن رئيس الأسرة ، على الأقل ذلك الفرع الذي يسكن الآن واحة (سكاكا) . ولكن يعيش هناك في منزل ملاصق لمنزله، ابن عمه المباشر جازي بن عروج، أخ لصديقتنا (مرزوقة) ، وأب لابنتين جميلتين . وهؤلاء ، مع قليـــل من الأقرباء الآخرين ، يكونون أسرة صغيرة بهيجة ، يعيشون جميعاً في مزرعة ثانية .

نساء الاسرة

أول فكرة في مجيئنا اليهم ، بالطبع ، كانت من أجـــل زوجة محمد، وبناء على طلبه اغتنمت فرصة مبكرة للتعرف على نساء العائلة . وجدتهن جميعاً ودودات ومحبوبات ، وبعضهن ذكيات . ومعظم الصغيرات كن جميلات المنظر. وأهم شخص في (الحريم) كان زوجة ناصر ، سيدة صغيرة عجوز تدعى

شمعة ، نحيفة وذابلة ، ومتجعدة ذات ضفائر طويلة رمادية ، وعينين ضعيفتين تنبئان عن شيخوخة طاعنة . ولو انها لم تكد تتجاوز الستين ، فقد بدت منهكة تماماً . كانت أم (تركي) و (عربي) ، وسمعت من محمد ان (نصر) لم يتخذ زوجة أخرى غيرها . وكان في هذا مخطئاً ، لأنه في نفس زيارتي الأولى،استدعت زوجة أصغر سناً من الحجرة الملاصقة وقدمتها الي في الحال . ودخلت الزوجة الثانية مع غلامين في الثالثة والثانية من العمر ، وأكبرهما (لان لهما اسمين غير معتادين) يسمى مطرق (عصا) ، بالرغم من انه يبدو طفـــلاً محبوباً وحسن المزاج . وهو في هذا يشبه أمه ، التي أثر في بشكل حسن سلوكها المهذب نحو زميلتها الأكبر منهـــا سناً شمعة . وفوق ذلك ، كان لها وجه جميل حقاً .

أما الغلام الصغير ، (مطرق) ، فقد أدركت انه الغلام الذي لما رأيته في الصباح مع ناصر،الشيخ في بستاننا، افترضت انه حفيده .

هدية لاحد الاطفال

كان ناصر يحاول جهده لتدليـــل الطفل ، طبقاً لأسلوب الرجال الشيوخ (المسنين) بـــين العرب . وحينذاك اعطيت (مطرق) ثوباً أحمر (قراما)، وهو الذي كنت اشتريته من أجل ولد (صطام) ، منصور ، حينما ظننا اننا كنا ذاهبين الى

(الرولة) ، وفي هذا كان الطفل الآن يتبختر ، مبدياً حلبته لفتاتين صغيرتين جميلتين جداً ، هما اختاه . وجرت هاتان داخلتين خارجتين أثناء زيارتي ، تساعدان في احضار أطباق التمر ، ولتا كلا تمراً كلما أتتا ببعض منه .

نساء الاسرة يحتفين بالكاتبة

وظهرت بعد ذلك زوجتا تركي ، واحدة منها جميلة ، والأخرى بسيطة ، وزوجة عربي الوحيدة ، جميلة ومتزوجة حديثاً . وبدت هؤلاء مع بعضهن على خير وفاق مما عليه الحال عادة بين الزوجات المختلطات وزوجات الأبناء . كن حريصات على سروري ، وبالطبع ، فعلت كل ما أستطيع من أجل ارضاء رغباتهن المضيافة فيما يتعلق بالأكل . قدمن لي تمراً من أنواع لا تحصى — تمراً جافاً ورطباً ، وحلواً وأقل حلاوة ، عتيق التجفيف ، وجديداً ، وكتلاً . كان مستحيلاً بالنسبة لشخص واحد ان يعدل بين كل هذه الانواع .

عاملت (شمعة) كل الناس بطريقة شخص يتمتع بسلطة ، ولو ان أسلوبها معهم كان لطيفاً . وهي ، على اية حال ، قليلة الكلام ، بينما كانت الأخريات يتكلمن بدون انقطاع ، ويسألن كل انواع الأسئلة ، التي تتطلب معرفة بالعربية أكبر مما لدي حتى أجيب . وفي وسط الزيارة وصلت (نازك) ابنة ناصر المتزوجة ، أخت لتركي وعربي ، مع ابنتها وجفنة كبيرة

من التمر . لقد مشت طول الطريق من مدينة سكاكا ، حوالي ثلاثة أميال، تحمل هذه الطفلة، وهي مخلوق سمين في الرابعة، والتمر ، ودخلت ، لاهثة ضاحكة ، لتراني. انها تثير السرور وذات حيوية ، كثيرة الشبه بأخيها تركي في الوجه ، أي انها طيبة الخلق أكثر من كونها جميلة المنظر. أية واحدة من هؤلاء السيدات الشابات كانت تفي بشروط محمد الزواج ، ولكن ، لسوء الحظ ، كن جميعاً إما متزوجات او صغيرات جداً . وسألت فيما اذا كان هناك بعض السيدات الشابات في «الخارج» فأخبرت انه لا يوجد أحد من بيت ناصر ، ولكن ابن عمه (جازي) له ابنتان كاملتا النمو ، لم تتزوجا بعد ، فحافظت على هدوئي حتى تسنح لي فرصة لرؤيتهما .

البحث عن زوجة للدليل

وفي نفس الوقت ، كان محمد قد بدأ بالفعل يجمع معلومات على حسابه الخاص ، ولم ينته اليوم الأول من زيارتنا قبل أن يأتي إلي بتقرير عجيب عن نفس ابنتي (جازي) هاتين . كان هناك ثلاث بنات ، كما قال ، وجميعهن جميلات ، كل واحدة أجمل من الأخريات ، عسر ، وحامو (؟) ، ومطرة والاولى والثانية لسوء الحظ قد خطبتا بالفعل ، ولكن مطرة ما زال في الامكان الحصول عليها . واستطعت أن أرى انه كان قد وقع في الحب المدنف فعلا ، فعند العرب القليل يقطع شوطاً

طويلا ، ومن حيث انه لا يسمح لهم إطلاقاً برؤية السيدات ، فانهم يقعون في الحب من خلال الحديث عنهن: كان يلمح كثيراً انه يجب على ألا أضيع الوقت وان اذهب لزيارة أمهن ، وبدا أنه يفكر أنني كنت اضيع وقتي سدى وبحزن في زيارة ابنة العم المتزوجة . وقد صرح محمد أنه يحب أن يستأنس برأيي ، وسأعرف ، كما تظاهر ، في الحال ، ليس فقط ما إذا كانت (مطرة) جميلة ، بل أيضاً ما إذا كانت حسنة الطبع ، وحرية بأن تصبح زوجة صالحة .

حول المهر :

قال انه كان يجمع ويطرح ، وظن ان أربعين جنيها سوف تطلب بصفة مهر . وإنه لمبلغ كبير بالتأكيد ، ولكنها حقاً صلة ، والمناسبة فريدة ، ابنة حجازي !— ابنة أخ مرزوقة !— فتاة من عـــائلة ممتازة كهذه ! — ابنة من آل عروج ! وآل عروج لا يمكن الحصول عليهم كل يوم ! — أربعون جنيها قد لا تكون كثيراً جداً .

الكاتبة تصبح خاطبة

كان لدي فراسة كبيرة ، وقد رأيت زوجات وبنات جميع شيوخ (عَنَزَة) ، يجب أن أعرف ما هو هذا وما هو ذاك ،

ويحب ألا اخطىء . ومع ذلك فهو يريد أن يذهب عبد الله معي ، فقط ليتجسس على الأشياء . ويمكن لعبد الله ، كقريب ، أن يسمح له بالدخول ، في مناسبة كهذه ، ولو أنه هو ، أي محمد ، لا يستطيع ذلك بالطبع ، ويمكن ، ربما ، حتى أن يسمح له برؤية الفتاة ، كما لو كان ، بالصدفة . أما بالنسبة لنا ، آل عروج ، فإن الزوجات والبنات دائماً محجبات ، عادة أتينا بها معنا من نجد ، لأننا لسنا كالبدو ، ومع ذلك وفي مناسبة هامة كهذه ، مناسبة تدبير زواج ، قد يسمح أحياناً لرجل من سن معين ، تابع ، أو قريب فقير ، أن يرى وينقل ما رأى . ووعدت أن أفعل ما أستطيع لانجاز الأمر .

وعلى ذلك أرسل لتركي في اليوم التالي ، وأشعر بالأمر موضوع البحث باختصار ، وأرسل في الحال ليعلن عن زيارتي لأم بنات (جازي) — محمد يوضح أن من الذوق (ايتيكيت) أن الأم يجب أن تعرف بموضوع زيارتي ، ولو أنه ليس ضرورياً بالنسبة البنات . ثم ذهبنا إلى منزل (جازي) ، تركي وعبد الله ، وأنا .

في سبيل اختيار الزوجة :

يقع منزل (جازي) بالقرب من منزل ناصر ، يفصلها فقط سور البستان ، وهو أيضاً أصغر من هذا الأخير ، فكرت انه مكان فقير لنأتي اليه بحثاً عن أميرة ، ولكن في بلاد العرب

يجب على المرء ألا يحكم أبداً بالظواهر . وفي الباب ، بين عدد من النساء ، وقف سعد ، أكبر أبناء (جازي) ، الذي قادنا خلال فناء إلى حجرة داخلية ، مظلمة تماماً ، باستثناء ما قد يأتي من نور من خلال فتحة الباب. من المحتم أنه في بلاد العرب حيث اخترع التعبير : « يطأ عتبة دار فلان » ، لأن النوافذ لا وجود لها في البيوت الصغيرى . كان هناك رائحة ماعز في أنحاء المكان ، وبدا كإصطبل أكثر منه ردهة استقبال . وفي البداية لم أستطع أن أرى شيئاً إلا أنني استطعت أن أسمع (سعداً) ، الذي غاص في الظلام ، يهز شيئاً ما في الزاوية ، وعندما تعودت عيني على الشفق ، اتضح هذا انه سيدة شابة ، واحدة من الثلاث اللاتي جئت لأزورهن . كانت (عسرا) ، الفتاة الثانية ، العظيمة ، الجميلة المنظر ، تشبه كثيراً ابن عمها عربي ، بأنفه القصير المعقوف وعينيه السوداوين . خرجت إلى النور بمظهر كبير للخجل والاضطراب مخفية وجهها في كفيها ، معرضة عن الجميع حتى عني ، ولم تكن حتى لتستجيب لأي شيء من محاولاتي للتحدث. ثم فجأة ، انفلتت منا ، واندفعت عبر الفناء إلى خلوة اخرى صغيرة ، حيث وجدناها مع أمها وأختها (مطرة) . وبصعوبة ، عرفت أن أجد تعليلاً لكل هذا ، فإلى جانب الخجل ، ظننت انني استطعت أن أرى ان (عسرا) قصدت حقاً أن تكون فظة ، وأكد فكرتي هذه الطباع المهذبة لكل من أمها (حالية) وأختها الصغيرة (مطرة) .

احاديث مع الفتاة المفضرة :

ولقد أحببت (مطرة) في الحال . ان لها نظرة ، خاصة ، أمينة ، صريحة ، تحدق في المرء رأساً بعينيها السوداوين كالغزال ، ولها أيضاً لون شديد الصفاء والنضارة ، وصوت بثير البهجة والسرور . ولذلك ، فلم ألق كبير اهتمام إلى فظاظة (عسرا) وسألت الفتاة الصغيرة أن تسير معي في أنحاء البستان ، ففعلت ، وفرّجتني على الأشياء القليلة التي يمكن أن نشاهد هناك ، موضحة لي كل ما يتصل بالبئر ، وطريقة متح الماء . وما احتوى البستان ، بالاضافة إلى أشجار النخيل ، على تين ، وبرقوق ، وكروم ، كما كان هناك رقعة من الشعير الأخضر ، وعليه كان يرعى بعض الجديان .

أخبرتني (مطرة) انهم في الصيف يعيشون على الفواكه ، ولكنهم لا يحتفظون مطلقاً بالبرقوق أو التين ، التمر فقط هو الذي يحتفظون بـه . ولاحظت عدداً من أشجار النخيل الصغيرة ، وهي دائماً علامة على الرخاء . كانت البئر حوالي عشرة أقدام مربعة في أعلاها ، مغطاة بمناية بصخرة ، والماء على عمق بضعة أقدام فقط من السطح . وأخبرتني أن الماء يمكن أن يوجد في أي مكان في (سكاكا) بالحفر ودائماً على نفس العمق . سررت جداً بالذكاء الذي أظهرته مطرة في هذه المحاورة، كما سررت بأساليبها الحلوة ومحياها المخلص ، وقررت

في عقلي بدون صعوبة أن (محمد) سيكون أكبر محظوظ ، إذا هو حصل عليها بالزواج . وكان ما يبعث على الرجاء ، أيضاً ، من اجل سعادتها في المستقبل ، ان تلاحظ ان (حالية) ، الأم بدت امرأة حساسة ، إنما لم أستطع أن أفهم السلوك الغريب للفتاة الاكبر سناً ، (عسرا) .

وفي نفس الوقت كان عبد الله ، الواقف على الباب ، قد كون ملاحظاته ، وخلص إلى حد كبير إلى نفس النتيجة التي خلصت اليها . وهكذا عدنا بتقرير ممتاز لننقله إلى طالب الزواج النافذ الصبر ، المنتظر في الخارج .

استبدال « ليا » بـ « راشيل » :

كانت رغبة محمد الجارفة الآن تكاد أن تفسد المفاوضات ، لأنه بدأ في الحال يتحدث عن نيته في الزواج . وكنتيجة لذلك حدث له نفس الشيء ، الذي حدث منذ زمن طويل ليعقوب بن اسحاق وتقليداً لسلوك (لايان) واعتماداً على لهفة ابن عمه على الزواج ، كان أول ما عمله (جازي) أن زاد المهر من أربعين إلى ستين جنيهاً ، ثم حاول أن يستبدل (ليا) بـ (راشيل) [1] ، عسرا السيئة الطبع بعطرة الجميلة.

---

(١) إشارة إلى ما جاء في التوراة : (سفر الشعوب) : وكانت ليا حالية النظرة ، ولكن راحيل كانت جميلة .

مجلس عام لبحث الموضوع :

كانت هذه ضربة شديدة لآمال محمد ، ودعى إلى مجلس عام من جميع العائلة لبحث الأمر وإتخاذ قرار بصدده . اجتمع المجلس في خيمتنا برئاسة (ولفرد) ، وفي جانب جلس محمد ، مع ناصر كرئيس للعائلة ، وعلى الجانب الآخر جلس (جازي) وسعد ، ممثلين للعروس ، بينما ركع بينهما على ركبتيه بتواضع رجل صغير متجهم الوجه ، ولم يكن عضواً في العائلة ، ولكنه ، كما فهمنا بعد ذلك ، كان وسيطاً محترفاً. وفي الخارج اجتمع الأصدقاء والأقرباء الأبعدون، عبد الله وابراهيم قصير ، وأكثر من ستة من آل عروج . بدأ هؤلاء بالجلوس على بعد لائق ، لأنهم بمجرد ما حمى النقاش بدأوا يقتربون إلى أن أدلى كل واحد منهم برأي .

اضطراب الخاطب :

كان محمد في اضطراب تام، وشاحباً جداً ، وتولى (ولفرد) تصريف قضيته عنه . وسوف تكون قصة طويلة لو ذكرت كل شيء عن النزاع ، الذي كان أحياناً يحتد بحرارة ، إلى الحد الذي بدت المفاوضات على حافة الفشل . وادعى (جازي) ان من المستحيل أن يزوج ابنته الصغرى ، في حين تظل

الكبرى غير متزوجة وحقاً ، ان (حامو) مخطوبة ، ولا أشكال بشأنها ، ولكن (عسرا) - ولو انها مخطوبة ، كانت حرة حقاً ، فجروان ، ابن مرزوقة المرجوج الرأس ، الذي خطبت له لم يكن الزوج الجدير بها انه ابله ، وعسرا لن تتزوجه أبداً . وإذا صرحت فتاة بأنها لن تتزوج خطيبها ، فهي ليست مخطوبة ، ولا يزال لها الحق في أن تنشد زوجاً تعجب به . ولكن هذا لا يغني . ضربنا مثلاً بزواج (حنعان) بفتاة مخطوبة ، والعاقبة السيئـــة ، كدليل على أن موافقة جروان بالنسبة لعسرا كانت ضرورية . وقال محمد بلباقة : « يا ابن عمي ! يا غازي ! كيف يمكنني أن أفعل هذا ؟ وان أرتكب خطيئة ضد ابن عمي ؟ ان هذا حقاً سيكون عاراً علينا جميعاً

اصرار على خطبة (مطرة) :

وقصاري القول ، اننا الححنا على انه اما « مطرة » أو لا أحد ، فسحب غازي طلب (عسرا) . ومع ذلك فقد التمس عذراً ، بأن مطرة لم تكن سوى طفلة ، لم تكد تبلغ الخامسة عشرة ، وغير مهيأة جداً لمثل تلك الرحلة الكبيرة جداً حتى تدمر . حقاً ، أين هي تدمر ؟ من من الجوفيين قد ذهب إلى مثل هذا البعد ؟

وعلى أية حال ، فقد أجاب محمد بأنه إذا كان صغر السن

عقبة ، فسنة ، أو سنتان ، ستتكلف بإصلاح ذلك . كان راضياً بالانتظار سنة أو سنتين أو حتى ثلاث سنوات ، إذا دعت الحاجة . لقد كان ابناً لعروج ، وقد تعود على الصبر . أما بالنسبة لتدمر ، فهي بعيدة ، ولكن ألم تأت من هناك حالاً ، أو لا تستطيع العودة إلى هناك ؟ انه سوف يرسل واحداً من اخوته في الوقت المناسب ، مع عشرين ، ثلاثين ، خمسين رجلا لمرافقتها .

موافقة مبدئية . .

ووفق على مشروع الزواج في النهاية ، فيما يتعلق (بعطرة). ولكن مسألة (التسويات) لم يلته منها بنفس السهولة . وهنا كان الأمر على وشك أن يتحطم كلياً وإلى الأبد. كان (ولفرد) قد نوى أن يدفع المهر عن محمد ، ولكنه لن يقول ذلك حتى يستقر الأمر ، وترك محمد يكافح في مسألة الصداق حتى يتوصلون إلى أفضل صفقة مستطاعة . وهذا ما كان محمد جد قادر على القيام به ، بالرغم من عدم ثبات قلبه ، وبتقوية عبد الله له ، الذي نظر إلى الموضوع بكامله نظرة تجـــارية محضة امكن الاتفاق على مبلغ وسط ، وانفض المؤتمر .

هدايا للفتاة .. وحديث عن الجراد !!

لم تكن الأمور على أية حـــال ، حتى الآن لتسير تماماً بسكون . ففي اليوم التالي ، عندما ذهبت إلى بيت (جازي) ببعض هدايا صغيرة من أجـل العروس ، قابلني (جازي) نفسه على الباب ، واستقبلني ، كما شعرت في الحال ، بارتباك وكذلك فعلت (حالية) لأنها هي كانت تجلس في (القهوة) ومعها قريب غريب . وكانت الأجوبة على اسئلتي عن (مطرة) قصيرة ، وفي الحال تحول الحديث الى (الطقس والمحاصيل) أو على الأصح إلى بديل هـــذه الأشياء في جزيرة العرب ، حديث عن الجراد .

لقد كان هناك رعد عاصف هذا الصباح ، وهو ما اثار فينا الامتنان . انه سيسبب نمو الحشائش في النفود ، ولكن الجراد هناك لم يكن أبداً بمثل كثرة هذا العام . ومرة أخرى سألت عن الفتيات ، غير اني لم اتلق إجابة ، وفي النهاية ، تحت احساس بالتعب ، من حديثها العقيم ، وبنفاذ صبر قلت متعجبة :

« ما هذا يا جازي ؟ انني واثقة انك – وانت يا (حالية) – مسرور بهذا الارتباط بمحمد ، فأجاب بصوت مملول : « ان شاء الله ، ان شاء الله » ، ورددت حالية : « إن شاء الله »

وكذلك فعل الغريب . ورأيت أن من المحتم أن هناك شيئاً ما خطأ ، لأنه لم يكن جواب على سؤالي ، ونهضت لأذهب .
ثم خرجت حالية معي إلى الفناء ، وشرحت لي ما حدث يبدو أن عسرا ، بمزاجها العنيف ، كانت تفزعهم إلى درجة تذهب بألبابهم . انها لن تسمح بأختها تتزوج قبلها ، أو ان تحظى بقرين أفضل . انها تحتقر (جروان) ولو أنه شيخ (كاف) ، فأرادت أن تتزوج شيخ (تدمر) ، هي نفسها . لقد اكرهت (غازي) الشيخ على سحب موافقته ، و (مطرة) كانت خائفة منها . وما العمل ؟ قلت: انه لا فائدة من النقاش في هذا مرة ثانية ، وانه إذا لم تكن هي وزوجها حقاً قادرين على التصرف مع بناتها، فيجب علينا أن نبحث لمحمد في مكان آخر عن عروس ،وانني مؤملة وواثقة ان (عسرا) لن تكون حمقاء إلى درجة أن تقف في طريق سعادة أختها ، لأن ذلك لن يحقق لها ربحاً. ان طبعها السيء هذا جعل من المؤكد أكثر انها لن تتزوج محمد ، وباختصار ، ان على العائلة أن تصل إلى قرار ، نعم أو لا ، في موضوع (مطرة) وفي الحال ، لأننا كنا مغادرين (سكاكا) الآن ، ويجب أن نسوي المسألة .
وعندئذ رأيت الفتاتين ، وتحدثت اليهما بنفس الشدة ، وبتأثير بلغ إلى حد أن محمد ، الذي كان قد أحس بمعنوية ضعيفة ، جاء بعد ساعات قليلة ، ومحياه يطفح بالبشر ليقول : ان عقد الزواج سيوقع في ذلك المساء .

مساومة .. حول « المهر » ثم وفاق

وقع عقد الزواج ، اذن ، ولو ان صعوبة فوق صعوبة اثيرت حتى اللحظة الاخيرة ، واظهر الجميع ، الا (تركي) ، روح مساومة فاجعة في مسألة المهر ، خمسون جنيها تركيا كان هو المبلغ الذي تقرر في النهاية ، على أية حال ، ورفض (ولفرد) باقتضاب ان يقدم (بشلكا) واحدا زيادة على ذلك ، حتى ليرشو ابن عم ظهر على غير انتظار ، وطالب بحقه (في مطرة) أو في ما يعادلها نقدا . لم تكن مشرفة هذه المساومة في الثمن ، وان الناس في انكلترا ليصنعون افضل ، بتركهم هذه الأشياء لمحاميهم ليسووها

حفلة الخطبة :

وعلى أية حال ، فقد نظم كل شيء في النهاية ، كتب عقد الزواج ووقع ، وصار كل واحد سعيدا . ثم قضى بقية المساء في ابتهاج . ذبح جَدْي وأكل ، وغنيت اغاني ، ورويت قصص ، ولم تترك اقصوصة ابن عروج الشعرية كما يمكن ان يتوقع ، خارج البرنامج وناصر شاعر ، فانشد ارتجالا قصيدة في المناسبة . وكان بين الضيوف حاجان من (مكة) – على الأقل هكذا سميا نفسيهما – وبعض الرجال الذين قروا من

التجنيد الأجباري التركي في سوريا . وتناول هؤلاء الطعام مع الباقين كما لو كانوا ايضاً اقرباء . وهكذا انتهت مفاوضات زواج محمد . وهو سيعود في العام المقبل (لمطرة) أو يرسل من يأتي بها ، ولكن بالنسبة للحاضر عليه ان يرضى وينتظر .

مفاوضة أكثر أهمية :

بينما كانت هذه الترتيبات العائلية تجري ، كان بين ايدينا ايضاً مفاوضة اكثر أهمية ، وكانت تلك هي الحصول على موافقة الحاكم على رحلتنا إلى حائل كان أول شيء يجب عمله هو ان نقيم صداقة مع جوهر ،لأن كل شيء في هذه البلاد الاستبدادية يعتمد على حسن نيته ورضاه ، وإذا اختار ان يعيدنا إلى (كاف) عند وادي السرحان ، فأني لاعلم اننا كنا نستطيع ان نقدم أية مقاومة .

والجوف ليست مكانا يسهل الخروج منه . انما على بعد يزيد عن ثلثمائة ميل من أقرب نقطة على الفرات ، وبدون تصريح من الحاكم لم يكن أي انسان ليجرؤ على ان يسافر معنا ميلا واحدا . وعلى ذلك ، ففي اليوم التالي لوصولنا (سكاكا) ، زرنا (جوهر) ، الذي كان قد حذر من زيارتنا ، واستقبلنا في ابهة .

« جوهر » نائب الحاكم

وجوهر زنجي اسود تماما ، ذو ملامح افريقية كريهة ، طويل وسمين جداً ، ومختال جداً . كان قد ارتدى افخر ملابسه لاستقبالنا ، عدد من الجبب الحريرية المزخرفة واحدة فوق الأخرى ، وسراويل بزرقة السماء – أشياء جديدة علينا في بلاد العرب – وعباءة سوداء ومذهبة وكوفية (غترة) ارجوانية . كان قميصه قاسيا بسبب النشا ، وتصدر عنه فرقعات كلما تحرك ، وبدا بشكل عام كحاكم بربري مستبد ، يتمنى المرء مشاهدته. لقد جعلنا ننتظر عشر دقائق في القهوة تقريبا ، ليزيد ، كما افترض ، من اهميته ، ثم دخل خلف موكب من الرجال المسلحين ، وكلهم مجهزون بسيوف ذات مقابض فضية ، وأحزمة مزخرفة بالفضة ، وكوافي (غتر) زرقاء وحمراء ، مثبتة بعقالات بيضاء ثخينة . وتصنع اضفاء جو من اللطف ، باهت نوعا ما ، لشخصية ملكية ، متنقلا في الحديث من موضوع إلى آخر بدون تمهيد ، واحيانا يطلب تفسيرا لملاحظاتنا أو اسئلتنا من شخص أو آخر من الحاضرين. ولقد ادهشني كأمر محال للغاية أن اشاهد هذا الزنجي ، ولما يزل مملوكا ، مركزاً لمجموعة متملقة من رجال البلاط البيض ، لأن العرب ، وكثير منهم نبلاء كرام المحتد ، كانوا ينحنون

امامه ، وعلى استعداد لاطاعة أدنى اشارة من طرف عينه ويضحكون لاتفه نكتة من نكاته .

احاديث عن مشايخ العرب

بعد بضع لحظات من الصمت المهيب ، أصبح (جوهر) ، كما قلت ، ودوداً ، وبدأ يسأل عن الاخبار . اننا قدمنا من الشمال ، وكنا قادرين على أن نخبره بكل شيء عن الحرب . ماذا كان يفعل (صطام) وماذا كان يفعل (ابن سمير) ، من الواضح ان الأخير بطل بالنسبة للجوفيين أو على الاصح لأهل حائل ، لأنهم ليسوا أصدقاء ا (صطّام) ، ومحمد الدوخي ، الشيخ ، يعتبر (صطام) منافساً كبيراً . وكنا مسرورين اننا نستطيع أن نقول أننا رأينا (ابن سُمَير) في دمشق منذ مدة لا تبلغ الشهر .

وأخبرنا (جوهر) عن تقرير حمله مؤخراً الى سكاكا بعض (الصُّلَّب) ان (الرولة) قد هزمت في قتال مع محمد الدُّوخي وان (صطام) قد قتل . تقرير أسفنا لسماعه .

"السلطان" و "المسكوف" !!

ثم سألنا ، ولكن بنغمة ذات اهتمام أقل ، عن السلطان .

لقد عقد صلحاً مع المسكوف (الروس) ، وسر جوهر لسماع ذلك : الصلح خير ! والآن « إن شاء الله السلطان مبسوطين» قال هذا بلهجة عاطفية مصطنعة معاضدة ، وبرنين أغن في الصوت ، كان مضحكا الى منتهى الحد . وعندئذ دار همس قصير بين محمد وواحد من الحاشية ، انتهى بخروجهما معاً ، ليسلما لجوهر الهدايا التي جئنا بها من أجله .

هدية ... ثم تصريح بالسفر الى حائل

وأعتقد أن محمدا وضع موضع الاستجواب بالنسبة لمركزنا وأهداف رحلتنا ، وأجاب ، كما كنا اتفقنا من قبل أن يفعل ، بأننا ذاهبون إلى البصرة لمقابلة أصدقاء ، وأننا جئنا بطريق الجوف حتى نتجنب الرحلة البحرية كان هذا حقاً ، ولو أنه لم يكن بأية حال كل الحق ، كان حقاً بالنسبة لما حدث ، وكان قصة سهلة الفهم ومقبولة من أولئك الذين رويت لهم . وأضاف محمد فوق ذلك ، انه من حيث أنه حدث أن نمر في أملاك الأمير ، فإن (البيك الانكليزي) كان حريصاً على أن يقدم احتراماته لابن رشيد في حائل قبل أن نذهب أبعد من ذلك ، ورجا جوهر أن يمنحنا الادلاء اللازمين . وكان هذا ما اقتنع الحاكم بفعله ، بعد بحث وبعض النفور من قبله لقد رق قلبه بالثياب الجميلة التي قدمناها له ، وأعتقد أن هدية صغيرة في شكل نقود جرى حديث في أمرها بينه وبين محمد .

(جوهر) يقيم مأدبة افطار:

عندما أحضرنا مرة أخرى الى مجلس جوهر ، في أعلى البيت هذه المرة ، وجدنا وجها زنجيا غارقا في الابتسامات ، وان رحلتنا قد بحثت كأمر مفروغ منه . ثم مدت البسط ، وجلسنا جميعا على السطح ، وتناولنا طعام الافطار ، لحما مسلوقا ورزاً ، و (صلصة) لذاعة (حريفة) توضع على الرز ، وبعد الغسل المعتاد و - الحمد لله - انسحبنا ، في غاية السرور لنتخلص من الذباب والشمس المحرقة في سطح جوهر ، ولم يكن امتناننا قليلا لتحول الامور لصالحنا ، وكما لاحظ (ولفرد) عندما استوينا على أمهارنا مرة أخرى متجهين الى المنزل ، كان جوهر صورة لمستبد متقلب الاطوار ، الذي كان يمكن ، إذا كان مزاجه متكدراً ، أن يأمر بقطع رؤوسنا ، باحتفال أكبر من احتفاله باصدار أمر باعداد طعام الافطار . لقد كان يومنا في سكاكا يوما هادئا .

مناخ بلاد الجوف وجوها

١١ يناير : - (١٨٨٠م).

كل صباح منذ أن أتينا هنا يوجد ضباب، واليوم (السبت)

كما قلت ، نزل المطر غزيراً ، جاء المطر مع رعد وبرق ، وكما اعتقد، فان الحال هي دائماً في الغالب هكذا في هذا الجزء من العالم. واني لمندهشة أن أعلم، عند الحديث عن البرق ، انه لم يسمع أحد في سكاكا عن أناس قتلهم ، ومحمد يؤكد ذلك بقوله : ان القضية هي بعينها في تدمر . ويبدا مندهشاً عندما سألته ، كما اندهش من أن البرق يظن انه خطر ، ويقول: إن حوادث بسببه لم تحصل مطلقاً في الصحراء . ان هذا غريب . ان سطح التربة في سكاكا يكاد يكون رملا نقيا ، ويجري المطر من خلالها بالسرعة التي يسقط بها ، ويبقى فقط في تجويفات قليلة ، حيث يوجد نوع من الرواسب صلباً بحيث يكفي لان يحتجزه .

صفا الجو بعد الظهر ، وقمنا باستطلاع صغير إلى قمة التل المنخفض خارج مزرعة ناصر والتل من الصخر الرملي ، ذو لون برتقالي من الأسفل ، ولكن عوامل الجو جعلت لونه اسود على سطحه العلوي ، وارتفاعه لا يزيد على مائة قدم ، وينتصب وحيدا ، ويسيطر على منظر ممتد ، غريب ككل المشاهد في اقليم الجوف ، وجميل جداً بالاضافة إلى ذلك . وفي الاسفل تماما عند صدر المنظر تمتد مزرعة ، حوش مربع مسور مكون من ثلاثة أو اربعة فدادين ، بنخيله وأثله ، ومنزليه الواطئين المبنيين باللبن ، وآباره ، بكل هذا يبدو منسقا ومرتبا وكثير الخيرات . وما وراء ذلك ، يرى الناظر

إلى ناحية الغرب ثلاث حقول أخرى ، بقع من الخضرة العميقة ، في برية متكسرة من الرمال والصخور الرملية ، ثم خلفها (سكاكا) ، ذؤابات نخيلها فقط يمكن أن ترى ، والكتلة السوداء للقلعة ترتفع فوقها في معلم رائع . وامتد الخط الطويل لحرج النخل إلى الجنوب ، مختفية في النهاية في كتلة مشوشة من التلال الرملية . جذبت هذه بصفة خاصة ملاحظتنا ، لأنها حددت معالم بداية النفود ، ليس النفود الكبير حقا ، بل مجموعة من الكثبان المنعزلة نما عليها الغضا ، وليست بأية حال غير شبيهة بتلك التي تمر من خلالها سكة حديد (بلونيا) و (كاليه). ان طريقنا كما نعرف ، تمتد عبرها، واننا سننطلق غداً .

كتابة أثرية

بينما جلست اعد رسما تخطيطيا لهذا المنظر الغريب ، عاد (ولفرد) الذي كان قد تسلق إلى قمة صخرة طويلة تتوج التل - عاد ليخبرني انه اكتشف نقشا . لقد كنا نبحث ، منذ وصولنا في منطقة الصخور الرملية ، عن آثار لكتابات قديمة ، ولكننا حتى الآن لم نجد شيئا الا بعض خدوش مشكوك فيها ، وقليل من هذه هي تصميمات بسيطة يجدها

المرء في كل مكان الصخور الرملية، تمثل جمالا وغزلانا . وهنا، على أية حال ، كانت ثلاثة أحرف واضحة التكوين (رسم الأحرف على ص ١٤٨ من المجلد الاول من الكتاب) اثنان منها ينتميان إلى الابجدية اليونانية .

وكان واضحا ، ايضا ، من لون الحز انها وجدت هناك منذ سنين كثيرة . وعلى هذا بنينا عددا من التخمينات التاريخية تتعلق بسكاكا ، وحالتها في الأزمنة الكلاسيكية .

استعداد للسفر الى حائل

وعندما عدنا إلى المنزل، وجدنا أن محمدا كان يعد الترتيبات الاخيرة مع جوهر من أجل رحلتنا . لقد أثار الرجل العظيم اعتراضات على نقطة من نقط المفاوضات ، ولكن هذه سويت بذهب (أو بقطعة ذهبية) ، وقد وافق الآن ان يرسل رجلا معنا ، دليلا محترفا لعبور النفود .

ويبدو ان هناك خطين بهما يمكن الوصول الى حائل ، احدهما يقطع في ثلاثة عشر يوما والآخر في عشرة أيام . ويقولون ان الأول أفضل بالنسبة للجمال الموقرة ، لأن الرمل أقل عمقاً ، الا ان من المحتمل ان نختار الطريق الأقصر ، اذا كان من أجل أن نرى النفود في جزئها الاسوأ فحسب . لأن

النفود كان موضوع احلامنا طيلة هذه الرحلة ، كصحراء ليس ما يفوقها في العالم . لقد سمعنا عنها تقارير عجيبة هنا ، وعن الناس الذين فقدوا فيها . ان رحلة العشرة أيام هذه تمثل شيئاً كمئتي ميل ، وليس هناك الا بئران على الطريق ، الأولى في نطاق مسافة اليوم الثاني ، والأخرى في اليوم الثامن . سيحضر الدليل جمله ، وسيحمل قربتين من الماء ، وقد اشترينا نحن أربعاً أخرى ، ليصبح المجموع ٨ قرب . وهذه سوف تكفي امهارنا وتكفينا ، وعلينا أن نكون حريصين . لقد حملنا كميات كافية من التمر والخبز ، ومــا زال لدينا واحد من الجديين ، لنستعمله لحماً ، اما الآخر فقد أكل كما سبق أن قلت ، ولا يمكن التعويض عنه بآخر . ان الميرة من كل نوع يصعب الحصول عليها في سكاكا .

اختيار بين طريقين

واستطاع جوهر أن يحصل لنا على حمل جمل من الحنطة باستعمال بعض التهديد تقريباً بالأسلوب التركي .

كف المطر والقمر مشع ، وعدتنا لعبور النفود تهيأ وفي بضع ساعات سنكون في طريقنا . سنحتاج الى كل قوانا من أجل الأيام العشرة التالية .

القسم الثالث

« النُّفُود »[1] — بين « الجَوْف » و « جُبَّة »

[لعل أهم ما ستصادفه في هذا الفصل – وهو الثامن من الجزء الأول من الكتاب – إلى جانب انطباعات الكاتبة عن « النفود » موضوع أحلامها ، التي تحققت – وصفها لـ « جيولوجية » النفود، وطبيعة أرضه ، ونباتاته ، والحياة فيه] .

---

(١) النفود هي الكثبان الرملية ، التي تشغل مساحة كبيرة في الجزيرة، ولعل أصل الكلمة التي لم نعثر لها على ذكر في المعاجم « النهود » بالهاء، فحرفت وهذا « النفود » الذي تتحدث عنه الرحالة الجزء الشمالي من الدهناء، ويعرف قديماً برمل « عالج » .

[كنا الآن نعبر محيطا واسعاً من الرمل الغير متماسك ، غير محدود بالنسبة للعين ، متراكاً في سلاسل هائلة تجري متحاذية من الشمال الى الجنوب، تموجا اثر تموج، وترتفع كل منها الى مائتين او ثلثمائة قدم في المتوسط ، بجوانب منحرفة وقنن مستديرة متجددة في كل الاتجاهات بفعل انواء الصحراء المتقلبة الاطوار . وفي الاعماق ، بينها يجد المسافر نفسه كما لو كان سجيناً في حفرة رملية خانقة، محاطا باسوار لاهبة من كل جهة ، واحيانا ، وهو يكد في صعود المنحدر ، يطل على ما يبدو بحرا واسعاً من النار تتصاعد تحت ريح موسمية شديدة ، وتتجعد بفعل انفجار مضاد في موجات حارة حمراء صغيرة] .

بلجريف

في وداع « آل عروج » :

١٢ يناير : (١٨٨٠م).

غادرنا المزرعة هذا الصباح في ضباب كثيف ، وسط

تبريكات آل عروج . لقد عاملونا بلطف ، وكنا آسفين أن نودعهم ، خاصة تركي وعربي ، ولو اننا أصبنا بخيبة أمل — بعض الشيء في توقعاتنا عن العائلة بصفة عامة . فبالرغم من كرم محتدهم وتقاليدهم النجدية ، فان لهم نقائص عرب المدينة بالنسبة للنقود .

في انتظار هدايا.. ! :

وكان صدمة لشعورنا أن (نصراً) مضيفنا ، توقع هدية صغيرة في شكل نقود عند رحيلنا ، اسمياً للنساء ، ولكن في الواقع وبدون شك له هو نفسه . ان شيخاً من شيوخ الصحراء ، مهما كان فقيراً ، لن يضع في جيبه مجيديا . والغلمان ، أيضاً ، طلبوا هدايا ، إذ طلب الأكبر معطفا ، لأن واحداً كان قد أعطى لأخيه ، والأصغر جبة ، لأنه كان لديه بالفعل معطفه ، وجاء أعضاء آخرون في العائلة بعياب صغيرة مملوءة تمراً أو سمناً يحملونها في أيديهم ، في شكل (قرابين للوداع) ، ثم تريثوا انتظاراً لشيء مقابل . وكان كل هذا بالطبع عادلاً ، وكنا مسرورين أن نجعلهم سعداء بنقودنا ، ولكن قل أن يتناسب مع العواطف الجميلة التي اعتادوا أن يعبروا بها ، بمناسبة وبدون مناسبة ، عن واجبات الضيافة . وخيبات أمل كهذه يجب أن تحتمل ، وأن تحتمل بابتهاج ، لأن الناس ليسوا كاملين في أي مكان ، والمسافر ليس له حق أن يتوقع في الخارج

أكثر مما كان سيلقى في وطنه. ففي انجلترا ربما لم نكن للمستقبل على الإطلاق ، بينما كان الترحيب بنا هنا صادقاً تماماً منذ البداية ، مهما تكن الفكرة اللاحقة (الطارئة بعد ذلك) .

قبلات الوداع ! :

وهكذا قبّلتُ (ولفرد) الأقرباء جميعاً ، وتبادل معهم وعود حسن النية المتبادلة وآمال اللقاء ، وذهبت إلى (الحريم) لأودع بقية العائلة ، ولحسن الحظ لم يكن متوقعاً مني أن أقبلهن جميعاً ، ثم انطلقنا في طريقنا .

ثم انطلقنا في طريقنا :

امتد دربنا في اتجاه الجنوب فوق تلال رملية رأيناها أمس ، وهي الآن تحجب عن ناظرنا (سكاكا) وأحراج نخيلها، ومرة أخرى نقص عددنا إلى جماعتنا المسافرة المكونة من ثمانية أنفس ، مع راضي دليلنا الجديد ، وسرنا باعتدال في الطريق إلى حائل . هذه الكثبان الرملية ليست حقيقة هي النفود ، وهي تشبه كثيراً ما يمكن أن يشاهد في أي مكان من الصحراء في الصحراء الكبرى مثلاً ، أو في بعض أجزاء من شبه جزيرة سيناء . انها جديرة بالتصوير ، من حيث كونها من الرمل الأبيض النقي ، بين خمسين إلى ١٠٠ قدم ارتفاعاً ، تتداخل بينها مسافات ذات أرض أصلب ، وهي مغطاة بالنبات .

وينمو الغضا هنا بحيث يصير شجرة، ذات جذع رفيع ملتوي، أبيض تقريباً، وورقة ريشية غبراء.

قابلنا بعض الرعاة مع قطعانهم، أرسلوا هنا من المدينة للرعي، وجماعات من النساء يحممن حطباً.

عود الى محمد وعروسه :

سلاَّنا محمد كثيراً جداً طيلة الصباح، بحديثه إلى هؤلاء الحاطبات. لقد دبر أن ينال لمحة من عروسه المقبلة وأختها قبل أن نبـــدأ السفر، وهو يتخيل نفـسه في حب قانط، ولو أنه لا يستطيع أن يقرر أية الاثنتين يفضل. فأحياناً هي مطرة، كما يجب أن تكون، وأحياناً الاخرى، لا لسبب أوجه، في مبلغ علمنا، أكثر من أنها أطول وأكبر سناً، لأنه لم ير وجهيها. وأظهر حديثه اليوم مع الحطابات سذاجة في العقل، لم يرتب أحدنا فيها. كان يركب منطلقاً كلما رأى جماعة من هؤلاء النساء، وعندما نلحق به كنا نجده في الغالب في محاورة جادة مع أكبرهن سناً وأقبحهن خلقة في موضوع قلبه. وسيبدأ في سؤالهن ما إذا كن من(سكاكا) وسوف يدور في الحديث إلى اسرة (ابن عروج)، وإذا وجد ان النساء يعرفنها، فسوف يسأل بغموض : كم توجد في بيت(جازي)؟وما إذا كن متزوجات أو غيرمتزوجات ؟ ثم سوف يلمح إلى انـه سمـع ان الكبرى جميلة جداً، وسوف يسأل باحتراس عن

الصغرى ، منتهياً دائمـــاً إلى الكشف عن انه هو نفسه (ابن عروج) من (تدمر) ، وانه خطب أية واحدة من غير المتزوجات، التي بدا ان النساء قد أطربنها في وصفهن . وبهذه الطريقة فقد عقله تمـاماً حول الاختين ، أحياناً يتخيل انه أسعد الرجال، وأحياناً ان (جازي) قد خدعه باعطائه أقل ابنتيه قيمة .وفي مثل هذه المناسبات كان يلتفت إليّ ويرجوني أن اكرر للمرة المئة وصفي لفضائل مطرة ، الذي سيعزيه حتى يقابل أي انسان لتثور شكوك في عقله .

(قارة) احدى قرى الجوف

بعد سفر ثمانية أميال خلال كثبان الرمل ، خرجنا فجأة إلى قرية (قارة) وهي آخر ما سوف نرى لأيام كثيرة . وتسيطر عليها رابية صخرية عليها خَرِبَة .

وهي تحتوي على سبعين أو ثمانين منزلاً . وحرج النخل المحيط بها جدير بالاعجاب لنخله وأثله .

انقشع الضباب وصارت الشمس حارة بمـا يكفي لجعلنا نشعر بالبهجة أن نجلس بضع دقائق تحت السـور الطيني الذي يحيط بالواحة .

خرج بعض القرويين ودار حديث قصير عن (قارة) وشيخها ، بينا كانت أمهارنا تروى من بئر قريبة . اخبرونا

اننا سنجد مخيم (الرَّوَلَة) ليس بعيداً في طريقنا ، لأن إبلهم تروى من نفس هذه البئر . وفيما سلف كانت (قارة) مثل (الجوف) و (سكاكا) ، اقطاعية لابن شعلان ، وما زالوا يدفعون اتاوة صغير (لصَطّام) ، ولكنهم بدورهم يحملون البدو يدفعون من أجل الماء .

ليس هناك خطر مهاجمة (الرولة) أو غيرهم لنا ، لأننا الآن في بلاد ابن رشيد ، حيث قطع الطريق أمر غير مسموح به . كان القاريّون كرماء في عروضهم لاستضافتنا إذا كنا سنبقى في (قارة) ، إلا أنه لم يكن في المكان من شيء مثير بما يكفي لتعويقنا ، وعلى ذلك فقد واصلنا سيرنا . . .

إنها كالجوف وسكاكا ، تحتوي على قلعة خربة على تل منخفض ، ولكن الاطلال الآن ليست أكثر كثيرا من أساسات لأسوار صخرية قديمة بقيت من غير (سمنت)

السفر من (قارة)

بعد مغادرتنا القرية بوقت غير طويل ، صادفنا جماعة من الرولة مع عدة مئات من الابل قادمين الى (قارة) من أجل الماء . كانوا غير مسلحين ويسيرون مسالمين كما يفعل الفلاحون في إيطاليا . اخبرونا ان مخيمهم كان خارج طريقنا وبعيد جداً ، لأن نبلغه الليلة ، ولكننا سنجد بُنَيَّة بن شعلان ، ابن

عم (صطام) قريبا من (بئر شقيق ؟) مورد ريتنا غداً .

انه لبرهان واضح على استتباب الأمن في البلاد ان تجد جماعات من القرويين ، كما وجدنا الآن ، في كثبان الرمال وراء (قارة) بأميال كثيرة ، مع كل هؤلاء البدو . إلا انه يبدو حقيقة وجود القانون والنظام في حكومة ابن رشيد .

بعد استمرارنا في السير ساعتين اخريين ونصف ساعة في أرض متكسرة انتهينا أخيراً الى مرتقى واقف الانحدار نزهتين – عند صعودنا له – على انه اقصى طرف لمنخفض (سكاكا) ، وفوقه وجدنا أنفسنا في سهل حصباوي .

وصف (جيولوجي) للجوف وما حوله

ان المنظر من هذا الطرف ، وأنت تنظر الى الخلف ، كان مدهشاً ، وقدم لنا في الحال فكرة عن (جيولجية) المنطقة كلها ، حوض (سكاكا) الكبير بتلاله والتلال الرملية ، وسلسلة التلال الطويلة التي تقع الواحة تحتها وسلسلة جبل (الحمامية) أيضاً ، كلها مجرد جزر في الحوض ، وهو يبدو بالاضافة الى ذلك انه يضم الجوف وكذلك القرى الشرقية في المحيط الرئيسي له . و (ولفرد) الآن لديه شك قليل في ان (سكاكا) والجوف هما حقاً الذيل ، كما كان الأمر بالنسبة لوادي السرحان أو على الأصح رأسه ، لأن من المحتم أن يكون الكل في شكل شيء

ما ، يشبه حيواناً مائياً كالضفدع (أبو ذنيبة) ، وهذه النقطة هي أنفه .

ان (الحماد) أو السهل حيث كنا الآن ، أعلى من (قارة) و(سكا كا) بـ ٣٥٠ قدماً ، أو ٢٢٢٠ قدماً فوق سطح البحر . وهو مستو تماماً وخال من النبات ، امتداد مسطح أسود من تربة حصباوية مغطاة بحصى صغيرة مدورة ، يمتد الى الجنوب الغربي حتى الأفق ، ولا يشبه أي شيء في الحوض الأسفل .

اندهشنا كثيراً أن نجد سهلاً مفتوحاً كهذا أمامنا ، لأننا الآن لم نتوقع شيئاً غير الرمال ، ولو أننا لم نستطع أن نراها ، إلا أنها لم تكن بعيدة ، وهذا فقط كما لو كان شاطىء النفود الكبير .

(النفود) من بعيد :

وفي الساعة الثالثة والنصف(بعد الظهر) رأينا خطاً أحمر على الافق أمامنا ، انتصب وتجمع عندما اقتربنا أمــامه ، وممتداً الى الشرق والغرب في خط غير منكسر . وربما ظن في البداية انه من تأثير السراب ، ولكن عند الاقتراب منه أكثر وجدناه منكسراً الى موجات عظيمة ، وفيما عدا لونه الازرق فإنه غير بعيد الشبه ببحر عاصف يشاهد من الشط ، لأنه يعلو ، كما يبدو أن البحر يعلو ، عندما تكون الامواج عالية ، فوق مستوى سطح الارض . وهتف شخص مــا :

« النفود » ! ومع أننا كنا لبرهة غير مصدقين ، فاننا اقتنعنا بسرعة . ان ما أدهشنا هو لونه ، الذي بلون (الراوند) ، و (المغنيسيا) ، والذي لا يشبه أبداً أي شيء من الرمال التي رأينا حتى الآن ، ولا أي شيء توقعناه . ومع ذلك فقد كان النفود ، صحراء أواسط بلاد العرب الحمراء . وفي بضع دقائق كنا قد وصلنا نخب اليها وكانت أمهارنا تقف بحوافرها على موجاتها الأولى .

عن خصائص (النفود) الطبيعية

١٣ يناير : (١٨٨٠م).

لقد كنا كل طيلة اليوم في النفود ، وهو مثير للاهتمام فوق ما أملنا ، وساحر فوق الحد الذي توقعناه ، وهو الى جانب ذلك ، يختلف تماماً عن الوصف الذي أتذكر أني قرأته عن (النفود) للمستر بلغريف ، والذي يؤثر في المرء ككابوس لرعب مستحيل . صحيح انه عبر النفود في الصيف ، ونحن الآن في منتصف الشتاء ، ولكن السمات الطبيعية لا يمكن أن تتغير كثيراً بتغير الفصول ؛ ولا أستطيع أن أفهم كيف تغاضى عن خصائصها الرئيسية . ان الشيء الذي يدهش المرء عن النفود لأول وهلة هو لونها . انه ليس أبيض ككثبان الرمل التي مررنا بها أمس ، ولا أصفر كما هو الرمل في أجزاء من الصحراء المصرية ، ولكنه في الواقع أحمر فاتح ، قرمزي تقريبـــاً في

الصباح حين يكون ندياً بالطل . إن الرمل خشن نوعاً ما ، ولكنه نقي تماماً ، لا تخالطه أية شائبة من عنصر أجنبي ، حصباء ، أو حصى ، أو طين ، وهو في نفس التلوين والنسيج في كل مكان .

نبات (النفود) الغضا والارطى :

وانه لخطأ كبير أن نفترض انه مجدب ، فالنفود ، على العكس ، أوفر بالاشجار وأغنى بالكلأ من أي جزء آخر من الصحراء مررنا به منذ أن تركنا دمشق . انها مكسوة بأجمات الغضا في كل مكان . وأجمات من نوع آخر يسمى «بالارطى» ، التي هي في هذا الوقت من السنة حيث لا أوراق بالضبط مثل كرمة كثيفة التعريش ان فروعها ذات العقد وجذعها ذا الالياف يعطيها الى درجة كبيرة، منظرا ، تنطوي عليه قصة عن انها كانت في الاصل كرمة . يقول راضي: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء ذات يوم إلى مكان يوجد فيه حائط عنب ، فوجد بعض الفلاحين يشذبون أشجاره فسألهم عما كانوا يصنعون، وعما كانت تلك الشجيرات. وخوفا من سخطه أو طمعا في السخرية به أجابوه : بأنها شجرات « الأرطى » وكان « الأرطى » هو أول اسم قفز إلى أذهانهم . فرد النبي ﷺ : « أرطى ان شـاء الله » فلتكن ارطى إذن » . ومنذ ذلك اليوم توقفت عن أن تكون عنباً ولم تحمل ثمراً .

وإلى جانب ذلك توجد أنواع عديدة من كلأ الابل ، خاصة نوع جديد بالنسبة لنا يسمى العاذر ، الذي يقولون إن الغنم يمكنها أن تعيش عليه شهراً بدون أن تحتاج إلى ماء ، وأكثر من نوع واحد من الحشيش. ومن أجل ذلك فقد سرت كل من الابل والامهار بالمكان ، وابتهجنا نحن بوفرة الوقود من أجل حياتنا .

الحياة في (النفود)

ويقول (ولفرد) أن النفود قد حل له في النهاية السر الغامض لتربية الخيل في أواسط بلاد العرب . ففي الصحراء القاسية لا شيء هناك يمكن للخيل أن تأكله، ولكن هنا يوجد الشيء الكثير . ان النفود يفسر كل شيء . فبدلاً من أن يكون المكان الموحش الذي وصفه عدد قليل من الرحـــالة الذين شاهدوه ، هو في الواقع موطن البدو أثناء جزء كبير من السنة . ان حاجته الوحيدة هي الماء ، لأنه لا يحتوي الا على آبار قليلة ، وعلى طول أطرافه تشتد كثافة السكان .

ويخبرنا راضي أنه في الربيع ، حين تخضر الحشائش بعد المطر ، لا يهتم البدو بالماء ، من حيث أن ابلهم تكون حلوبة ويعيشون أسابيع بدونه ، يجوبون موغلين في الجزء الداخلي من الصحراء الرملية .

المنخفضات في (النفود)

كان سفرنا طيلة اليوم خلال النفود ببطء ، وشغلنا أنفسنا بدراسة ملامحها الطبيعية . وبدت لنا من أول نظرة فوضى شاملة ، ومكومة هنا ومجوفة هناك ، وسلاسل وتقاطــع سلاسل ، وعقد آكام كلها في اضطراب كلي ، إلا أننا بعد سيرنا بعض ساعات بدأنا نكتشف اطرادا في عدم النظام ، نحن مشغولون بمحاولة تعليله . ان أكثر ملامح النفود المثيرة للدهشة هي التجويفات الكبيرة لها شكل حافر الحصان ، وتنتشر في كل مكان (ويسميها راضي فلجا) . وهذه ، ولو انها تختلف في الاتساع من فدان إلى مائتي فدان ، جميعها متشابهة في شكلها واتجاهها بكل دقة .

انها تشبه بالضبط أثر حافر حصان بدون حذوة ، أي أن حزة مقدمة الحافر حادة وعمودية ، بينما ان حرف الحافر يستدق تدريجياً الى لا شيء عند الكعب ، وكلوة الحافر رغم أنها تقريبية إلا أنها ممثلة في المركز بأرض منكسرة ، مكونة من تلاقي مجاري المياه. ان قطر بعض هذه – الأفلاج – يجب أن يكون على الأقل ربع ميل ، وعمق أعمقها ، وهو ما قمنا بقياسه اليوم ، أثبت أنه ٢٣٠ قدماً ، وذلك يجعلها تنخفض تقريبــاً الى مستوى السهل الحصباوي الذي عبرناه أمس ، والذي يستمر تحت الرمال، مع احتمال قليل للشك في هذا .

ويبدو هذا أكثر احتمالاً ، من حيث أننا وجدنا في قاع أعمق (فلج) ، ودون أي مكان آخر ، قطعة من الأرض الصلبة .. كان أعمق ثاني - فلج - قناه مائة واربعين قدماً فقط ، وكان مع ذلك رملياً في أوطأ نقطة منه ، أي تحت نقطة كلوة الحافر فقط . ومع أن التربة المكونة لجوانب الافلاج وكل جزء فيها هي من الرمل الخالص، وأن السطح المباشر من المحتم انه في حالة انتقال مستمر ، فان من الواضح تماماً ان التخطيط العام لكل منها يقي سنين ، وربما قروناً ، بلا تغير. والنبات يثبت هذا ، لأنه ليس نمواً حدث بالأمس ، ولأنه يغطي الأفلاج كما يغطي غيرها . وفوق ذلك ، فدليلنا الذي سافر في النفود جيئة وذهاباً أربعين سنة، يؤكد أنها لم تتغير. وما من عاصفة رملية تملأ قط التجويفات، أو تذهب بالحوافي. وانه ليعرفها جميعاً ، وقد كان يعرفها منذ أن كان صبياً . « لقد خلقها الله هكذا » !! .

تعليل تجويفات (النفود :

وعلى أية حال ، فقد كان ولفرد .. يبحث عن نظرية طبيعية لتفسر تكوينها - أي الافلاج - ، ولكنه لما يستطع بعد ان يقرر ما اذا كانت راجعة الى فعل الريح أو الماء ، أو الى عدم التساوي في الأرض الصلبة تحتها . ولكنه الآن

يميل الى نظرية الماء . وربما نستطيع أن نقول عنهـا أكثر فيما بعد ، عندمـا نكون قد رأينا كثيراً منها ، ومن أجل ذلك فسأحتفظ بملاحظاتي .

لقد سافرنا يوماً بطوله ، نكدّ في السير في الرمال التي تغوص فيها أخفاف الابل حتى الرسغ ، والآن قد حان الوقت لأن نهتم بأمو (حنشا) الذي هو مشغول بالطبخ . ان ارتفاع مخيمنا ٢٤٤٠ قدماً ، ولكن أعلى مستوى عبرناه خلال اليوم كان ٢٥٦٠ قدماً . لم نشاهد أحداً طول اليوم إلا واحداً من الرولة على ذلول ، أخبرنا ان معسكراً يوجـد على يسارنا . بحثنا عنه ، ولكنا ميزنا فقط جمالاً على مسافة كبيرة .

١٤ يناير : (١٨٨٠م).

صباح آخر مشرق وضاء ، ولكنه مع ريح باردة من الجنوب الشرقي . لا شيء يمكن أن يكون أكثر إشراقـاً وتوهجاً من شمس الشتاء منعكسة من هذه الرمال الحمراء . ها هي - الأفلاج - مرة أخرى موضوع انتباهنا . اننا نجد أنها جميعاً تشير الى نفس الاتجاه ، أو تقريباً هكذا ، أي باتجاه مقدمة حافر الحصان نحو الغرب ، ولو أن جزء الميل الأشد انحداراً يختلف قليلاً ، مع كون المظهر الجنوبي أحياناً وأحياناً المظهر الشمالي اكثر وعورة من ذلك المواجه للشرق وهذا يبدو أنه اشارة إلى الريح أكثر من المـاء كسبب اصلي للانخفاض . وفوق ذلك ، فعلى طرف ـ الافلاج ـ الكبيرة

يوجد بصفة عامة رابية مستطيلة من الرمل ، ذات رأس ، كالذي يراه المرء على رأس قمة ثلج ، ومن الواضح أنه تسبب عن الريح ، من حيث أن الجزء المحجوب عن الريح ذو انحدار فجائي حاد والجزء المعرض للهواء مستدير .. ويبدو أن هذه تتغير بتغير الريح وهي بصفة عامة عارية من النبات ، ورملها أخف صفرة مما عداها ، وهو أمر فريد . يمكن للمرء أن يخمن وجود فلج عميق عن بعد كبير ، بوجود واحدة من هذه الآكام ذات المظهر الثلجي على الافق. ومن النادر أن يستطيع المرء الرؤية البعيدة في النفود، من حيث أن دائماً يكد صاعداً أو هابطاً منحدرات رملية ، أو يزحف كمربة ذات حصان واحد حول حافات هذه الأحواض الكبيرة . والارض بصفة عامة على درجة من الاستواء ، فقط حول الحافات والمرء يذهب من فلج إلى آخر من أجل أن يستفيد من المستوى .. ولقد صعدنا إلى رأس واحدة أو اثنتين من أعلى القمم الرملية ومن فوق واحدة منها استطعنا أن نميز صفاً من التلال على بعد حوالي ١٥ ميلا إلى الغرب - بجنوب غرب ، مع رأس منعزل إلى ما ورائها ، عرفناه كـ (رأس الطويل) الذي دللنا عليه يوم وصلنا الجوف . ومن هذه الارتفاعات أيضاً استطعنا أن نلاحظ وضع الافلاج ، ونميز أنها تتوالى الواحد بعد الآخر في صفوف ، ليست دائماً في خط مستقيم ، بل كما يتجه واد متعرج تعرجاً لطيفاً . وهذا ما جعلنا نفكر مرة أخرى في نظرية الماء .

ويظن ولفرد أنه ربما يوجد انحدار تدريجي في السهل تحت الرمل ، وانـــه حينما ينزل المطر ، كما يجب أن يحدث هنا أحياناً ، يتسرب خلال الرمل إلى الأرض الصلبة ويجري تحت الرمل على طول وديان ضحـــلة متعرجة ، وأن الرمل بهذه الطريقة ينزلق باستمرار بالتدريج إلى المنحدر ، وحينما يوجد انحدار في السهل من أسفل ، هناك يحدث الفلج فوقه .

إن هذا الرأي يسنده ما لاحظناه من الأماكن الجدبة ، حيث يحدث مثل ذلك ، لأنها دائما تنحدر إلى الغرب . ويؤكد لنا راضي أن الماء لا يتجمع قط في الافلاج حتى بعد المطر انه يجري اليها ثم يختفي .

حول خصائص بعض القبائل

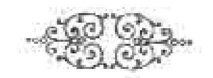
وبينما كنا نبحث هذه النقط المتعلقة بالتاريخ الطبيعي ، شاهدنا فجأة ابلا ترعى في حافة فلج لا يبعد نصف ميل أسفل منا ، فامتطينا أمهارنا على عجل شديد، لقد اخترعت عصابة تمكنني من الركوب بسرعة ، ومنذ حـادثة الغزو في وادي السرحان ، مـــا زلنا حريصين على الاحتراز من الأعداء وانحدرنا راكبين لنرى ما أمكن رؤيته ووجدنا في الحـال ستة – نصف درزن – من الناس ، رجالاً ونساء ، في فلج ، وعدداً آخر من الابل ترعى قرب خيمة . كانت الخيمة مجرد

ظلة مع خلفية لها ، وبمجرد ما رأوها أسرعت النساء إلى قلعها ، في حين اندفع الرجال إلى أقرب الجمال وأناخوها . من الواضح أنهم كانوا في خوف ، وبسرعة كبيرة تم كل شيء إلى حد أنه في الوقت الذي وصلنا اليه كانت الخيمة وأثاثها ، مثلما وجد ، قد حملت ، وأصبحوا على استعداد للذهاب .

إن العرب يفخرون بقدرتهم على قلع مخيم ، والسير عند اخطار ، مدته لحظة تقريباً ، وفي هذه الحال أظنه لم يكد يستغرق ثلاث دقائق . وبدا أنهم فوجئوا وصاروا في حيرة من ظهورنا حينما تقدمنا ، وفي البداية قالوا انهم (رولة) ، ولكن عندما لحق بنا أصحابنا اعترفوا أنهم من (الحويسين) قبيلة فقيرة يحتقرها البدو وتحتـــل نفس المنزلة التي يحتلها (الصُلّـَب) . وعلى أية حال ، فقد كانت أعيننا غير قادرة على تمييزهم من البدو الآخرين .

سألت « محمداً » بعد هذا ، كيف أن كل قبيلة في الصحراء يسهل على أفراد من قبيلة ، أو قبائل أخرى ، معرفتها بهذه الدرجة ، فأخبرني أن كل قبيلة لها خصائص في الملبس والملامح معروفة جيداً للجميع . وعلى ذلك (فشمر) بصفة عامة طوال ، و (السبعة) قصار جداً ، الا أن رماحهم طويلة . ورماح (الرولة) أقصر وخيولهم أصغر و (شمر نجد) يلبسون عباءات بنية ، و (حرب) سود الوجوه ، كالعبيد تقريباً ، حدثني محمد بتفاصيل اخرى كثيرة بالنسبة للقبائل التي لا

أتذكرهـــا . وقال ان راضي عرف ان هؤلاء الناس من (الحويسين) مباشرة ، من خيمتهم الحقيرة البائسة . ثم ذكرنا كيف خدعنا في العام الماضي بالغزو الذي واجهنا في (الحماد) في اليوم الذي لقينا (جدعان) لقد كان توفيقاً - كما صرح - ان شيئاً غير ملائم لم يحدث آنذاك ، لأننا اكتشفنا منذ ذلك الوقت أن التسعة الأشخاص الذين ذهب (ولفرد) اليهم راكباً ليتحـدث اليهم ، كانوا في الواقع غزاة من (العمارات) ، يرأسهم (رجـــاء) نفسه ، شيخ بطن (الأرفدي ؟) من تلك القبيلة ودخل (رجاء) بعد أسابيع ليست كثيرة إلى (تدمر) ليشتري حنطة ، وأقام يومين في بيت عبدالله ، وعرف فيه الرجل الذي كان مع (البيك) في ذلك اليوم . ان هؤلاء (العمارات) كانوا يبحثون الطريقة التي سيهاجمون بها قافلتنا عندما ركب (ولفرد) اليهم ، وحقيقة أنه حينما قام بذلك وحده جعلهم يتصورون أن قافلتنا كانت قوية ، وهكذا قرروا أن يتركونا وشأننا .. أصبح محمد و (رجاء) الآن صديقين ، فقد قدم رجاء لمحمد عند انصرافه صقراً ، وقدم له محمد هدية غريبة ، كَفَنَاً ! ويوضح محمد أن الأكفان يقدرها البدو كثيراً ، وهذا الكفن بالذات صنعته أم محمد .



حليب (الابل)

بعد هذا مباشرة أتينا الى مخيم (الرولة) ، على الأقل مخيم لعبيدهم . لم يكن الرجال زنوجاً ، ولو أنهم كانوا شديدي السواد وقبيحي المنظر . أوضحوا لنا أنهم يملكون لبنيّه ابن شعلان،ابن عم لـ (صطام) . ورئيس القبيلة الآن في (النفود). أعطونا بعضاً من حليب النياق الطازج . وهو أول ما ذقنا هذا العام . ثم بدأنا ننحدر الى واد طويل يتقاطع هنا مع (النفود) ، وفيه تقع آبار (شقيق) . بالقرب من واحدة من هذه نحن الآن ، مخيمين على قطعة من الأرض الصلبة ، تحت أول موجة من رمل ما وراء الآبار .

على آبار (شقيق ؟) :

هناك أربع آبار معروفة باسم (شقيق) ، الأولى حيث نحن الآن وأخرى قريبة منها ، وثلاث أخر ، على مسافة ثلاثة أو أربعة أميال في أماكن متفرقة من الوادي . وهي جميعاً ، كما سمعنا ، على نفس العمق ، ٢٢٥ قدما ، ومن الواضح أنها قديمة لأن هذه البئر مطوية بصخور منحوتة ، وأطرافها متهرئة من طول استعمال الحبال في سحب الماء ، ويوجد ، هنا ، على أية حال ، بكرة خشبية صغيرة من أجل أن يمر

عليها الحبل ، وهو ترتيب ثابت غير معتاد كثيراً في الصحراء، حيث كل شيء قابل للنقل ينقل كأمر منتظر . فأي حبل أو دلو لن يكون له فرصة البقاء أسبوعاً في أية بئر . كان هناك جمل ميت قرب البئر ، ومنه كان نسران وكلب ينهشون ، ولا شيء آخر ذا حياة كان هناك .

وبينما كنا نلقي نظرة على حبالنا ، ونتعجب فيما إذا كنا نستطيع أن ندبر - بلم الشوارد معاً، لنصل إلى الماء ، أقبلت فرقة من الجمال نحونا متهادية تخب في مشيتها ، ورءوسها ممتدة وأخفافها تضرب في الهواء ، ويتبعها بعض الرجـــال على ركائبهم الذلول . واتضح أن هؤلاء من قوم ابن شعلان ، وأحدهم، وكان ذلك مفاجأة سارة لنا ، رجل يسمى (راشد) عرفنا كأصدقاء قدماء ، كنا قابلناه في العام الماضي في مخيم (الرولة) في (الصقيل) في الشمال الأقصى . قال انه جاء مع (أبو جديلي) ، إلى خيمتنا وانا لنتذكر المناسبة تماماً . انه لأمر سار أن تفكر في العثور على أصدقاء في مكان كهذا ، وانه ليظهر البعد الذي تتجول فيه القبائل أثناء السنة . إن (صقيل) على بعد خمسمائة ميل من (شقيق) .

حديث عن بنية بن شعلان :

وفي الحال عرض راشد أن يمنح لنا كل الماء الذي أردناه ، لأنه كان لديه حبل طويل معه ، وشربت كل الجماعة القهوة ،

وأكلت تمراً ، وكان بينهم ابنا (بُقيّة) ، محمد وأسعد ، والأكبر شاب خجول جلف ، بينما الأصغر ، في التاسعة من عمره ، غلام صغير لطيف . واليه أودعنا رسالة شكرنا إلى أبيه . وبقية بن حنيفي بن شعلان وهو شيخ قسم كبير من (الرولة) ، نفس الشخص الذي معنا في العام الماضي بأنه استقر في نجد . وهو على علاقة سيئة مع (صطام) بسبب المهر الادهم الذي أخذه منه (صطام) بالقوة ، منذ بضع سنوات . ان الطفلين لم يكونا قد رأيا أوربياً قط في حياتهما ، ولم يذهبا شمالاً إلى أبعد من (وادي السرحان) . نود كثيراً لو نزور (بقية) ، ولكن خيامه على بعد أميال كثيرة خارج طريقنا ، ولا نجرؤ على الاستهانة بالنقود .

مشاهدة (حوار) :

اليوم ولد حوار بجوار البئر ،ذهبت لالقي نظرة على المخلوق الصغير الذي ترك وراء أمه ، وسيقت بقية الابل الى منزلها ، لاحظت أنه لم يكن لديه هذه الاماكن العارية (الثفنات)التي تصاب بها الجمال الاكبر سناً على ركبها وفي صدرهـــا بسبب بروكها ، كما لاحظت أن ركبتيه كانتا مرضوضتين من جراء جهده للنهوض . ساعدناه على أن يقوم، وفي ثلاث ساعات من الزمن كان قادراً على أن يعدو مبتعداً مع أمه .

جهد في السير وتوفير للماء :

١٥ يناير : (١٨٨٠م).

عندما نظرت ، هذا الصباح ، خارج الخيمة ، رأيت هالة حول القمر ، وظننت ان مطراً سينزل ولكن خطأ كهذا لم يأت ، ولو ان السماء كانت ملبدة بالغيوم والنهار حاراً رطباً ، بذلنا جهداً كبيراً لكي نبدأ سيرنا مبكرين ، ولقد كان هناك قدر كبير من « ياالله ، ياالله ، يصرخ بها محمد ولم تكن نتيجتها كبيرة ، لأن الرجال قد كانوا يحتفلون بعبورنا (النفود) ، الذي بدأ يجد اليوم ، بوليمة على جدي . وكانت النتيجة ان أصبحو كليلين (وخمين) وبطيئين . وفي البارحة ، ألقى (ولفرد) فيهم خطبة عن طبيعة الرحلة الجادة التي كنا نقوم بها ، ومئات الاميال من الرمل العميق التي علينا ان نعبرها ، وعن ضرورة توفير كل قوانا لهذا الجهد . بأحسن سرعة قبل أن نستطيع ان نأمل الوصول الى (جبة) في طرف خمسة أيام . وربما ستة او سبعة فما من قافلة موقرة كقافلتنا قد عبرت (النفود) عند هذه النقطة ، إذا كان لنا ان نصدق (راضي) ، فاذا انهدت قوى الجمال ، فلن تكون هناك وسيلة للحصول على مساعدة ، كلا ، ولا توجد أية بئر بعد (شقيق) . وعلى ذلك فقد عين عبدالله (شيخا للماء) ،مع اوامر ان يوزعه بالتقتير في (خرابات) كل مساء ، وألا يسمح

لأي شخص ان يشرب أثناء النهار . ان العرب كالاطفال فيما يتعلق باللحم والشراب ، يأكلون ويشربون طـــول اليوم اذا وجـــدوا الفرصة ، ولا يتركون شيئاً للغد . لكن اسرافهم يمكن فقط ان ينتج كارثة ، وانما لنظن ان عبدالله وكذلك محمد متأثران بالموقف . هناك شيء ما في هذه الاصقاع العظيمة يثير الوقار والخشوع ، حتى بالنسبة لأشد الارواح وحشية ، ولقد بدأنا سيرنا اليوم بأسلوب منظم جداً .

(راضي) الدليل الجديد

برهن راضي ، الدليل الصغير (واسمه يعني المسرور) على انه كان كسباً عظيماً لجماعتنا ، ويرغب في ان يعطينا كل أنواع المعلومات عندما كنا نسأل ، ولم يكن مهذاراً عجولاً . انه شيخ صغير غريب ، ناحل وأسود وذابـل ، كالبقايا الميتة لاحراج الارطى التي يراها المرء هنـــا ، عود غائم يتقاذفه (النفود) . ان له ذلوله يصطحبها معه ، كيس من العظام المتيقة التي تبدو كما لو كانت لن تستمر خلال الرحلة ، وعليها يقعد جاثماً ساعة اثر ساعة في صمت ، مشيراً بيده المرتعشة بين آونة واخرى نحو الطريق الذي علينا ان نسلكه .

وهو يحمل معه على راحلتـه مهراساً (نجر) من الصخر الرملي الاحمر من صناعة الجوف من أجل قريب لابن رشيد ،

ويبدو ان هذا يحدث توازناً مع قرية الماء المطلقة في الجانب الآخر .

عظام .. وبقايا أجسام ! :

وهو يتكلم من وقت لآخر ، ولقد قص علينا اكثر من حكاية ممتعة عن اولئك الذين هلكوا في سالف الايام . ففي كل تجويف تقريباً توجد عظام ، غالباً عظام جمال ، (جمال حسين) يسميها راضي وان احد سأل عمن يكون حسين فهناك ضحكة . وفي قعر واحد من الافلاج توجد ، على أية حال ، عظام من نوع آخر . هنا حلة غزو هلكت ، لجانب ورجالها لقد كانوا (رولة) عبروا (النفود) ليغيروا على شمر ، ولم يكونوا بقادرين على ان يبلغوا (شقيق) في طريق العودة . كانت العظام بيضاء ، ولكن كانت هناك قطع من الجلد لا تزال ملتصقة بها ، مع ان راضي يقول: انها حدثت منذ عشر سنوات

وفي مكان آخر ، أرانا كومتين من الاحطاب ، منفصلتين احداهما عن الاخرى بثلاثين ياردة ، وهما تحددان النقطة التي بوغتت فيها غزو من شمر ، كانوا يسوقون جمالا من (وادي السرحان) — بوغتوا من قبل مالكها ، شيخ من السرحان الذي رمى حربته من بعد الثلاثين ياردة هذه على عقيد شمر فشكته ، مهراً ورجلا . ومرة أخرى ، أشار الى بقايا أربعين

راكباً من ركاب (جمال السلبات) ، ضلوا طريقهم ، وهلكوا عطشاً .

في طريق «أبو زيد الهلالي» ! :

كان الرمل ، لمسافة أميال عديدة بعد مغادرتنا الآبار ، منقطى بآثار أخفاف إبل ، إبل (الروقة)بدون شك . وهنا وهناك كنا نصادف آثار حصان ، ويبدو أنه كلما توغل المرء أكثر في بلاد العرب أصبحت الخيل أكثر ندرة .

وبعد عبور هذه الأميال القليلة ، لم يبد هناك — على أية حال — أي أثر للكائنات الحية ، باستثناء السحالي . واتجه بنا (راضي) أولاً في اتجاه جنوبي تقريباً ، حتى قابل خطاً من العلامات لا يبين بالنسبة لنا ، إلا أنه معروف لديه تماماً ،يتجه جنوباً — بجنوب الشرق ، وهو يسمي هذا الطريق ،طريق (أبو زيد) وحكى لنا الاسطورة التالية بهذه المناسبة (لم يكن هناك أي أثر للطريق أكثر ممـــا يمكن أن يوجد في البحر) ..

مطابة بني هلال :

يقول راضي :

منذ سنين كثيرة ، كانت هناك مجاعة في (نجد)، وأصبح

بنو هلال بدون قوت . وعندئذ تحدث (أبو زيـــد) شيخ القبيلة مع قريبيه (مرعي) و (يونس)، فقال لها: «فلنخرج في اتجاه الغرب ، ولنبحث عن مراع جديدة لقومنا » .

وساروا حتى أتوا الى (تونس الغرب) ، التي كان يحكمها في ذلك الزمـــان الأمير (الزناتي) ، ونظروا الى الأرض فأحبوها ، وكانوا على وشك العودة بالاخبار الى قبيلتهم ، عندما وضعهم « الزناتي » جميعاً في السجن .

وكان « للزناتي » بنت باهرة الجمال اسمها « سفيري » ، ولما رأت «مرعي» في السجن « الدّبّـــاب » ، وقعت في حبه ، واقترحت أنه يجب أن يتزوجها ووعدت ان حياته وحياة رفيقيه ستنقذ ، ولكن « مَرْعي » لم يهتم بها ولم يكن ليرضى في البداية . ومع ذلك فقد استمرت في حبها ، وقصدت أن تصنع جميلاً نحوهم ، وتشفعت الى أبيها أن يبقي على حياتهم . وعندئذ أخذ « الزناتي » يحتار في أمر سجنائه ، وهو يسمع من ابنته أنهم من أصل كريم ، ولم يعرف ماذا يصنع بهم . وعندما أخبرتهم بهذا ، اقترحوا أن واحداً منهم يجب أن يطلق ويذهب الى وطنه من أجل ان يحضر فدية لرفيقيه ، ولكنهم في قلوبهم كانوا مصممين على ان « أبو زيد » هو الذي يجب أن يذهب وأنه يجب أن يعود – ليس بفدية – بـــل بجميع قومه الى تونس ، واطلاق سراح رفيقيه . وحملت « سفيري » المقترح الى ابيها ، وقالت : « اثنان من هؤلاء

الرجال من أصل كريم ، ولكن الثالث عبد مملوك ، إلا أنني لا أعرف أياً من الثلاثة هو . واذن فدع العبد يذهب ويأتي بالفدية من أجل سادته » .

وقال الزناتي : « وكيف نكتشف العبد من بينهم ، ونميزه عن الآخرين ؟ » .

فقالت : « بهذا .. خذهم الى مكان وَحْل ، حيث يوجد ماء ، ومرهم أن يمروا من فوقه ، وسترى أن العبد فيهم ، أياً كان ، سيجمع ثيابه حوله بعناية ، في حـــين أن نبلاء المحتد سيتركون ثيابهم يعلق بها الطين » .

فوافق أبوها ، وحدث كذلك الثلاثة الرجال في اليوم التالي من سجنهم ، وأمروا بالمرور فوق جدول وحل ، فوضع أبو زيد ، وكان قد حذر من قبل « سفري » ، عباءته على رأسه ، ورفع قميصه حتى خاصرتيه ، بينما مشى « مرعي » ويونس ، بدون احتياط .

وعلى ذلك فقد أطلق أبو زيد وعاد إلى نجد ، وبعد أن جمع كل قومه هناك ، قادهم عبر النفود في نفس هذا الطريق ، متخذا الدرب الذي رأيناه الآن ، حتى يمكنهم من الوصول الى السلامة . ثم واصل سيره بهم إلى تونس ، وضرب حصاراً على المدينة .

حاصر ابو زيد (تونس) سنة الا أنه لم يستطع دخولها ،

وما كان ليستطيع أخذها ، لولا « سفري » التي كانت تحبك المؤامرات من أجل نجاحه .

كانت « سفري » امرأة حكيمة . كانت تعرف القراءة والكتابة ، وتعرف السحر وتستطيع تفسير التنبؤات. وكانت هناك نبوءة تتعلق بالزناتي مؤداها أنه لا يمكن قتله في أية معركة الا بواسطة شخص معين اسمه « ذياب بن غانم » قاطع طريق في الصحراء المجاورة .

وأرسلت سفرى كلمة عن هذا الموضوع الى « أبو زيد » ، الذي ضم قاطع الطريق هذا الى خدمته ، وأرسله في الفرصة التالية ضد الزناتي ، حينما خرج الى القتال ، وذبح الامير .

ثم صار أبو زيد أميراً لتونس وتزوج مرى «سفرى».

تلك هي قصة راضي ، ويرجى ألا تكون صحيحة تماماً فيما يتعلق بخديعة سفرى لأبيها .

وعورة السير في « النفود »

أما فيما يتعلق باسطورة الطريق ، فمن المستحيل القول ان الطريق هناك « لمتشهد اذ كان يكذب » .وسواء كانت طريقاً أم غير طريق ، فقد مكننا نتجول في تعرجات طيلة اليوم ، أحياناً نكد صاعدين منحدرات وعرة مستقيمة ، وأخرى نتخذ طريقاً دائريا طويلا لنتجنب فلجا ، واحيانا نسير في

تعرج لغير ما سبب معين . ومع ذلك ، فدائماً على سطح غير مطروق من الرمال اللينة . ان الأرض متكسرة أكثر من ذي قبل ، والافلاج اكبر ، والسير أشق ، ولكن الأمهار والجمال سارت بشجاعة ، وقد قطعنا اليوم حوالي عشرين ميلا ، مخيمنا الليلة ، وان كان في فلج ، أعلى من آبار شقيق ، بـ ٥٦٠ قدماً .

١٦ يناير (١٨٨٠م).

عاصفة في الليل حولت الرمل الى لون قرمزي . «راضي» يهنئنا على هذا من حيث أننا الان ، كما يقول ، سنبلغ «جبة» ان شاء الله ! يبدو انه كان يشك بعض الشيء من قبل . غير أن المطر الثقيل قد جعل الارض صلبة ، وكنا قادرين على ان نندفع في سيرنا بمعدل طيب ، كما لو كنا نسير على حصباء .
وكلما تعمقنا في النفود ، تصير « الافلاج » أكثر تباعدا ، والحروف المتقاطعة اكثر انخفاضاً .

يبدو أن الافلاج تسير على نحو ما ، في خطوط منتظمة من الشرق الى الغرب – أو على الاصح – من الشرق بجنوب الى الغرب بشمال .

حيوانات « النفود » وحشراته :

وانه لأمر مثير أن تلاحظ آثار اقدام حيوانات برية على الرمل ، لأن علاماتها الان ظاهرة بوضوح ، كما لو كانت على ثلج حديث السقوط . وأكثر تلك شيوعاً هي آثار الارانب

البرية المطابقة في الحجم لأرانب بلادنا . واليوم بصرت الكلاب السلوقية وطاردت عدداً منها ، ولو بدون جدوى ، لأن أشجار الغضا والاحراج سرعان ما تحجبها عن الكلاب .

لقد عدونا مرة او مرتين وليس هناك خطر أن نفقد أنفسنا ، لان علينا فقط ان نعود على آثار خطونا لنجد القافلة .

وبالاضافة الى الأرانب البرية توجد انواع عديدة من الطيور الصغيرة: طيور الأطيش، وطيور النمنمة ، وقُبَّرات الصحراء والأبلق ، والغربان أحياناً .

ورأيت أيضا زوجا من الصقور البلدية ، من الواضح انها في موطنها .

أما الزواحف فانها أكثر عدداً ، فسطح الصحراء بأكمله تظهر عليه آثار السحالى ، بينما كانت هنا وهناك آثار عبور الثعبان .

قتل رفاقنا اليوم اثنين - من النوع المسمى « سليمان » ، وهو مألوف في معظم اجزاء الصحراء ، ثعبان فضي طويل ، نحيف ، ذو رأس صغير ، وغير ضار على الاطلاق . لقد أخرجها بعد المطر أشعة الشمس الدافئة .

لقد كنا نستفهم من راضي عن انواع أكثر خطراً فوصف لنا بدقة فائقة الافعى المقرنة و « الكوبرا » . أدهشني أن أسمع عن الاخيرة ، ولكن من المستحيل ان أخطىء وصفه

لثعبان يقف على ذيله ، وينفخ عنقه كأجنحة وهـذه — كما يقول — ترى في الصيف فقط .

بقر الوحش « المها » :

والغزلان يبدو أنها لا توجـــد في « النفود » ، الا أننا صادفنا آثاراً جديدة لبقرتين وحشيتين . ويؤكد لنا راضي أن هذا الحيوان ، لا يترك « النفود » أبداً ، ولا يشرب . حقاً لا يوجد أي ماء هناك فوق سطح الأرض في أي مكان أقرب من « جبل أجا » ، ويجب أن يستغنى - أي الحيوان — عنه . كان أثر الحافر تقريباً في حجم حافر غزال كامل النمو . اننا متشوقون الى رؤية الحيوان نفسه ، الذي يؤكدون لنا أنه بقرة حقيقية ، ولو ان من الصعب أن يكون ذلك . ولقد ظللنا نتطلع جيداً من أجل النعام بدون جدوى .

أما عن الحشرات ، فقد رأينـا قليلاً من الذباب ، مثل ذباب المنزل ، وبعض اليعاسيب وفراشات صغيرة . ويوجد نوع أفضل من الحشيش في النفود وأكثر مما يوجد منه على التخوم ، وافترض أن ذلك بسبب غياب الابل .

الاهتداء الى الطريق : —

إنني أجد أن راضي يعرف طريقه كلية تقريبا بواسطة

العلامات فعلى كل تل رملي عـــال ينزل من فوق ذلوله ، ويجذب بعضا من أغصان الغضا ، وهي سهلة الكسر جداً ، ويضيفها إلى ركائز من الخشب يكون أقامها قبـلا . وهذه يمكن أن ترى من بعد لا بأس به . ولقد تعلمنا - أيضاً - أن نميز طريقا نوعا ما ، بعلامات متقطعة من بعر الإبل ، وأحيانا يوجد على جانب منحدر حاد ممر للقدم متميز . وعلى طول هذا الخط يتحسس دليلنا طريقه ، ملقيا نظرة هنـا وهناك ، كما تفعل الكلاب السلوقية عندما تقص الأثر . .

لا هو ولا محمد ، ولا أي من العرب الذين معنا ، عندهم أقل فكرة عن معرفة الاتجاه بالشمس ، وعندما سأل «ولفرد» محمدا إذا كان يظن أنه يستطيع أن يجد طريقه عائداً إلى (شقيق) ، أجاب : « كيف أستطيع أن أفعل ذلك ؟ كل واحد من هذه الكثبان يشبه الآخر » .

من قصص الدليل (راضي) :

لقد سلانا راضي بقصص أخرى من قصص الدم والعظام ، التي من أشدها فظاعة قصـة بعض الجنود الاتراك [١] الذين تخلى عنهم غدرا في النفود) كانوا احتلوا حائل في الأيام الأولى لابن رشيد الأول، وتركوا هناك بصفة حامية . ولكن

---

(١) كان هؤلاء بدون شك من جنود جيش ابراهيم باشا الذين تركوا في عنيزة . (الأصل)

السلطان أما انه لم يستطع الاتصال بهم ، وأما أنه نسيهم ، وبعد زمن ما رغبوا في الذهاب إلى ديارهم . كثير منهم مات في حائل ، وبقيتهم ، وحوالي خمسمائة ، اتفقوا ببساطة على الانطلاق إلى دمشق تحت حراسة عُبَيْد ، أخي الأمير ، الذي عقد العزم على افنائهم . غادروا حائل على ظهور الخيل واتبعوا أدلاءهم الشمريين حتى هذا المكان ، وكان هؤلاء يجيبون على كل الأسئلة المتعلقة بأماكن الآبار ، كانوا يجيبونهم ، «بعد قليل» .!! اوفي النهاية تركهم البدو ويبدو أنهم كانوا رفاقا شجعانا ، لأن آخر ما سمع عنهم كان أغنية من نوع ما ، أو ترديدا غنائيا (كورس) ، كانوا يغنونها أثنـــاء صراعهم الشاق : —

« نحن عسكر ما نحن عطاشى ، نحن عسكر مـــا نريد ميه » اولكنه من الحتم أنهم عند الظهيرة من ذلك اليوم قنطوا فاضطجعوا تحت الاشجار ليصيبوا قليلا من الظل ، وهكذا وجدوا بعد ذلك مبعثرين في (افلاج) مختلفة والبعض من خيلهم عادت ادراجها الى (جبة) ، وصارت ملكاً لكل من استطاع ان يضع يده عليها . وبيعت من قبــــل هؤلاء المحظوظين من الناس ببضع أغنام او نعاج لكل واحد منها . انها قصة ذات لون شاحب شحوب الموتى

وقصة أخرى أبهج هي قصة العاشقين الصغيرين اللذين فرا خلسة من الجوف ، وتبعهما اقرباؤهما ، ولانهما توقعا ان آثارهما

ستقتفي ، ولیتجنبا الفضيحة ، اتفقا بدلا من أن يسيرا معاً ، أن يتبعا خطين متوازيين ، المسافة بينهمامائة يارد تقريباً ، وهكذا انطلقا في رحلتهما ، وعندما أتيا الى فلج معين ، أراه لنا راضي ، كانا متعبين جداً فاضطجعا ليموتا كل منهما تحت شجرة . هكذا وجدا لحسن الحظ في الوقت المناسب وسُرّ تصرفهما هذا المبني على حسن التقدير ، الاقرباء من الطرفين ، سرورا بالغاً الى درجة ان الموافقة على زواجهما قــد تمت ، واحتفل بالعروسين في جو من المرح والانشراح .

بارقة أمل :

في الساعة العاشرة والنصف بصرنا فجأة بقمتي (العليم)[1] وهما صخرتان مخروطيتان تبرزان من بين الرمال ، وتكونان معلماً بارزاً للسافرين في طريقهم إلى (جبّة). وشعرنا بفرح كبير أن نراهما ، لأننا كنا بدأنا نشك في فطنة دليلنا بسبب الخط المتعرج الذي اتبعناه ، والآن عرفنا أن أسوأ ما هناك قد انتهى ، وأننا ، إذا احتجنا نستطيع أن نجد طريقنا عبر النصف الآخر من (النفود) مع بعض الأمل على الأقل في النجاح .

(١) كنا ترجمناها حسب الحروف الافرنجية (عالم) فكتب الينا الأخ محمد بن عمر الشمري من أهل (جبّة) وممن سافر في النفود مراراً وهو يعرف الموضع ، كتب بأن الصواب (العُلَيْم) فله الشكر .

وكنا جالنا لتتبعنا وانطلقنا راكبين نحو التلال ، ومع ذلك فقد قضينا عدة ساعات لنصلها ، إلا أننا كنا في الساعة الثالثة (بعد الظهر) نمس الصخور بأيدينا لنحسّ أنها كانت حقيقية . كان الأمر كما لو كنا قد فقدنا في البحر ووجدنا جزيرة صحراوية .

كان لدينا بعض الوقت لننتظر ، بينما تكد القافلة لتلحق بنا . بقيت مع المهريين أرقب ، بينما صعد (ولفرد) الى قمة الصخرة الصغرى . وصاح متعجباً : (يا له من مكان يقبر المرء فيه ، ان جبل (نيبو) كان لا بد أنه كان مثل هذا) !! . إلا ان الذين يموتون في (النفود) قلّ أن يكون لديهم أحد ليقبرهم .

فراشة تستحم بالشمس !

وبينما كان يتسلق حول كومة من الأحجار غير المثبتة قرب قمة التل وجد ما بعث فيه السرور . فراشة مزركشة تستحم في نور الشمس في نقطة سائرة وإذا كان ، كما هو محتمل ، ليس هناك نبات ملائم لهذه الفراشة في طورها الاول أقرب من (حربون) ، فلا بد ان هذه الحشرة الصغيرة قد سافرت على الاقل اربعمائة ميل . انها هنا بدت سعيدة في الشمس ، وهذه الصخرة الصغرى ، او هذا التل الصخري ، كان ارتفاعه مائة قدم فوق مستوى السهل وينبثق منه (أي من السهل)

رأسياً مجرداً وعــــاريا كما تفعل صخرة في البحر . وسجل (البارومتر) عند القمة ٣٢٢٠ قدماً . و (العَلَـم) الأطول ربما كان ثلاثة أضعاف ارتفاعه .

شيخ (النفود) !

ويقول راضي ان (العليم) هو شيخ (النفود)والتل الاصفر هو ابنه . وعلى مسافة بعض أميال الى الشمال الشرقي ، توجد مجموعة من التلال الرملية البيضاء (حريم العليم) . ان صخور (العليم) من الحجر الرملي سوداء بفعل التّحات ، وليست (جرانيت) كما أملنا ، وهذا بدون شك هو المــــادة التي تكونت منها ، على مر السنين ، كثبان من الرمال الحمراء . انها ليست من الصخر الصلد،ولكنها تشبه كومة من الأحجار . وكان على قمة التل الذي صعده (ولفرد) صورة مـــع بقايا بعض حروف قديمة محفورة على الصخور،من نفس نوع تلك التي ترى في(سينا) أو على الأصح في وادي (مقطب) .

كان المنظر ، طبقاً لتقرير (ولفرد) ، مدهشاً ، إلا أنه مستحيل أن ترسمه أو حتى أن تحاول رسمه . الملامح العامة للنفود هنا يمكن أن ترى منشورة كما لو كانت على (خارطة) ، وتناسق المحيط الرملي معرقاً بالخطوط الطويلة لأفلاجه ،و (عليم) نفسه يرتفع في وسطها كصخرة منبثقة من بحر معرق بالزبد

قارورة من رمل (النفود)

نحن الآن مخيمون على بعد حوالي ميلين وراء (العليم) لقد ملأت قارورة بالرمل لاصنع منه ساعة زجاجية في الوطن .

(الارطى) و (الغضا)

١٧ يناير (١٨٨٠م).

صقيع أبيض ، حزم البعض منه مع الخيام وحمل معنا كل اليوم .

انه لغريب أن تغير النبات الآن بعد أن عبرنا (العُلَيم).. فحتى تلك النقطة كان الغضا يغرق ما عداه ، ولم أكن بقادرة على التصديق أنه سيختفي هكذا فجأة ، ومع ذلك فالأمر كذلك .

أما الآن فلا يمكن أن ترى أي أثر للغضا ، وحلّ محله نبات الأرطى الذي كان نادراً من قبل . ويبدو مستحيلا أن تجد سبباً لهذا ، من حيث أنه لا يوجد تغير مادي في مستوى الارتفاع ، ولا تغير في خصائص التربة على الاطلاق .

كانت الأجمات التي خيمنا عندها البارحة هي الأخيرة تماما باتجاه الجنوب انا آسفون على أن نفقدها ، لأن الغضا هو

أرقع أنواع الحطب في العالم. ان الفحم الذي هنا وهناك حيث وجدت نيران مخيات ، هو أرقع من أرفع أنواع الفحم الذي يستعمل في الرسم .

أما الأرطى فهو من نوع أوطأ . ومن جهة أخرى يوجد حشيش أكثر من اجل الابل يسمى (النَّصِيّ) ، كما يوجد الـ (حمار؟) وهو نبات شوكي ضارب إلى الزرقة، الخيل مولعة به كثيراً، في حين أن (العاذر) وهو عشب ذو أوراق خضراء قاسية وأزهــــار صفراء بنية ، لا يزال هو النبات الأكثر شيوعاً .

حديث عن رفاق الرحلة:

جف الرمل مرة اخرى منذ الأمس ، وكلما صار النهار أدفأ ، أصبح ثقيلا على الجمال . ان الجهد في الدبيب خلال سطح تسوخ فوقه الخطا بدأ يتعبها ، وقد مشى اليوم معظم الرجال ، وضرب محمد المثل لهم . كل واحد كان منشرحاً ، بالرغم من المشاق، وكلهم أظهر قوة عجيبة في العدو ، وممارسة اللهو واللعب في الرمال . وكان (ولفرد) ، وعنده مران طيب ، غير قادر تماماً على مجاراتهم . أما أنا فقد كانت حالتي بالنسبة أسوأ كما يمكن أن يتصور ، من حيث أني كنت ما زلت أعرج ، وعلى أية حال ، فكلانا أحس بأنه ملتزم بأن يحاول ويسير في فترات من أجل مهرينا .

ويرهن اليوم ابراهيم الطويل (تمييزاً له عن ابراهيم القصير) الذي كان حتى الآن اضحوكة الجماعة، على منتهى رباطة الجأش عندما كان يُرسَل إلى أعماق الافلاج سخرية به، ليجلب ماء، أو الى قمم التلال الرملية لينظر إلى جبال متخيلة . وهو - ولو أنه مسيحي - ند لأي مسلم في جماعتنا ، ويعطي بقدر ما يأخذ في الالعاب العنيفة ، التي ينغمس فيها العرب ليحتفظوا بمعنوياتهم .

وفي احدى اللحظات أمسك بعمود خيمة الخدم واتخذها سلاحاً يلعب به بينهم إلى الحد الذي ظننت أن عظاماً ستتحطم .

وعبدالله - أيضاً - عندما يكون هناك مكان معين لا بد من صعوده ويبدو لآخرون منهكين - غالبا ما يجري ويقف على رأسه حتى يصعدوا . ونحن نشجع هذا الانبساط لأنه يجعل العمل أخف .

وآخر عن المطايا !

ان ماءنا يتناقص نوعاً ما ، لأنه كان علينا ان نقسم بين المهرين قربة كل يوم ، ولكن هذا يخفف الاحمال . راحلتان بدأتا تهنان ، ذلول حنا ، التي نادراً ما عوملت بعدل ، من حيث أنه هو وابراهيم كانا باستمرار يتبادلان مكانهما على ظهرها ، فتكرار اناخة جمل وانهاضه ، يتعبه أكثر من أي

عمل. وبالمثل كان البعير الجميل الذي اشتريناه في (المزاريب). فهذا بالرغم من مظاهره الحسنة ، يبدو واهنـــا . فرجلاه طويلتان ضعيفتان ، وعنقه قصير ضعيف ، علامتان مبينتان تدلان على عدم الاحتمال ، ثم انه في الثالثة من عمره فقط ، ولم يكتسب بعد حدة المزاج على الاقـل هكذا يقول عبدالله ان اي جمل لا يمكن الاعتماد عليه قط حتى يكتسب هـــذا الخلق . والجمل القبيح ، أيضاً ، الذي يسمونه (شنوان) يبدو مكروباً . لقد أصابه الجرب بالتأكيد ، وليتنا أصررنا على هذه النقطة حينما ارتبنا في الجمال في (دمشق) ، غير أن الاوان قد فات الآن . أما البقية فلا زالت على خير ما يرام ، على الرغم من الرحلة الطويلة وغيـــاب الكلأ الاخضر الذي تحتاجه في هذا الوقت من السنة ، لم يظهر بعد أي شيء أخضر ، باستثناء نبات صغير ذي زهرة ارجوانية شرعت تعلو برأسها فوق الرمل . اما الحشيش الاخضر فلا شيء منه ، ومحصول العام الماضي يقف أبيض ، ذابلاً دون علامة للحياة .

الابل ، وأثمانها .

قابلنا اليوم رجلاً من (الرولة) وحيداً مع اثنتي عشرة ناقة ما بين حولية وذات سنتين ، اشتراها من شمر .

وكان يسوقها متجها إلى موطنه . لقد دفع بين ٢٥ – ٣٥ مجيديا في الواحدة منها ، ولكنها كانت حيوانات ضامرة هزيلة .

ان إبل نجد تكاد تكون كلها سوداء ، ومن درجة أقل بكثير في الحجم والقوة من إبل الشمال .

ولما صادفنا الرجل افترضنا في البداية أنه ربما كان عدوا ، لأن أي انسان هنا يحتمل ان يكون كذلك ، واندفع عواد رابط الجاش نحوه ببندقيته ، فأطار عنه صوابه وأحضره في صوت مرتعب ليقدم تقريرا عن نفسه . كان لا ضرر منه على الاطلاق ، أعزل من السلاح ، وقد قضي ثلاث ليال في (النفود) وحيداً كان معه قربة من الماء وجراب من التمر ، وكان ذاهبا إلى (نفيق) في طريق موحش وحيد .

في الساعة الثالثة والنصف (بعد الظهر) (مستوى ۳۰٤۰ قدما) وقع بصرنا على تلال (جبة) ، ومن نفس النقطة استطعنا تماما أن نرى (العُلَيْم) كانت مناسبة طيبة لتصحيح تخميننا ، وهكذا أخذنا الاتجاهات بدقة بالبوصلة ، وعلمنا أن طريقنا بالضبط في اتجاه الجنوب – بشرق .

بدأوا « يصلون » !

واليوم بدأ المسلمون منا يؤدون صلواتهم ، لأول مرة أثناء الرحلة إن خلال النفود ، أو ربما الشك في الوصول إلى جبة ، ربما يكون جعلهم حاذقين ، أو ربما الأمر مجرد أنهم يريدون أن يتمرنوا من أجل نجد ، حيث تسود الوهابية ،

وحيث الصلاة أمر محبوب مرغوب – أيا كان السبب ، فمحمد على قمة الكثيب يركع ويسجد مستقبلا مكة بمظهر كبير للجد والاهتمام ، وعواد يتلو صلوات بطريقة أكثر تأثيراً ، يرفع صوته تقريباً إلى حد الانشاد .

أثناء الحديث حول نار المخيم ، يخبرنا راضي أن النفود يمتد مسافة ١٢ رحلة يوما إلى الشرق من حيث نحن الآن ، و ١١ يوما إلى الغرب ، وعلى طرف الجانب الغربي تقع (تيماء) ، واحة كالجوف ، حيث توجد بئر عجيبة ، أحسن بئر في جزيرة العرب .

خطر العواصف الرملية :

سألناه عن العواصف الرملية ، وعما إذا كانت قد دفنت قوافل .. فقال . انها لم تفعل . ان الرمل لا يدفن قط أي شيء دفنا عميقا ، كما نستطيع أن ندرك من العصى والعظام وبعر الابل التي تبقى دائما على السطح . إن الخطر الوحيد على القوافل هو ان العاصفة تستمر طويلا إلى حد أن تنفد مؤنها لانها لا تستطيع السفر عندما تكون شديدة .

أما عن السموم ، أو الريح السامة التي يتحدث عنها المسافرون ، فهو لم يسمع أبداً . مع أنه قد ظل يسافر في النفود جيئة وذهابا لمدة أربعين عاماً .

أما عبدالله فيقول : إنه سمع عنها في (تدمر) ، كشيء يتكرر حدوثه . الا أن أحداً منهم لم يمر في تجربة معها .

ليلة هادئة.. ولكنه يوم شاق

١٨ يناير (١٨٨٠م).

ليلة هادئة مع ضباب خفيف ، صقيع أبيض في الصباح .

يبدو ان كشافاً أو جاسوساً من شمر كان حول مخيمنا في الليل . لقد رآنا بعد الظهر ، ولقد زحف في الظلام ليكتشف من كنا . ظن في البداية أننا غزو ، إلا أنه عرف بعد ذلك صوت راضي ، وعلم اننا مسافرون في طريقنا الى ابن رشيد . جاء الينا في الصباح وأخبرنا هذا ، وأنه خرج في حملة كشفية للبحث عن الكلأ في (النفود) . بدا نوعاً ما خائفاً وحريصاً على أن يرضينا ، وأكد لنا مراراً وتكراراً أن محمد بن رشيد سيبتهج برؤيتنا .

كان يوماً آخر شاقاً بالنسبة للجمال . انهار (شنوان) ولم يستطع أن ينهض بعبء حمله ، وكان على حنا ، مثل سائر الرجال ، أن يمشي لأن ذلوله تسلم نفسها للتعب .. يبدو ان الرمل يصير أعمق فأعمق ، ومع أننا قد سرنا من الصباح حتى الغسق ، فما زلنا على بعد ١٠ أو ١٥ ميلاً من (جبة) لولا التلال التي نراها أمامنا كل مرة نصعد قمة أية موجة ، لما كان هناك أمل من جهدنا . كل واحد جاد هذه الليلة .

اضطرار الى السير .. رأفة بالجمال !

١٩ يناير (١٨٨٠م).

نوم مريح بالنسبة للجمال والرجال . فقد رفض كل من ذلول حنا ، و (شنوان) ، والبعير الطويل الذي يسمونه (عمود) ، رفضت عليقها البارحة ، لأنها كانت في درجة من العطش لا تستطيع معها أن تأكل ، وهي اليوم لم تستطع أن تتحمل أي شيء .. و (شكران) أيضاً ، الذي كان حتى الآن من أحسن مشاتنا سار في المؤخرة ، ولم تزد سرعة سير القافلة إلا قليلاً عن ميل في الساعة . ولولا القوة غير العادية لـ (حذيران ؟) الجمل العملاق الذي يقود الموكب ، والذي تراكمت عليه معظم الاحمال الاضافية ، لكان علينا أن نستغني عن كثير من ممتلكاتنا . حقاً ، ففي لحظة واحدة بدا كما كنا سنبقى جميعاً في النفود ، مضيفين فصلاً جديداً لفصول الرعب التي حكاها راضي الشيخ .

والآن ، وقد هربنا من مصير كهذا ووصلنا (جبة) نستطيع أن نرى كم كنا محظوظين .. ولولا الطقس الكامل للسفر طول عبورنا (للنفود) والحظ غير العادي لتلك العاصفة لما كنا الآن في (جبة) .. ان الرمل بالنسبة لجمال متعب مثل السجن ، وفي الرمل كنا سنبقى .

لقد سلك محمد وعبد الله وكل الباقين سلوك الأبطال ، حتى حنا الشيخ ، بضفائره البيضاء الزائفة المتدلية من تحت كوفيته (غترة) ، لأنه قد اختلط سواد شعره بالبياض أثناء الرحلة . وقدماه حافيتان ، لأنه كان مستحيلاً أن يسير بالحذاء .. (حنا) بحالته هذه ظل يدب بشجاعة ورباطة جأش كأقوى قوي في الجماعة .

كنا (ولفرد) وأنا ، الوحيدين اللذين ركبا في كل حال ، باستثناء (حنا) الذي أرغمه (ولفرد) على ركوب مهره بين وقت وآخر ، وكنا أكآب الجماعة . أحسسنا بالضيق لعدم مقدرتنا على أن نسير على أقدامنا مع الآخرين ، ولو أننا سرنا بين وقت وآخر ، أو على الأصح ، خضنا في الرمل ، حتى أجبرنا على أن نركب من جديد لافتقارنا إلى التنفس والقوة . أي منا لم يكن ليستطيع أن يواصل المسير على الأقدام ، غير أن الاوربي ليس نداً حتى لعربي من المدينة في مسألة السير .

اليوم كان (نقل) – طريق -- [أبو زيد] يمكن اقتفاؤه بشكل مميز ، ونبدأ نفكر في أن الأمر قد لا يكون بأجمعه خيالا (رومانس) . ان هناك أخاديد منتظمة في بعض الأماكن ، وان « الحل » (الطريق) كثيراً ما يكون واضح الأثر وضوحاً حسناً لمسافة نصف ميل كامل .

ويؤكد لنا راضي أنه يوجد طريق مبني بالصخور تحت

الرمل ، صخور أحضرت من جبل (شمّر) ، وأخشى أن أقول ، بتكاليف وأية تكاليف من الجمال والرجال الذين ماتوا في العمل .

لاحظت اليوم صقراً وصرداً أغبر .

وثعلبّان قد مرا على طول الطريق : كا يستطيع المرء أن يرى من آثار أقدامها والخدوش على الرمل .

معالم واحة « جبة » بدأت :

ان مستوى النفود كان يرتفع طول اليوم ، وفي الساعة الواحدة (بعد الظهر) كنا على مستوى ٣٣٠٠ قدم فوق سطح البحر .

من هذه النقطة اتسع المنظر أمامنا في اتجاه الجنوب ، رمل ، ما زال كل ما هنالك رمل لأميال كثيرة ، كثيرة ، إلا أن أمامنا على بعد قريب مجموعة من الجزر قد طال اتجاهنا نحوها ، تلك هي صخور جبة . لم يكن أقربها على بعد ميلين. لم نكن نستطيع أن نرى أي شيء من الواحة ، لأنها كانت على الجانب الآخر من التلال ، ولكننا استطعنا أن نميز فضاء واسعاً خالياً من الرمال ، بدا كالسبخة ، وما وراء هذا مجموعة من الصخور على مسافة أقصى ذات تخطيط بالغ الروعة وهي تنبثق مرتفعة من الرمال .

وهذه تلال نجد !!

كان المنظر يشبه منظر نهر جليدي كبير في (الألب) . وكا وراء هذا مرة اخرى ، امتد خط أزرق شاحب من التـــلال . (جبل شمر .. تلك هي تلال نجد) . هكذا قال راضي .

كان ذلك هو ما قطعنا الابعاد الشاسعة من أجل ان نراه .

اسرعنا الآن لنصل الى الصخور ، وبلغناهــــا في الساعة الثالثة والنصف (بعد الظهر) كانت لها نفس الخصائص التي لـ « العليم » ، الحجر الصلد والرملي .

هنـــاك رسم (ولفرد) خارطة ، وصنعت أنا رسماً تخطيطياً .

وانتظرنا حتى أتت الجمال ، خلناها قطاراً كثيباً لما نظرنا اليها من قمة تلنا الصخري وهي تمر أسفل منا .

وني في الجمال . ورجل جراد ؟

كان (شنوان) و (عمود) يسيران في عناء وليس عليهما غير الشداد) فقط .

وكانت الذلول السوداء المسكينة ، وهي مجردة تماماً ولا

تكاد تقوى على المشي ، متخلفة بخمسين ياردة ، يحثها عبدالله على السير .

كان ما زال أمامنا بضعة اميال نسيرها حتى نصل (الجبة) ، ولكن على ارض أكثر صلابة مع انحدار التل .

واقترح محمد ان نسبق نحن الثلاثة ، ونهيء مكانا للجمال في القرية .

وفي طريقنا رأينا ما حسبناه سحابا من الدخان يسير من الغرب الى الشرق ، ومرت مؤخرته فوقنا . وجدنا انه كان سرباً من الجراد في الطور الأحمر من حياته ، وهو ما يفضله القوم هنا للأكل ، ولم نهتم بالتوقف الآن لنجمع منه ، واندفعنا في سيرنا .

الوصول الى (جبة) !

كان الوقت عند الغروب تقريباً حينما رأينا لأول مرة (جُبَّة) نفسها ، أسفل منا في طرف جبة السبخة ، بنخيلها ذات الخضرة الغامقة تشق البحيرة الجافة ذات الزرقة الشاحبة ، وما وراء ذلك مجموعة من الصخور تبرز من (النفود) الوردي اللون ، وفي صدر الصورة كان رمل أصفر يتوّجه العادر .

بدا المنظر بأكمله مزخرفا بأضواء المساء ، وجميلا جمالا يفوق الوصف .

القسم الرابع

من « جُبّة » الى « حائل »

(هذا هو الفصل التاسع من مشاهدات الكاتبة وانطباعاتها، عن ربوع « نجد » وعن حياة أهلها في ذلك الوقت .

وفيه تقـــدم الكاتبة تقريراً إضافياً عن بعض الحوادث التاريخية عن الحكم الرشيدي ، كما سمعتها من أفواه الرواة في ذلك العهد) .

(جبة) القرية الجميلة الغريبة !

جبة : من أغرب الاماكن في العالم ، ومن أجملها، كما اعتقد واسمها ، وهو يعني بئرا ، يشرح موقعها، فهي تقع في تجويف أو بئر في النفود ، ليس في الواقع فلجا ، لأن حوض جبة ذو مقاس يختلف تماماً ، ولا يشبه في شيء الانخفاضات التي تأخذ شكل حافر الحصان ، التي سبق لي ان شرحتها . وهو ـ على حد سواء ـ فريد للغاية ، ومن الصعب تحليله من الناحيـــة الجيولوجية كما هو الامر بالنسبة للافلاج (جمع فلج) . وهو فضاء عاري في محيط من الرمال ، وعلى انخفاض ٤٠٠ أو ٥٠٠ قدم تحت معدل المستوى ، ويبلغ عرضه ثلاثة اميال تقريباً وهو في الواقع غور ، لا يختلف عن غور الجوف ، الا ان النفود من حواليه بدلا من مرتفعات الصخور الرملية .

وهناك من الدلائل ما يشير الى انه كان بحيرة ، فهنـــاك علامات مائية واضحة على الصخور التي برزت من قراره فوق

المدينة مباشرة وغريب ان نقول : ان هناك حديثاً ما زال باقياً يقول: ان الماء وجد هناك فيا مضى. والعجيب هو كيف بقي هذا الفراغ خالياً من الرمل . أية قوة تلك التي تضع سوراً دون النفود وتمنع اكتساحه ؟ وعندما تنظر عبر السبخة - او قرار البحيرة الجاف - يبدو النفود كسور من الماء من المحتم ان يغرقها، ومع ذلك فلا تنتقل الرمال الى الغور، وتبقى حدودها مضبوطة بدقة .

وصف البلدة وسط بنيانها :

والمدينة نفسها (او القرية ، لان فيها ٨٠ بيتاً فقط)مبنية على طرف السبخة ، ٢٨٦٠ قدما فوق سطح البحر ، وفيها بساتين النخيل ، من نفس النوع الذى رأيناه في الجوف ، انما على نطاق صغير جداً . والابار التي تسقي هذه منها هي على عمق ٧٥ قدماً ، وتمتح منها المياه ، كما هو الحال في كل الابار في بلاد العرب، بواسطة الجمال. والقرية بهيجة جداً، بأسوارها ذات المشارف (المتاريس) وبساتينها . وعلى المدخل تقف ست شجرات أثل قديمة جميلة ، ذات جذوع ملتوية واغصان ريشية . ومن فوقها تنتصب الصخور عظيمة كالابراج ، وهي من الصخر الرملي بلون ارجواني ، ذي خطوط وجذوع صفراء ووجه علوي أسود. وارتفاعها بين ٧٠٠ و ٨٠٠ قدم. وقواعدها مخططة بعلامات مائية قديمة . ووجد (ولفرد) عليها عدداً

من النقوش بالحروف (السينائية) وتكتنف (جبة) هذه التلال ، وشريط من الرمل الاصفر .

ولنكتف بهذا عن الوجه الخارجي لجبة . أما داخلها فأقل جاذبية . فالمنازل فقيرة ، والعناية بأناقتها أقل منها في (كاف) و (أثري) . ويصعب ان اصفها بالقذارة ، لأن القذارة في هذا الاقليم الرملي تكاد تكون مستحيلة . إنها احدى مباهج النفود ، ان الحشرات المؤذية غير موجودة في انحائها .

خلو نجد من الحشرات المؤذية

فالنفود ، ونجد – حقاً – الواقع خلف النفود ، خاليان من هذه المخلوقات التي تجعل من الحياة عذابا في أقاليم أخرى من الشرق . حتى البراغيث التي كانت على كلبنا السلوقي ماتت بمجرد دخولها في دائرة الرمال الحمراء الساحرة . غير ان (جبة) سوف تكون قذرة لو استطاعت .

سكان البلدة وأخلاقهم

وسكانها أقل تهذيبا من كل العرب الذين رأينا في نجد . والواقع ان الناس فقراء جداً وليس لهم أي اتصال بالعالم الخارجي ، الا عندما يتوقف المسافرون ، وهم نادرون ، بين

حائل والجوف لبلة بينهم . وعند مرورنا بجبة كان الشيخ قد مات مؤخراً ، وحل محله شاب ، لم تكن له أية سلطة على أقرانه الشبان ، وهم مجموعة كثيرة الصخب (قليلة الجدوى). وليس لابن رشيد ممثل خاص في (جبة) ، ولم يكن يسند الشيخ الفتى (نايف) أي ممثل للحكومة المركزية ، حتى شرطي واحد ..

في ضيافة امير (جبة) :

وكانت النتيجة أنه رغم ضيافة نايف لنا بكرم بالغ ، الا ان اصدقاءه ازعجونا كثيرا وجعلونا نشعر بعدم ارتياح غير قليل . وأورد هذا كمثل فريد لعدم المدنية في بلد ، الأدب فيه هو القاعدة في الغالب الأعم .

لا يحتاج أسلوب ضيافتنا في بيت نائف إلى ذكر خاص ، من حيث أنه لايختلف بأية حال عما لقيناه في أي مكان آخر. كان هناك كثير من القهوة ، وحديث كثير . ففي أي مكان من بلاد العرب ، ما على المرء الا ان يدخل أي بيت يرغب . ويكون واثقا من أنه سيرحب به فيه . فحجر القهوة تظل مفتوحة طيلة اليوم ، ووصول ضيف اشارة لهذين الشكلين من اشكال (التسامح) اللذين لا يعرف العرب سواهما ، القهوة والحديث ، والنار موقدة دائماً ، وفناجين القهوة تدار في

الحال . حادثة نادرة واحدة أثناء مقامنا في (بجبة) جديرة على اية حال ، بالذكر .

قلق (محمد) الدليل واسبابه :

فقبل أيام من وصولنا هناك ، بدا على محمد انزعاج كبير كلما برزت مشكلة ، مقابلة عرب في الطريق ، أو التعرف على أناس ، وهو الذي كان لا يبالي عادة بأخطار الطريق . لقد صرفنا عن النظر حولنا بحثاً عن الخيام أكثر من مرة ، وعندما قابلنا الرجل الوحيد مع الجمال والرجل الذي سميناه جاسوساً أجاب إجابات قصيرة على استفساراتهما عن من نحن ؟ وعن الجهة التي نقصدها . ولم يبد أي إيضاح لسبب قلقه حتى مساء وصولنا إلى (بجبة) . وعندئذ اتضح أن (راضي) ذكر أثناء الحديث اسم شيخ ما ، من شمر (ابي رمال) وقال انه يعيش في تلك الجهات ، وتذكر محمد أن شيخاً بذلك الاسم غزا (تدمر) منذ سنين كثيرة . دار قتال وقتل رجل أو اثنان من شمر ، وكان هذا كافياً ليسبب احتمالاً كبيراً ان الثار بين عائلته وآل (ابي الرمال) لم يسو بعد ومن أجل ذلك توسل إلينا الا نذكر اسمه في (بجبة) إذ أنه هو وعبد الله من اهل تدمر . وصار السبب أقوى لأنه اكتشف ان (نايف) مضيفنا ، كان نفسه قريباً لآل أبي الرمال ، وكان من حسن الحظ ان (تدمر) لم يذكرها أحد بعد اثناء الحديث . وفي

المساء جاء إلينا وهو متألق جداً ، ليخبرنا بأنه لم يعد هناك أية حاجة لنظل تحت توقع الشر . فقد استطاع بعبقرية أن يجر الحديث مع ثانف إلى الموضوع الذي شغله ، وعلم أن الثأر قد اعتبر منتهياً . فمحمد بن رشيد كان ، قبل أن يصير شيخاً لشمر ، أميراً للحج أيام أخيه طلال ؛ وهو مركز يخلع على صاحبه شرفاً ويدر له ربحاً ، وبصفته تلك تعرف على كثير من أهل تدمر في الأماكن المقدسة ، وعندما فاز بشياخة شمر كان قد ألف بينهم وبين قومه . فهو اما قد دفع الدية بنفسه أو ضغط على أبي الرمال ليتنازل عن الانتقام ، وأعلن أن الثأر قد انتهى. وأياً كان السبب الذي جعل الأمير يسعى لاقرار هذا السلم ، فقد كانت من ملابسات الحظ بالنسبة لنا ، ومحمد وثانف الآن من أحسن الأصدقاء .

وفي صباح مغادرتنا جبة (مكثنا هناك ليلتين) ، قص ثانف على محمد ، وهو يودعه ، حلماً غريباً رآه تلك الليلة ، قال: انه ذهب لينام وهو يفكر في الثأر القديم، وفي نومه ظن انه سمع صوتاً يعيره أنه أهمل واجبه في الانتقام من الرجل الذي كان ضيفه ، ووقع تحت هم كبير للتعارض بين واجب الانتقام وواجب الضيافة ، ولذا نهض من نومه يتحسس بحثاً عن سيف ، ووجد نفسه يفعل هذا عندما استيقظ . ثم تذكر أن الثأر قد انتهى، وقال : الحمد لله!. وذهب لينام من جديد. وقال لمحمد في نهاية القصة : أي شيء فظيع كان سيقع ، لو

أجبرت على قتلك ، انت ، ضيفي !. وزعم محمد لنا أنه حتى إذا لم يكن الثأر قد سوى ، فان (ثانف) ما كان ليفعل أي شيء ضده ، بعد أن أكل وشرب معه في بيته . وعلى الأقل ، هكذا ستكون القاعدة في (تدمر) ، ولو ان الأخلاق في نجد قد تكون أكثر صرامة .

مكثنا ، كما قلت ، ليلتين فقط مع (ثانف) .

اطفال غير مؤدبين

وكان شباب القرية فضوليين ومزعجين ، وكنا مجبرين على أن نثير ذلك مضيفنا وهو أمر غير مستحب ، ولكنه ضروري في بعض الأحيان . وأستطيع أن أقول أنهم لم يقصدوا ضرراً ولكن طباعهم كانت سيئة ، وكان في نغمتهم شيء مـــا عدواني تقريباً عن (النصراني) وكان من الملائم أن يكبح .

ويسرني أن أقول ان هذه هي المرة الوحيدة التي رأينا فيها إشارة الى الدين غير سارة في بلاد العرب . فالعرب بطبيعتهم متسامحون الى اخر درجة في هذه النقطة ، والتعصب القومي أو الديني نادر للغاية .

تصرف بسبب القلق !

وعلى أية حال فقد جعلتنا هذه القصة الصغيرة قلقين نوعاً

ما على استقبالنا المحتمل في حائل . فلم يتوغل اوروبي واحد ولا مسيحي من أي جنس قبلنا كما توغلنا في جبل شمر ، وكل ما عرفناه عن النـــاس والبلاد كان استحضاراً لتقرير المستر (بلجريف) عن زيارته تلك البقاع متخفياً منذ ستة عشر عاماً . وعلى اساس ما عرفنا ، فابن رشيد قد يكون ميله الينا بنفس الدرجة من السوء التي كان عليها ميل هؤلاء (الجبيين) وكان الواضح أننا بدون رضاه وحمايته ، نخاطر مخاطرة عظيمة في دخول حائل . كنا قد عبرنا الصحراء الحمراء ، ولم يكن الرجوع ممكنا وكان لا يمكن ان نفعل أي شيء سوى ان نضفي وجها جبلا على الاشياء وتتقدم في طريقنا .

من تاريخ (آل رشيد)

استجوبنا (راضي) عن طبيعة الاحوال في حائل ، وقد اضع هنا كل المعلومات التي اعطانا اياها كما ثبتها وجمعها الرواة المتعاقبون . لقد استقينا الحقائق الاساسية منه .

أكد (راضي) ، بالدرجة الاولى ، في عبارات عـــامة التقارير التي كنا قد سمعناها عن تاريخ عائلة ابن رشيد

(عبد الله) المؤسس الاول

فعبدالله ابن رشيد ، وكان مجرد (زلمه) في ذلك الوقت ،

من فخذ عبدة من قبيلة شمر ، خـدم مع آل سعود اصحاب أعالي نجد ، وعينه الامير الوهابي نائباً في جبل شمر ، وكان محارباً عظيماً . واخضع كل البلاد للنظام بمساعدة اخيه عبيد البطل الرئيسي في تراث شمر .

(عبيد) الرشيد

لم نسمع شيئاً عن عبيد يؤكد قصص الشر التي ذكرهـا (بالجريف)[1] . وبالعكس لقد ترك سمعة عظيمة بين العرب،

---

(١) مما ذكر بلجريف عن (عبيد الرشيد) :

[بدأنا نقول له – لزامل أمين الخزينة عند الأمير طلال – اننا نرغب في مقابلة « طلال » لنطلعه على أمور ذات أهمية بالغة . وبعد أن أشعرناه بعض الشيء بسرنا ، اطلعناه على الحقيقة الكاملة ، وسألناه رأيه في الاقتراحات التي كنا مزمعين أن نقدمها للملك (طلال ابن رشيد) . فعين لنا موعداً للمقابلة، وادخلنا عند الفجر من باب سري، إلى غرفة منعزلة، يقوم بحراستها عبيد سود ، ويقف بعيداً عنها حراس مسلحون، لا تصلهم أصوات المتكلمين فيها ، فألفينا طلال مستعداً للاستماع الي" .

وقد شرحت له باختصار أسباب رحلتي ، واطلعته على المكان الذي أتينا منه ، والأمل الذي حدا بنا للمجيء ، إلى بلاد العرب ، وما فنتظره من حسن التقائه .

وتلت ذلك محادثة استغرقت ساعة كاملة . واختتم طلال الحديث مصراً على التكتم المطلق قائلاً : « إذا ما عرف الأمر الذي تباحثنا فيـه الآن ، أصبحت حياتكم وحياتي في خطر » .

وتتألف لحة القصة من حادث عرضي سببه عبيد عم طلال المكار الذي كان يتظاهر بالمودة واللطف ، والذي نزع عن وجهه القناع ذات يوم ليظهر وجهه الرهيب :

←

لكرمه ومروءته ، وشهامته ، وهي الفضائل الثلاث الرئيسية في معتقد العرب .

— وأوقف عبيد ، الطلق ذات صباح ، أثوم تفحص خادم له مصاب بمرض ، فتوجهت إلى قصره ، فما عتم أن كشف عن حقيقة نياته ، بعد محادلة قصيرة ، وقد أقبل عيناه على رؤيته ، وعن الحقد والغضب عن ، وداعته وكلامه المعسول ، وأخذ يكيل الاتهامات للمجددين والنصارى — الذين يريدون أن يدنسوا طهارة الاسلام . ثم التفت نحونا وقال :

« كونا من تكونان ! ولكن اعرفا هذا ! إذا ما أرغمني ابن أخي ، وشبه الجزيرة العربية كلها ، الخروج عن الاسلام ، سأظل أنا بمفردي مدافعاً عن معتقدات أسلافنا » .

ثم شعر عبيد أنه ألمع في غضبه فعاد إلى لهجته اللطيفة وحديثه الودي ، كأن الشك لم يتسرب قط إلى نفسه — ولكنا كنا قد رأينا منه الكفاية ، فقطعنا معه علاقاتنا كلياً .

أرسل طلال عمه عبيداً في مهمة حربية ، ومع ذلك فقد تلطف هذا الأخير بإعطاء بلغريف كتاب توصية إلى أحد العمه السعوديين في الرياض ، وربما من الحرف تقلب على أصول اللياقــة ، في قلب (بلغريف) الحذر ، فقد فتح الكتاب ، فوجد أن عبيداً قد نعته بتحت يبكي فيه على دحوين ، ولكن يقلب معنى الساحر فيه على الطبيب ، والسحر في الرياض يعاقب عليه بالموت ، فعرف أن ذلك الماكر يريد أن يدفع به وبرفيقه إلى سيف الجلاد .

عندئذ وصل جواب طلال ؛ بعــد أن أبعد عبيد أخذ طلال يشعر بالحرية .

فدعــا في السادس من شهر أيلول (سبتمبر) للذهاب الى « حضرة زاملي ؟ » في الساعة الواحدة من بعد الظهر ، وقد كان قد أقيم حارس على الباب لابعاد الزوار المزعجين ، ولم تنقض عشر دقائق على حضورنا حتى أقبل « طلال » يخفره حارسان مسلحان تركهما في الفناء . كان عــادي الثياب ، جدي النظرات ، أكثر من العادة ، بيد محياه عن الشفاف إلى شديد . فجلس وصمتــه

ولم يكن يوماً ما اميراً بالفعل لجبل شمر ، ولكنه ، بعد موت اخيه ، حكم البلاد في الواقع وكان هو الذي أشار بتحطيم الجيش التركي في النفود وعاش الى ان طعن في السن . ومات منذ تسع سنوات فقط ، و بعد ان اصابه الشلل من الخصر فما تحت ، بضعة اشهر قبل موته . ويحكى عنه انه لم يترك مالاً ، بعد ، بعد ان وهب كل شيء اثنــاء حياته — لم يترك مالا سوى سيفه ، ومهره ، وزوجته الشابة . ترك هؤلاء لابن أخيه محمد ابن رشيد ، الامير الحاكم . مع رجاء ان سيفه يجب ان يبقى مغمداً ، والا يركب مهره ، والا تتزوج ارملته الى الأبد . واحترم ابن رشيد رغبتي عمه الاولى والثانية ، غير انه ضم زوجة عمه الى حريمه .

طلال بن عبد الله

مات عبدالله بن رشيد عام ١٨٤٣ ، وخلفه في مشيخة شمر

ـــه بعض الوقت ، ولم نشأ أن نفسد ذلك الصمت . وأخيراً رفع نظره ، وحدق في عيني وقال : « لن تسألني في هذه الظروف الحالية ؛ ولن أكون من قلة التبصر في درجة أعطي فيها جواباً ايجابياً رسمياً على مخابرات كمخابراتك . على اني اؤكد لك ، انا طلال ، مؤازرتي وارادتي التي لا تتزعزع . تابع رحلتك الآن ، وعندما تعود ، وآمل ان لا تبطيء في العودة ، سيصبح كلامك قانوناً ، وسيتحقق كل ما تريده . هل أنت راضي ؟ » فقلت له : ان جوابه قد حقق لي رغباتي ، وتصافحنا علامة للتحالف المتبادل » .

[من كتاب اكتشاف جزيرة العرب ص : ٣٠١ / ٣٠٢]

ونيابة حائل ابنه طلال ، الذي اتخذ لنفسه لقب امير . وجعل نفسه مستقلاً تقريباً عن الحكومة الوهابية . ولا يدور هناك كلام كثير عن طلال في حائل الآن. فقد ترك قليلاً من السمعة التي كان المرء يتوقعها من تقرير (بالجريف) عنه .

وفي زمانه فتح اخوه وخليفته متعب الجوف و(اثري)، واسم متعب يتردد ذكره اكثر من اسم طلال . ومنذ اثني عشر سنة اختلت قوى طلال العقلية وانتحر . لقد طعن نفسه بخنجره .

متعب بن عبد الله

وترك خلفه عدة ابناء اكبرهم بندر ، واخوين : متعب ومحمد ، الى جانب عمه عبيد ، وكان شيخاً طاعناً في السن آنذاك ، وعدة أعمام .

وكان بندر في ذلك الوقت غلاماً ، فخلف متعب طلالا بموافقة كل الاسرة وعلى أية حال لم يحكم متعب غيرثلاثةأعوام، وبموته المفاجىء الى حد ما .

بين محمد بن رشيد وبين بندر بن طلال

ثار نزاع بالنسبة لمن يخلفه . فمحمد ، الذي كان يشغل منصب امير الحج لعدد من السنين ، كان بعيداً عن حائل ،

يرتب امراً يتعلق بمنصبه مع ابن سعود في الرياض ، وبندر ، كان في العشرين من عمره ، اعلن أميراً . وعاضدته الأسرة كلها الا محمد وحمود ، اكبر ابناء عبيد ، الذي تربى مع محمد كأخ له ، ولما سمع محمد بهذا ، غضب . وقعد – كما اخبرنا راضي – اياماً كثيرة وكوفيته (غترته) على وجهه كما لو كان في حزن ، ورفض ان يتكلم مع أي إنسان. بقي في الرياض ، يرفض كل عروض بندر ودعواته حتى اذا مات عبيد ، قبل الرجوع الى الرياض ، واستئناف عمله كأمير للصبح . عاد اليه هذا المركز بالكثير من النقود ، وكان مغرماً بالنقود ، الا انه ظل يتآمر من اجل الشياخة ، يدبر الدسائس مع (الشرارات) وغيرهم من البدو الذين تحت حكم بندر . وبهذه الطريقة انتهى الى اشباع طموحه .

كيف استولى محمد على الحكم ؟

حدث ذات يوم او قافلة من (الشرارات) جاءت الى حائل لشراء تمر ، ووضعت نفسها تحت حماية محمد بدلا من الامير ، أغضب هذا بندراً ، فاستدعى محمداً وسأله عن معنى هذا الصلف : « هل أنت الشيخ أو أنا »؟ ثم امتطى مهره ، وانطلق مهددا بمصادرة جمال (الشرارات) ، فقد كانوا مخيمين تحت أسوار حائل . الا ان محمداً تبعه ، وثار نزاع عنيف بينهما فاستل محمد (شبريته) (وهو خنجر معقوف شائع

الاستعمال في نجد) ، وطعن ابن اخيه ، الذي سقط ميتاً في الحال . وعاد محمد مسرعاً الى القلعة ، واستعان بمحمود ، الذي وجده هناك ، واستولى على المحل . ثم قبض على ابناء طلال الصغار ، اخوة بندر ، جميعاً ، ما عدا طفلاً واحداً ، نائف ، وبدر ، الذي كان بعيداً عن حائل . وقطع رؤوسهم بأيدي عبيده في بهو القلعة . ويقولون: ان حموداً احتج على هذا. غير ان محمداً إما انه كان طائشاً او انه رغب ان ينشر الرعب ، ولم يكتف بما قد فعل ، بل مضى في تحطيم أقاربه .

كان له بعض ابناء عم ، هم ابناء جبر ، وهو اخ اصغر لعبدالله وعبيد ، فارسل اليهم . وأتوا الى القلعة منزعجين الى حد ما ، ومع كل واحد منهم عبده . كانوا جميعاً شباناً ، جميلي المنظر ، وعلى درجة عالية من التميز ، وكان عبيدهم قد ربوا معهم ، كما هي العادة ، فهم كالاخوة أكثر منهم كخدم ادخلوا الى مجلس القهوة ، واستقبلوا برسمية بالغة ، من قبل خدم محمد بدعوتهم الى الدخول . والعادة في حائل ان الزائر قبل ان يجلس ، يجب عليه ان يعلق سيفه على احد الاوتاد الخشبية المثبتة في الحائط ، وهذا ما فعله ابناء جبر ، ومثلهم فعل عبيدهم ، ثم جلسوا ، وانتظروا وانتظروا ، ولكن لم تقدم قهوة . واخيراً ظهر محمد محاطاً بحرس . ولم يكن هناك « السلام عليكم » . وفي الحال امر بالقبض على ابناء عمه وتقييدهم ، فاندفعوا نحو سيوفهم ، ولكن عبيد القلعة اعترضوا سبيلهم ، واسروهم . ثم امر محمد ،

بعبربرية فظيعة فظيعة ، بقطع ايديهم وارجلهم ، ثم سحبهم ، وما زالوا احياء ، الى فناء القصر ، حيث طرحوا حتى ماتوا.

قسوة وحشية ، وكرم ، يعقبان أمناً

ويبدو ان هذه الجرائم الشاحبة شحوب الموت (وهي اكثر شحوباً في بلد سفك الدماء المتعمد فيه غير معتـاد) — يبدو انها قد نشرت الرعب في طول البلاد وعرضها ، ولم يجرؤ اي امرىء منذ ذلك الوقت ان يرفع يداً ضد محمد. ويقال الآن انه نادم على جرائمـه ، و « غاضب على نفسه » بسبب ما اقترف . غير ان راضي يرى ان السماء على الأقل غاضبة بالمثل ، فمع ان محمد تزوج مراراً وتكراراً ، فانه لم ينعم عليه بولد ، ولا حتى ببنت ، وعلى أية حال ، وبصرف النظر — عن البداية السيئة ، فان حكمه ، مع شدته ، قد كان صالحاً. فالاشخاص الآخرون الذين كابدوا الموت ، مع استثناء واحد ، هم قطاع الطرق ، وهؤلاء يضربون الآن عن حائل في نطاق ثلاثمائة ميل. ويمكن للمسافر ان يتجول في أي جزء من الصحراء بأمان واطمئنان ، دون مضايقة ، وكذلك لا يوجد لصوص في المدن ايضاً . وقد جعل جبل شمر مستقلا بصفة نهائية عن الرياض. وقد قاوم محاولة او اثنتين من قبل الترك لابتلاع امارته وهو سخي بالنسبة للجميع ويمارس كرماً لا حدود له . ولا يطرد انسان من بابه ، فقيراً كان أم غنياً ، بدون طعام ، ونادراً

بدون هـــدية من الملابس او النقود ، والكرم في بلاد العرب يغطي الكثير من الخطايا . وبإضافة الى ذلك ، فالعرب ينسون بسهولة ، ومحمد نصف معفوّ عنه الآن . « الله يطول عمره » ! هكذا هتف محمد بعد ان قص علينا هذه التفاصيل .

بندر بن طلال .. يلحق بأخيه !

كان الاستثناء الوحيد الذي المعت اليه هو هذا . بعد عامين من نجاح محمد في الاستيلاء على المشيخة ، بدأت لحية بندر في النمو – وبندر الابن الثاني لطلال الذي نجا من مذبحة اخوته – وذلك في رأي العرب علامة الرشد ، ولأنه شاب ذو روح سامية ، ومبادىء عليا ، فقد عزم على الانتقام لموت اخوته ، وكان هذا بوضوح هو واجبه طبقاً لشرع العرب .

وكان وحيداً ، بلا عون سوى بعض عبيد من عبيد أبيه السابقين ، الذين عاد الى بيتهم في حائل سراً ، وبمساعدتهم رسم خطة للانقضاض على محمد ذات يوم وكان يزور حمودا ولو كان وجد الامير لجرد سيفه وقتله ، ولكن ، كما حدث ، كان محمد قد خرج الى الحديقة ، ولم يكن حاضراً سوى حمود . سأله حمود عن مراده ، فقال : إنه رغب في الحديث الى الامير . غير ان حمودا شك في شيء ما ، فاحتجزه وحذر الأمير . وعندما اعتقل بندر وعرف ، استجوب مرة اخرى ، وعندئذ

اعترف بنيته في الانتقام لموت اخيه بندر ، وانــه لن يكف عن ذلك .

ويقال ان محمدا توسل اليه ان ينصت الى العقل ، وعرض عليه ان يطلق سراحه ، اذا كان سيقتنع ويترك الامور لشأنها وقال : « لا اريد ان اسفك دماء اخرى ، ولكن عليك ان تعدني ان تغادر حائل » . ولكن الفتى رفض ، واخيراً وفي يأس امر باعدامه

أما العبد الذي رافق بــدر فلم يمس بسوء . ولقد صرفه محمد بهدايا ، وهو الان يقيم في راحة في (السماوة) على الفرات .

نائف بن طلال .. ماذا سيكون مصيره ؟ !

وبعد هذه الحادثة ارسل محمد ، ويبدو أنه احس بالندم من جراء شروره ، ارسل الى نايف وهو البقية من ابناء طلال وكان ما زال صبياً ، ليعيش معه وعامله كابنه . ومنذ سنة فقط بعد أن رأى نمو الصبي نصحه بالزواج عارضاً عليه احدى بنات أخيه ، ومهيئا له مسكنا . ولكن الصبي – كما يقولون – رفض . وقال : « ماذا ؟ انك ستعاملني كما تعامل خروفا أو جديا ، تسمنه قبل أن تذبحه ! » بكى محمد وتضرع ، وأقسم أنه سيكون كأب لنائف ، ولا يزال يعيش ويعامل مبجلا في في منزل الأمير . والرأي في حائل مستقر على انه بمجرد مــا يرشد نائف ، فإما هو وإما عمه يجب ان يموت . سوف يكون

من واجبه ان يتابع بدرا في محاولته ، واذا لزم الامر أن ينتهي نهايته ..

كل هذا ، كما يمكن ان يفترض ، كان أي شيء الا ان يكون نبأ سارا بالنسبة لنا ، ونحن في طريقنا الى حائل . شعرنا كما لو كنا متجهين نحو عرين حيوان متوحش .

نسيم (نجد) (وجمر) الجبل . ونار

الارطى !

وفي نفس الوقت كان أمامنا ، على أية حال ، أربعة أيام ، أربعة أيام من الراحة ، ومن الهدوء الذي تمنحه الصحراء وحدها ، واتفقنا على التمتع بها حتى النهاية . هناك شيء ما في هواء نجد ، كفيل بأن يبهج حتى إنساناً مُداناً ، وكنا بعيدين عن ان نكون مدانين .

من المستحيل أن تحس حقاً بأنك مغموم ، أو قلق حقا ، مع شمس ساطعة كهذه ، وهواء نقي منعش كهذا ، قد نحس بوجود خطر ، غير أننا لم نستطع أن نحس بتوتر .

نذرنا لياليتا الثلاث الأخيرة في النفود للمرح ، نار ضخمة من الأرطى ، نجلس حولها في ضوء النجوم الواضح ، نتمتع

بالتمر الذي اشتريناه من (نجبة) ، والعاب المهارة والقـوة بين الخدم .

وسوف أقدم مذكرات يوم واحد ، الثاني والعشرين من ينـاير .

(لقد كنا نخوض في الرمال العميقة طول اليوم على مهل ، بكثير من الغناء والعبث بين الرجال ، فنحن لم نعد الآن على عجل .

قربنا من مدينة (حائل) .

يبقي فقط يوم واحد حتى نصل إلى (قنا) ، أول قرية في جبل شمر . والجمال ولو انها متعبة ، لا خطر عليها الآن من الانهيار ، وعندها ثروة من حشائش النصي لترعاها ، وقد بدأت خصلات الحشائش الآن تطلق براعمها الجديدة . والنفود هنا واسع كما هو دائما ، والافلاج عميقـة أيضا ، ومررنا بأثر لبقرة وحشية ، قبل أقل من ساعة من توقفنا .

وفي الثالثة والنصف صادفنا راعيا يسوق أربعين رأسا من الضأن إلى سوق حائل . وهو شيـخ من شمر ، من آل (الراهس) ، رأينا خيامه اليوم بعيدة في الشمال الشرقي ، وهو ينوي ببيع قطيعه على الحجاج الفرس الذين يتوقع وصولهم حائل اليوم . ويقول : إن الحجاج في طريقهم من مكة ؛

وسيمكثون أسبوعا في حائل . من يدري فقد نسافر معهم ؟ والاغنام ، التي ظننتها لأول وهلة ماعزا ، مخلوقات هزيلة طويلة الأطراف ، ذات شعر حريري طويل ، ليس صوفا ، ينمو متدليا حتى حوافرها ، وآذان ملساء بندولية ، ووجوه ناعمة ، وجلودها سوداء حالكة ، ورؤوسها بيضاء ذات بقع سوداء حول العينين، والانف تبدو كما لو كانت شربت حليبا . وهي لا تشبه الضأن كما يمكن ادراك ذلك من الأطراف والذيل والوجه . ولكن لها ميزة هي مقدرتها على الحياة على (الغاذر) [1] شهرا بدون ان تحتاج إلى ماء ، ويخيل لي أنها خاصة بنجد . كانت هذه المقابلة علامة للتوقف لمشاهدة فلج [2] صغير مدهش ، اتساعه كاف ليحتوينا رمط حوش من النصير .

انزلقنا بجيادنا منحدر الرمل ، وتبعتها الجمال بينما كان محمد يساوم الراعي على أسمن خروف في القطيع . هنا حططنا رحالنا ، وفي عشر دقائق اخرى كانت الجمال مبعثرة على جوانب التل ، فقد كان هناك تل رملي بالقرب منا ارتفاعه على الأقل مائة قدم وكان ابراهيم – القصير – قد عين ليراقبها

---

(١) نوع من الشجر .

(٢) تعبير الكاتبة بكلمة فلج عما يطلق عليه في نجد اسم (جيئة) وهي الأرض المنخفضة بين كثبان الرمال ، التي يطلق على واحدها دعص .

بينا شغل الآخرون بإقامة المخيم . وكان يوجد حطب وافر ، كتل بيضاء جميلة تشتعل كأعواد الكبريت .

منظر رائع .. جبال وتلال تذكر بأسبانيا :

صعدنا إلى قمة التل لنرى الجهات المحيطة بنا من البلاد ، لأنه يوجد هناك منظر رائع لجبل شمر ، لا قمة منعزلة هناك ، كما ظن (كولفيل) في السنة الماضية ، بل سلسلة طويلة من الجبال الرائعة ، تمتـد بعيداً إلى الشرق والغرب ، تذكر الانسان إلى حد ما (بسييرا جوداراما) في أسبانيا . وهناك أيضاً عدة قمم بعيدة متميزة عن السلسلة الرئيسية . وخلفنا ، في الشمال الغربي ، مجموعة (جبة)، مع متواليات إلى الغرب والجنوب الغربي . وإلى ناحية الشرق توجد نقطة واحدة — جبل (عطوى) [1] .

موقع مدينة (حائل)

وتقع حائل الى الجنوب الشرقي تقريباً ، مبنيـة في مرتفع

(١) الظاهر انها تقصد جبال (الطوال) وتقع في الشمال الغربي من حائل . أما جبل (عطوى) ، بفتح العين وسكون الطاء ثم واو مفتوحة ممدودة ، فبطريق الذاهب من حائل الى تيماء.

وعر قرب الطرف الشرقي لسلسلة جبل (اجا) ويبدو الأفق الشمالي ممتداً امتداداً فسيحاً أمام النظر . وبعد أن انتهينا من هذا ، نزلنا – نحن الاثنين – لنقيس قليجاً على بعد نصف ميل ووجدنا عمقه مائتين وسبعين قدماً ، وأرضه صلبـــة ، وعلى جانبه المستقيم الانحدار علامات منتظمة من آثار أقدام أغنام ، تبين مدى الثبات الذي يظل عليه سطح النفود ، لأن من الواضح ان الممرات الصغيرة ذات تاريخ قديم [1] .

وبعودتنا كانت قهوة (حنا) الطيبة معدة مع طبـق من الخبز والكاري ، لتهدئة الجوع حتى يغلي لحم الخروف . وكان (عواد) الذي يسره أن يقوم بعمل الجزار ، قد ذبح الخروف وسط مخيمنا . فالعادة أن تنحر على باب الخيمة ، وكان يلطخ الجمال بالدم ولما سألناه عن السبب قال: «سوف تبدو كما لو كنا قد دعينا الى وليمة ، وانه ليبدو دائماً حسناً أن يكون على جمل المرء رذاذ من دم » . وكان قد نصب ثلاثـــة من أعمدة الخيام ليعلق عليها الخروف ، وهو يجري الآن تقطيعه بصورة فنية حقاً . وابراهيم الطويل وعبد الله يجمعان كومة عظيمة من الحطب من أجل الليل . و (حنا) يستعد للطبخ . وقد كان (حنا) المسكين يجابه وقتاً عصيباً من جراء الطبخ ابتداء من

(١) استفهام – ألا يمكن أن تكون هذه هي العلامات الحلزونية التي لاحظها المستر (بلجريف) ، ونسبها الى فعل الريح ، في وصفه لدوامة ما في النفود ؟

(سكاكا) ، لأن على كل انسان أن يسير على قدميه الآن ، ويصر هو على المشي أيضاً « حتى يمنع المشاكل » كما يقول ، وربما يكون على صواب . فسيحي منتظم من حلب ، مثل حنا ، في بلد كهذه يحس حتماً بانكار ذاته وإزالة سلاح الغيرة ما لم يستطع المؤاخاة ، ويوحي في نفس الوقت بالاحترام ، ويبدو ان ابراهيم قد فعل ذلك . وحنا صبور ، ولا يشكو ، ويبادر الى الانبساط حين (يكايده) الآخرون ، ولو ان محياه يظل آسفاً . وأنا أبذل جهدي في حمايته ، ولكنه لا يحسر على أن يقوم من جانبه بنصيبه .

محمد « الدليل » .. وأسطورة « آل عروج »

وأخيراً ، فإن محمد يرفأ ثوبه ، استعداداً لظهوره في البلاط ، ويتحدث مع اثنين من (جبة) ، مسافرين معنا ، عن متاعب ابن رشيد ، وعظمة (آل عروج) ، وأسطورة (ابن عروج) ، ككرة الثلج ، تتجمع كلما تدحرجت . وإنا لنتوقع تماماً أن محمداً سيظهر في حائل في شخصية أمير . انه يتكلم عن نجد كأنها من ممتلكاته الشخصية . ويخلع جزءاً من الحماية علينا ، كما يفعل المضيف في تكريم ضيوفه . أما فزعه من (أبي الرمال) فقد

نسبه تماماً . وعلى أية حال ، كائناً من كان أميراً أو فلاحاً ، فلمحمد ميزة كونه دائماً حسن الطبع ، وانه لمسلٍّ هذا المساء ، فقد كان يحكي لنا تفاصيل تاريخ صلاته بحسين باشا في (الدابر) ، وهو ما لم نفهمه تماماً من قبل (وما لا أجرؤ على إعادتـــه بالتفصيل لئلا أسبب له المتاعب) . لقـــد ذهب الى السجن مرتين أو ثلاثاً ، ولكن يبدو أن (حسيناً) المسكين قد صنع منه غبي حزين ، وقدم لنا محمد أيضاً تقريراً كامـــلاً وصادقاً وغريباً عن موت أحمد بك موالي .

تفكير في مقابلة (الأمير) !

وعندئذ تباحثنا طويلاً في الطريقة التي سنقدم انفسنا بها في حائل . فمحمد سوف يقترح ان على (ولفرد) ان يقـدم نفسه كتاجر مسافر الى البصرة لاستعادة دين ، ولكن هذا ما لن نفصت له . إننا نرى إنه الأنســب والاكثر فطنة ان نكون صرحاء ، وننوي ان نخبر ابن رشيد أننا اشخاص ذوو مركز نبحث عن أشخاص اخرين ذووي مركز ، واننا قد تعرفنا بابن سمير وابن شعلان وكل مشايخ الشمال ، واننا في كل مرة رأينا رجلا عظيما ، وقد اخبرنا ان هؤلاء لم يكونوا شيئاً في الجلال بالنسبة لأمير حائل ، واننا عند سماعنا ذلك ، ولكوننا في طريقنا الى البصرة ، قطعنا النفود لنزوره ، كما فعل الناس في

ايام سلفت ليروا سليمان بن داوود ، وعندئذ نقدم هدايانا ، ونتمنى له عمراً طويلا

واضطر محمد الى ان يعترف ان هذه ستكون خطة افضل وهكذا تقررت .

ويظن (راضي) ، وهو الذي قد وثقنا فيه كثيراً أو قليلا ، ان الأمير سوف يسر ، ويعد بان يتغنى بمدحنا (تحت السلام) . ويتحدث عن القرنجي وهو بالفعل في حائل، وبعد ذهابه من حائل يحمل نقوداً وملابس من ابن رشيد . أما من يكون ذلك ، فلا نستطيع ان نتصور ، لان (بلجريف) لم يكن معروفاً هناك كأوربي .

(سهرة) ممتعة .. في رمال (النفود) !

وهكذا تمهلنا الوقت حتى كان العشاء معداً ، وحينما شعر الجميع بأنهم قد تمتعوا تماماً جاء محمد ليدعونا الى نادي الخدم حيث كانت تدور العاب القوى . وفي البداية ، يتمدد عبدالله على الرمل ، ويوضع (شداد) الجمل على ظهره ، ثم يوضع خرجان عظيمان يزن كل منهما حوالي قنطار (١١٢ رطلاً) . وبهذا كله يكافح ليقف على ركبتيه ، ثم يبذل جهداً مفرطاً ليقف على قدميه ، فيترنح خطوة وينكفىء . ويرفع محمد ،

وهو لا يجاري ابراهيم قصير ، يزن على الاقل ١٦٨ رطلا يرفعه من رجليه على راحته . ثم يصنعون دوائر كتلك التي تشاهد في « السيرك » .

انواع من اللعب..

ثم يلعبون نوعاً من العاب النطة بان يقفوا في صف، الواحد تلو الآخر ، وينط الاخير على اكتافهم ويجري حتى يأتي الى نهاية الصف، حيث عليه ان يدور واثباً ويستقر كيفما يستطيع على رأسه او كعبيه . وهذا مسلٍّ جداً ولا يؤلم احـــداً في الرمل العَميق

ويشترك الجميع الا (حنا) في هذه الرياضة البدنية ، غير ان عواد ، وهو بدوي المولد ، يسير في اللعب بوجه مصفر نوعا ما . فالبدو لا يلعبون قط العابا كما يفعل عرب المدن ، وليس لديهم القوى العضلية التي للآخرين . وعلى أية حال ، فقد انتقم عواد لنفسه بأن اخفى قليلا من الجمر في الأرض بشكل مموه وبين آونة وأخرى يطأ شخص ما على هــذه الفخاخ بقدميه الحافيتين ، فتكون هناك صرخة . وتسلية كبرى تسبب أيضا بأن يرسم (ولفرد) اللعبة القديمة بالدوران على الرأس ثلاث مرات مستقرا على عصا قصيرة ثم محاولة المشي على خط مستقيم . ويعتبر هذا مضحكا جداً ،

وهم عموما يريدون ان يقعوا فوق (حنا) ، وعندما يحملونه يحاولها يرتبون ان يجري إلى النار .

وأحسن لعبة ، في رأيي ، هي شيء ما يشبه تلك التي يلعبها البحارة ، احيانا في سطح المركب . فيضعون عباءاتهم جيعاً في كومة واحدة، وعلى رجل واحد أن يقوم بحراستها. ثم يرقص الجميع حوله ، ويحاولون ان يسرقوا الملابس بدون ان يمسوا .

وإبراهيم طويل عظيم في هذه الرياضة ، وهو يدافع عن الكومة بيديه الضخمتين ورجليه ، مسددا ضربات شديدة نحو من لا يأخذ حذره ، محرزا - كما التخيل - كثيراً من الدرجات

ويتلقى عبد الله بشكل خاص - وهو غير محبوب من البقية بسبب سوء طبعه - يتلقى ضربة نظيفة على رجليه بركلة كما تركل كرة القدم تقريبا .

وتكاد تنشب معركة . غير ان عواد الحاذق يحول الموقف بأن يسرق بندقية ، ويطلق النـــار فجأة من أعلى الفلج ، ويتدحرج على الرمل ليمثل غزوا وهكذا يمر المساء ، وعندما نعود إلى مخدعنا الخاص نشاهد شفق البروج في غرب السماء للمرة الأولى » .

كانت هذه آخر ليلة لنا في النفود ؛ ومثلت ذكراها لنا كمقاس لسعادتنا ، حين كنا حبيسي الجدران في حائل ، أو مسافرين في أراض أقل إثارة للسرور .

الوصول الى (قنا)

وفي اليوم التالي بلغنا (قنَـنَا) [1] ، أول قرية في جبل شمر ، والجبال نفسها بعد ذلك بيوم ، (الجبال السعيدة) التي ظلت طويلا هدف حجنا .

ذكريات رائعة

٢٣ يناير : (١٨٧٩ م)

انه لحلم أن نجلس هنا ، نسجل يوميات على صخرة في جبل شمر . وحينا أتذكر كيف قرأت ، منذ سنوات تقرير بلجريف (الرومانتيكي) الذي لم يصدقه أحـد ، عن دولة مثالية في قلب بلاد العرب ، وعن أرض سعيدة لم يرها أحد سواه ، وكيف بدا كل ذلك مستحيلا وغير حقيقي ، وكيف سمعنا ، مؤخراً أثناء سفرنا ، عن نجد وحائل وجبل شمر هذا نفسه ، يتحدث عنه بنوع من الرهبة كل من سمع باسمه ، حتى البدو ، ومنذ اليوم الذي أجاب فيه في حلب السيد س، عن أسئلتنا الغامضة عنه بقوله : « من الممكن الذهاب إلى هناك . لم لا تذهبون ؟ » .

---

(١) قنى – بفتح القاف والنون بعدها الف مقصورة ، ومن عادة سكان تلك الجهة ان ينطقونها باسكان القاف (قنا) وبهذه الصورة كتبتها الرحالة .

واني لاشعر اننا قد انجزنا شيئاً ما لا يتاح لكل واحد ان يفعله .

لا بلد يشبه «جبل شمر»

ويصرح (ولفرد) انه سيموت الآن سعيداً ، حتى لو قطعت رؤوسنا في حائل . وانها لقاعدة مطردة ومفضلة لديه ان كل مكان هو مثل اي مكان آخر تماماً ، الا جبل شمر فلا شيء يشبهه ، على الاقل فيما شاهدت في هذا العالم ، الا ان يكون جبل سينا ، وهو اجل من ذلك .

وصف قرية (قنا)

كل رحلتنا اليوم كانت قصة خيالية (رومانس) . مررنا ببلدة (قنا) في الصباح الباكر ، وتوقفنا فقط لسقي حيواناتنا . وهي قرية صغيرة جميلة ، تشبه (جبة) ، على طرف الرمال ، ولكنها تملك ما تفتقر اليه (جبة) ، حقول مربعة من الشعير الاخضر لا تحيط بها اسوار . وهذه طبعاً بفضل الري ، الذي شاهدناه يجري اثناء انتظارنا من بئر كبيرة ، ولكنهم يخلمون عليه منظراً زراعياً اكثر من احراج النخيـــل المسورة التي شاهدناها حتى الآن .

وبعد (قنا) مباشرة جئنـــا الى (صلبة) وفي انشراحنا تغاضينا عن امهارنا في مرح وخيلاء ، كان من أثرها ان أزالت تصلب اقدامها وتركت أثراً حسناً فيها .

التربة .. والنباتات «وجبل سينا»

وكانت التربة بجمدة بجبال، وثابتة ، مكونة من قـــاع (جرانيتي) رقيع ، مختلف تماماً عن تكوين الصخر الرملي في (جبة)و(الجوف). والنباتات تغيرت هي ايضاً فالارطى والعاذر ونباتات النفود الاخرى اختفت ، وحل محلها اعشاب أتذكر اني شاهدتها في وديان جبل سيناء ، مع اشجار صغيرة احياناً من فصيلة (السنط) تعرف لدى الحجــاج بـ (عليقة موسى) – طلح في العربية – وايضاً نبات ذي اوراق غليظة خضراء عديم السوق تسمى « غيشة »[1] يقولون انه طيب العيون . وبين آونة واخرى كانت تبرز صفاة متوحدة ، كلها من (الجرانيت) الأحمر ، في السهل ، أو مجموعة صغيرة من الصخور المستديرة ، ومنها افزعنا عدداً من الارانب البرية .

روعة معالم جبل شمر :

وكان المنظر من أمامنا جميلاً يفوق الوصف ، سهلاً كامل

(١) لعل الكاتبة تقصد نبات (الجلاء) أو (الجلاوء) كما يسميه بعض البدو.

الاستواء ، بتدرج في الارتفاع ، ومنه تنبثق هذه الصخور والتلال كجزائر ومن ورائه الجبال القرمزية اللون قريبة منا الآن ، ذات طرف منيف كان هادينا لعدد أيام ، تشمخ على الجميع . ان معالم جبل شمر لها روعة غريبة : ترتفع مكونة ذرى وقبابا وقننا ، تاركة هنا وهناك كوة تستطيع من خلالها أن ترى السماء ، أو صفاة عجيبة جاثمة وكأنها صخرة تتدحرج على خط السماء . وكانت احدى الصخور في شكل جمل ، وانها لسوف تخدع أي شخص لا يعلم أن أي جمل لم يكن في استطاعته أن يتسلق إلى هناك .

وفي الساعة الواحدة والنصف (بعد الظهر) عبرنا أولى الكتل الصخرية المنفصلة التي تنتصب كقلاع خارج حصن ، ثم مبتعدين إلى اليسار ، وصلنا كتف التكوين الرئيسي التلال ، وترتفع هذه بغتة من المسطح الناعم المنحدر للسهل ، خلافا لجبال معظم البلاد ، بدون فاصل من الأرض المتكسرة . جبل سيناء (الطور) هو الجبل الوحيد الذي رأيته كهذا . وفي كلتا الحالتين تستطيع ان تقف على السهل وتمس الجبل بيدك . فقط على مسافات من شقوق في التلال تجري وديان ، مبينة ان المطر ينزل أحيانا في جبل شمر . وحقا ، من المحتمل ان نجد الليلة برهانا على هذا لأن سحابة عظيمة سوداء ترتفع خلف القمم ناحية الغرب ، وبين آونة وأخرى يدمدم الرعد . كل شيء في خيمتنا محكم ، ومؤمن ضد المطر .

وتوجد وهدة في الصخر بالقرب من المكان الذي خيمنا فيه ، وفيهـا صهريج طبيعي مملوء بأنقى ماء . ولم نكن لنكتشفه لولا الراعي الذي جاء معنا اليوم ، لأنه مستور بعيد تحت بعض الصفا (الجرانيتية) المعلاقة ، ولتصل اليه عليك أن تزحف خلال كوة في الصخور ، وينمو عدد من النباتات البهيجة في وسط فجوة ، ورأينا زوجا من الحجل ، وهو طير ملون صغير بمناقير صفر .

جماعة من «شمر» ورجل من «حرب»

مررنا بجماعة صغيرة من بدو شمر ، ينقلون مخيمهم اليوم . وكان مع أحدهم باز صغير على ذلوله (الأكثر احتمالا طائر حر). ولم يكن معهم خيل ، ولم نعثر على أثر لحصان ، منذ أن تركنا (الشقيق) [١] .

نسيت ان اقول أننا رأينا امس بدوياً من حرب ، رجلا صغيراً قبيح الوجه ، أخبرنا أنه يرعى غنما للامـير . وحرب قبيلة تحتل الاراضي المجاورة للمدينة ، ولها سمعة شريرة بين الحجاج .

٢٤ فبراير (١٨٨٠م).

عاصفة في الليل ، ارسلنا « راضي » في الصبـاح الباكر

---

(١) الشقيق ـ بفتح الشين بعدها قاف مكسورة منهل ماء بين حبة والجوف .

بخطاباتنا الى حائل، لأنه لم يبق علينا أن نسير الا بضعة أميال.

كان صباحاً جميلاً، ولكن..

كان صباحاً جميلا بعد المطر ، والطير تغرد في الايكات تغريداً حلوا ، غير اننا جميعاً أحسسنا بقلق . حتى محمد كان صامتاً ومنشغل البال ، لأنه لا أحد يعلم ما قد تأتي به أية لحظة . وعلى أية حال ، فقد ارتدينا أحسن ملابسنا، وحاولنا أن نجعل جيادنا تبدو أكثر تأنقاً .

وكنا توقعنا أن نجد « حائل » على الجانب الاخر من التلال غير أن هذا كان غلطة . وبدلا من عبورها ، ظللنا على طول الطرف ، نميل تدريجياً نحو اليمين ، والأرض ما تزال تعلو . وسجل (البارومتر) في المخيم ٣٣٧٠ ، وهو الآن يسجل علامة الجدار مائتي قدم .

(اللقيطة) و (الوقيد) من قرى حائل

مررنا بقريتين هما اللقيطة [1] والوقيد تقعان على بعد ميل إلى يسارنا ، ومن احداها انضم إلينا بعض الفلاحين متجهين إلى حائل على حمير . وبدا هذا أكثر تحضراً من كل ما قد

(١) اللقيطة بفتح اللام وكسر القاف والوقيد بفتح الواو وكسر القاف .

رأينا منذ أن تركنا سورية . وقد بدأنا نصبح قلقين ومتعجلين لنتيجة رسالتنا ، حين ظهر (راضي) وأعلن أن الأمير قرأ خطاباتنا ، وانه سيسره أن يرانا . وأمر باعداد منزلين من أجلنا ولم يبق شيء نقوم به أكثر من أن نركب إلى المدينة ونقدم أنفسنا في القصر .



القسم الخامس : في بلاط ابن الرشيد

(في هذا الفصل - وهو العاشر من المجلد الأول من الكتاب - تتحدث الكاتبة عن مشاهداتها في مدينة حائل في قصر الأمير محمد بن رشيد .

ومما يؤسف انها لم تتح لها الفرصة للاختلاط بسائر مجتمعات المدينة - كما أتيح لها في القصر - ولو قدر لها ذلك لرسمت صورة رائعة عن الحياة الشعبية في ذلك الوقت).

وصف مدينة حائل

... ولما أتينا الى قمة مرتفع رأينـــا فجأة حائل تحت أقدامنا ، على بعد ليس اكثر من نصف ميل . والمدينة لبست بصفة خاصة مؤثرة في النفس . فمعظم بيوتها تخفيها النخيل ، والسور الذي يحيط بها ارتفاعه أرفع قليلاً من عشرة أقدام . والبناية الوحيدة الهامة التي أمكن رؤيتها كانت قلعة كبيرة قريبة من مدخل المدينـــة ، هي قصر ابن رشيد . ولن انسى الانطباع الذي اخذني حين دخلت المدينة من نظافة الجدران والشوارع الخارقة للعادة ، والذي يكاد يعطي جواً خيالياً .

في قصر الامير محمد بن رشيد :

وكان استقبالنا في قصر الامير هو ما تمنينـــاه . وحين ركبنا متجهين الى بهو القصر قابلنا حوالي عشرين رجلاً حسني الهندام . مما جعل دليلي يهمس : (أولاد الامير) اوكان في وسطهم يقف رجل مهيب ، في ملابس قرمزية ، ولحيـــة في

بياض الثلج ، وهمس الدليل (الامير) ! حينئذ وأشار الشيخ الينا بالدخول . ثم علمنا ان هؤلاء هم خدم الامير ، وأن الشيخ خادمه الخاص . ومرور خلال مدخل ملتو مظلم ، من الواضح أنه شيد بهذا الشكل بغرض الدفاع ، ثم انحدرنا الى ممر مظلم ، تقوم على جانب منه أعمدة تذكر الانسان بمدخل معبد مصري قديم . ونقر أحد الخدم على باب منخفض ثم فتح الباب ووجدنا أنفسنا في حجرة الاستقبال . وبدت أنيقة باتساعها ــ ٧٠×٣٠ قدماً ــ وبصف من السواري الخمس ، وبضوء الغرفة فتحات مربعة صغيرة قريبة من السطح . ولم يكن في الغرفة أثاث سوى أوتاد خشبية قصيرة لتعليق السيوف . ودعينا الى الجلوس وتبودلت كلمات لطيفة وتردد السؤال عن صحتنا أكثر من عشرين مرة ، مع ذكر اسم الله دائماً لان هذا يتطلبه الادب في نجد ودار الحديث مع القهوة ، ثم وقف الجميع ومرت عبارة : الامير قادم ! . ووقفنا نحن وحقاً لقد كان الامير في هذه المرة ، دخل الامير على رأس جماعة في ملابس أكثر أناقة من أولئك الذين قابلناهم في البداية .

سلمنا على الامــــير ، وأبدى سروره لمجيئنا ... ودار الحديث . وبدا لي ان كل شيء على ما يرام الآن ، ولم يعد هناك شيء نخشاه . ومع ذلك فلم استطع أن أمنع نفسي من أن أنظر بين الفينة والأخرى الى تلك الأوتاد على الحائط . وأن افكر في قصة (أبناء جبر وعبيدهم) الذين قتلوا غدراً في نفس هذه القاعة وبيد نفس هذا الرجل ، مضيفنا

وصف الأمير

وللأمير وجه غريب . وقد يكون شعورنا بجرد وهم . أوحت بـــه الينا معرفتنا بحياة ابن رشيد السابقة ، ولكن ملامحه أعادت إلى ذاكرتنا صورة (ريتشارد الثالث) وجه نحيل ، ووجنات شاحبة غائرة ، وشفتان دقيقتان ، مع تعبير عن الألم ، الا حينما يبتسم ، ولحية سوداء خفيفة وحاجبان معقودان أسودان ، وعينان رائعتان - عينان عميقتان ونفاذتان ، كعيني صقر ، ولكنها أبداً تتنقلان بملل من وجه أحدنا الى آخر ، ثم إلى وجوه الذين بجانبه . لقد كان نفس النموذج لوجه واقع تحت وخز الضمير ، أو تحت الخوف من مغتال ، ويداه أيضاً طويلتان ، يشبهان مخلبين ولا تستقران لحظة ، تعبثان بسبحته ، أو بأهداب عباءته عندما يتحدث . وبكل هذا بدا الأمير متميزاً في مظهره طويلاً ، كل جزء منه يعبر عن ملك .

ابن رشيد في مجلس حكمه :

وبعد حوالي ربع ساعة سار الأمير . ثم جاءت منـــه رسالة يرجونا أن نحضر مجلسه ، وهو مجلس القضاء الذي يعقده يومياً في بهو القصر .

وفي البهو، وهو حوالي (١٠٠ × ٥٠ من الأقدام) انتظم في صفين من جميع جهاته جنود، ليسوا كالجنود الذين تراهم في أوروبا، انهم ما زالوا جنودا بالمعنى لهذه الكلمة. واستطعت أن أعد الى الـ ٨٠٠ منهم.

وقعد الأمير على مقعد مرتفع يحيط به أصدقاؤه، وبالذات ابن عمه حمود الذي يصاحبه في كل مكان يذهب اليه، وعبده المفضل مبارك، الذي من واجبه حراسة الأمير من المقاتلين - والخطر على حياة محمد هو بسبب ما اراقه من دماء، لا بسبب مركزه، فهو كأمير، محبوب من قبل رعاياه — .

ويتقدم الناس بعرائض ويقوم حمود بقراءتها ويتولى الأمير ختمها. ولاحظت أنه وإن كان رجال البلاط يخاطبون محمدا بلقب الأمير،فأن الفقراء- وقد يكونون من البدو - يخاطبونه بلقب شيخ أو باسمه المجرد. وتقدم أيضاً بعض الحجاج الذين لهم مظالم، ونظر في قضاياهم باختصار. لم تكن أية قضية تستغرق أكثر من ثلاث دقائق، وفي نصف ساعة انتهى كل شيء.

بيت للضيافة

اعد لنا بيت مزدوج في الشارع الرئيسي، على بعد لا يزيد عن مائتي متر من القصر. كان كل شيء في غاية البساطة، ولكن

في حالة انيقة ونظيفة وأحسسنا أخيراً بعد عناء الرحلة بالراحة ولكن على أية حال ، لم يكن وقت راحتنا قد جاء، ففي أقل من ساعة منذ وصولنا الى منزلنا ، استدعانا الامير مرة أخرى .

جولة في داخل القصر

وكان الاستقبال في هذه المرة خالصاً في الحجرة العليا ، ومع الامير كان حمود فقط . وكنا قد أحضرنا هدايا للأمير ، وشعرنا بالخجل ونحن نقدمها لتفاهتها ، اذ لم يكن لدينا مفهوم عن المركز الحقيقي لابن رشيد ، ونحن في دمشق .

في الحديقة :

نهض الامير للصلاة، وبعد أن عاد أقترح أن يرينا حديقته ومررنا في ممرات ملتوية ، وأبهاء ، وأبواب حتى وصلنا الى حرج نخيل . وهنا انضم الينا بعض العبيد ، سود وبيض ، وكلا اللونين موجود في حائل . كان هناك عدد من الغزلان وزوج من الوعل، وكان أكثر ما يجذب الانتباه مما في الحديقة ثلاث بقرات وحشية من النفود . ثم قادنا الامير خلال باب منخفض الى حديقة أخرى ، حيث توجد أشجار الليمون ، والترنج والرمان

اصطبل الخيل :

ثم زحف الامير من خلال باب منخفض وتبعناه لنجد أنفسنا في اصطبل مملوء بأناث الخيل ، كل مربوط الى مذود . ويحتوي هذا الاصطبل على عشر فرساً ، وخلفه اصطبل آخر يحتوي على نفس العدد ، وثالث فيه ثمانية خيول ، وخلفه اخر فيه بين ثلاثين واربعين مهراً . وباشارة نبيلة قال الامير بسخرية : هذه هي خيول عبيدي !! وبالرغم من تواضع الامير فهذه هي خيول ابن رشيد المشهورة والممثلة لمقتنيات فيصل بن سعود التي نسج حولها الخيال .

المطبخ :

وفكر الامير في مشهد ليس أقل اثارة لاهتمامنا ، هو مطبخه . وهنا وبفخر لا يخفى ، عرض الامير قدوره واوانيه خصوصاً سبعة قدور هائلة ، يمكن لكل واحد منها ، حسب تقدير الامير ، ان يتسع لثلاثة جمال . وعدد منها كانت بالفعل في حالة استعمال ، لان ابن رشيد يستقبل يومياً مائتي ضيف ، الى جانب أهل المنزل . وقائمة الطعام اليومي أربعون خروفاً أو سبعة جمال. وعندما خرجنا وجدنا العدد العديد من الطاعمين يتجمعون . كل غريب في حائل له محل على مائدة ابن رشيد ، وعند الغروب يبدأ البهو بالامتلاء .

من صفات ابن رشيد

توطدت صداقتنا مع حمود وعائلته. وهو رجل يوحي بالثقة من البداية. ويقال إنه يرفض دائماً أن يتقبل هدايا من الأمير، ولم يوافقه قط على سلوكه، ولو إنه سانده سياسياً ويخدمه باخلاص كامل. وصفاته ممتازة كصفات أي رجل يمكن أن يوجد في العالم، والى جانب ذلك فهو ذكي، ومطلع. أما الأمير فمختلف عنه وكان من المستحيل أن أنسى القصة المرعبة لاغتصابه للسلطة وهناك شيء آخر أيضاً، عنه جعل من المستحيل أن أحس براحة في حضوره فرغم أنه يحسن السلوك بكرامة، فانه لا يفعل ذلك دائماً. ومن الصعب التوفيق بين عاداته الصبيانية، أحياناً، وبين مقدرته التي قد برهن عليها إن فيه من صفات الطفل المدلل في تنقله من موضوع الى آخر وفي سؤاله أسئلة ثم لا ينتظر ليستمع الجواب، قطعة من سوء الطباع ليست جميعها غير ملكية، وربما كان هذا من أثر كونه أميراً ذا سيادة وهو ايضاً مغرور بسذاجة، كمعظم الناس الذين يتغذون دائماً على التملق، وهو في انتظار متصل للثناء على قوته وحكمه وممتلكاته. وغيرته من المشايخ الكبار الذين رأيناه يكشف عنها بطريقة صبيانية. أما حمود فليس فيه شيء من ذلك. وإني لاتخيل أنه يقف بالنسبة الى ابن عمه محمد الى حد ما في المركز الذي وقف فيه «موروني» بالنسبة الى

لويس نابوليون ، الا أن « موروني » لم يكن رجلا طيباً ولا سيداً رقيقاً كحمود .

ان « حمودا » يقدم النصيحة للأمير ، وفي المجالس الخاصة يبدي رأيه بصراحة انه بالنسبة للعالم الخارجي فقط يبدو كالتابع الذليل للأمير .

عن الامير حمود :

ولحمود عدة أبناء ، أكبرهم ماجد في السادسة عشرة يحوز كل سحر طباع أبيه ، وله الى جانب ذلك جاذبية الشباب الودود ، والجمال المثالي . و« ماجد » هذا الفتى الذي يبدو غلاماً ، متزوج ، وتعرفت بزوجته (رقية) ، وهي جميلة صغيرة القد ، صغيرة السن . وهي احدى بنات متعب ، وأختها زوجة لحمود .

في زيارة حريم القصر

استأذنت من الامير في زيارة زوجاته وبعث من يخبر السيدات ليتهيأن لاستقبالي . ومر وقت طويل قبل أن يعود الرسول بالجواب . واني لأتخيل ان السيدات هنا قلما يعتنين بهندامهن ما لم يردن عرض ما لديهن من حرير وجواهر على زائر ما . وفي مناسبة كهذه يتفنن في زينتهن ويستغرقن وقتاً طويلا في ذلك .

و (عمشا) الزوجة الاولى للامير يمكن أن تميزها بين جمهرة من النساء الاخريات ، فلها مظهر ممتاز ، وطباع تكشف عنها في أي مكان كانت ، وحقاً لقد غطت على كل من عداها. وهي ابنة عبيد وأخت حمود ، لها كل حق ان يكسف نورها صديقاتها ، وقريباتها ، وضراتها . وكانت (دوشة) و (لؤلؤة) الزوجتين اللتين حضرتا ، ترتديان ثيابا موشاة بالذهب مثل ثيابها ، عليهما نفس الزينة التي عليها . لكن (عمشا) الى جانب ذلك كانت ذكية ومسلية ، وقادرة على أن تجعل الحديث متصلا ، بينما قلّ أن غامرت احدى الاخريين في الاشتراك فيه ، وتقاسم (لؤلؤة) و (عمشا) امتياز عدم مغادرة المدينة ، وبذلك تتقدمان على (دوشة) التي يقع على عاتقها أن تتبع خط زوجها في الصحراء حيث يقضي جزءاً من السنة ، والتزام كهذا يعتبر حطاً للكرامة وبالتالي لا تتقبله سيدات حائل .

وجلسنا ، وقبل مضي وقت دخلت (عيطا) وهي فتاة صغيرة حلوة ، قدمت لي على أنها الزوجة الرابعة ، ولكنها بدت كزوجة للمستقبل أكثر منها زوجة بالفعل . ويبدو أنها الآن قد جيء بها لمجرد النظر اليها واختبارها ، وأن الأمير قرر أن يرفضها باعتبارها صغيرة إلى درجة الطفولة . وفي الواقع كان الأمير يفكر بحلف مناسب يكسبه عضداً سياسياً بجانب الزيادة في الراحة المنزلية . عرفت أهدافه هذه من فمه

من خلال أسئلة عن بنات بعض شيوخ البدو ، اللواتي في سن الزواج . وأثناء بقائي معهن ، جاء الأمير مرتين ، وفي كل مرة يظهر على الباب تقف له جميع النساء الحاضرات وزوجاته ، ولا يعدن للجلوس إلا بعد أن يذهب ، باستثناء (عمشا) فهي تبدي الخنادة أو اشارة كما لو كانت على وشك النهوض ثم تظل في مكانها بجانبي .

بينما يقف الأمير أمامنا يتحدث ، وفي الغالب كان يوجه حديثه إلي ، ويتكلم بطريقته المشهورة ، الصبيانية تقريباً ، التي يتكلفها أحياناً ، استفسر عن رأيي في زوجاته هل هن أكثر جمالاً وسحراً من زوجة ابن شعلان (عبوشة) أخت الحميدي ابن مشهور أو من زوجته « ابن شعلان » السابقة ، (تركية) بنت جدران ، التي تركته وعادت إلى خيمة ابيها . وفي الاثنتين والأربعين ساعة منذ وصولي إلى حائل ، كان الأمير قد سألني أسئلة كثيرة عن هاتين السيدتين ، وأنا الآن اجيب للمرة المائة بأن تركية كانت جميلة ولطيفة ، وان (عبوشة) كانت أجمل ، ولكنها متغطرسة جداً غير أنه كان مصراً على المقارنة بين العائلتين ، وحسن الحظ ، وقد رأيت (عمشا) و (دوشة) و (لؤلؤة) و (عطوة) ، فقد كان في مقدرتي أن أقول بصدق انهن أظرف ، حتى (عبطا) الصغيرة المسكينة المحتقرة . ولكنه لم يطق أن تصنف (عبطا) مع الاخريات وقال : « أوه ، عبطا ، أنا لا أريدها ! انها لا تساوي شيئاً ! » .

تحليل لنفسية ابن رشيد :

ان شخصيته ، كما قلت ، مزيج غريب من المقدرة الخارقة والبصيرة السياسية من جهة ، والميل إلى إضاعة الوقت والتفكير في تفاهات حمقاء ، إذا كانت هذه الأشياء تمس غروره الشخصي ، من جهة أخرى . فعن مقدرته احكم بما رأيت من ملاحظاته المدهشة الى الغاية عن أمور جادة ؛ وكذلك بالمركز الذي استطاع أن يناله ويحافظ عليه . وأما عن طاقته فلا يستطيع أحد أن يشك فيها ؛ لأنه قد بان عنها اللاسف ، بمراحله ؛ ولكن تأكله الاحقاد الصغيرة الشخصية ، واني لاتعجب احياناً فيما لو كانت هذه الأشياء ستؤثر في سلوكه في أزمة سياسية هامة . وعلى أي حال ، فاني أظن أن في لحظة كهذه سوف تختفي كل صغائر الغرور ، لأنـــه ، فوق كل شيء ، طموح ؛ وغرور ، إنما هو جزء من طموحه . انه يغار شخصياً من كل الرؤساء ذوي الصيت ، لأن البطولة الشخصية ، هنا في بلاد العرب ، ربما كانت أبرز منها في أي مكان آخر في العالم منذ عهد الفروسية في تحريك القوى السياسية . ولا أشك في أنه سوف ينسى التحالف مع صطام ، إذا رأى ذلك ضرورياً ليصل الى غاياتـــه ومع ذلك فلم يستطع أن يقاوم رغبته في التحدث الي عن ابن شعلان في هذه اللحظة التي لم تكن مناسبة على الاطلاق ، أملاً أن يسمع شيئاً يحط من قدر منافسه .

واعترف اني وجدت الأمر محرجاً ان اكابد امتحاناً عن فضائل (عبوشة) و (تركية) بحضور زوجات محمد اللاتي اصغين بأعين مفتوحة ، وامسكن انفاسهن من شدة الانتباه . وازداد حرجي ، بعد ذهاب الامير ، عندما هاجمتني عمشا ، حالا ، من جانبها ، بطلقات من الاسئلة .

وبينما كان عندها الح في استفساراته ، الى ان فقدت صبري ، بعد ان وجدت نفسي محاصرة في زاوية ، وقلت متعجبة . « ولكن لماذا تسألني كل هذه الاسئلة ؟ لماذا تريد ان تسمع عن تركية ؟ وماذا يعنيك فيما اذا كانت جميلة ولطيفة ؟ انك لم ترها قط ، وليس من المحتمل ان تراها ! » فأجاب : « انني لم ارها قط ، ومع ذلك فاني اريد ان اعرف عنها شيئاً ، وان اسمع رأيك فيها . ربما يوماً ما قد احب ان اتزوجها . ربما آخذها بدلاً من هذه الفتاة الصغيرة ، مشيراً الى عبطا التي لن تصلح لي ، والتي لن آخذها انها لا تساوي شيئاً ، وكرر « انها لا تساوي شيئاً » . ووقفت عبطا المسكينة الصغيرة تنصت ، بعدم اكتراث بليد ، كما اظن ، لأني لاحظت محياها فلم استطع ان استنتج حتى ظلاً عابراً للندم او الاستياء . والحق ان بين جميع زوجاته ، عمشا هي الوحيدة التي بدت لي ان لديها شعورا شخصيا بالعطف نحو الامير .

وفي اللحظة التي ذهب فيها ، انهالت علي بالاسئلة : من هي تركية ؟ ، وادهشني انها لم تعرف ، فهي تعرف من هو الحُمَيدي

بن مشهور . وكان علي ان اشرح لها ان اخته غيوسة تزوجت صطام ابن شعلان ، وان اخبرها عن قصة زواج صطام الثاني ، وكيف ان غيوسة صممت على الخلاص من ضرتها ، فجحت في جعل الاخيرة غير مستريحة الى الدرجة التي كان عليها ان تذهب . ورفضت ان تعود منذ ذلـــك الحين . و (عمشا) بالتاكيد تحرص على ابن رشيد وظننت انها تخشى ان يؤتى بعنصر جديد للنزاع في العائلة . اما بالنسبة لمركزها فقل ان يتأثر بوصول زوجة جديدة ، فهي ، باعتبارها اخت حمود ، يجب ان تضمن لها مرتبتها ونفوذها ، والامير بشعوره بالذنب لن يجرؤ ، فيما لو رغب ، ان يستهين بها او بحمود ، الذي يدين بالكثير لنصرته .

في بيت الاميرين حمود وسليمان

ومن بيت عمشا ذهبت الى بيت زوجة حمود ، بنية بنت متعب ، ورأيت عندها رقية اختها زوجة ماجد بن حمود ، وزوجة اخرى لحمود . ولما سألت عن اسم ابيها اخبرت انها بنت احد الناس من شمر . وفي كل مرة اكرر سؤالي «من هو؟» يكون الجواب « واحد » - واخيراً كان الجواب « واحد فلان من حايل من البلاد » . انها لا تكاد تعتبر انهـــا تنتمي الى العائلة . والزوجتان الثالثة والرابعـة من الاقارب ، بنت طلال ، وبنت سليمان ، وهؤلاء الزوجـات الاربع صغيرات

الـسن . اما أم ماجد التي لم اسمع عن اسمها فقـــد ماتت منذ سنين ، وحمود مثل الامير يحتفظ دائمـــا بأربع زوجات .
و (زهوا) بنت طلال زوجة حمود جذابة ولطيفة وذكية ، ونحيفة .

وزرت عائلة سليمان عم حمود. وسليمان عرفته في البلاط، وهو يصبغ لحيته بالحناء ، ويحب الكتب ، ووجدته غارقاً بينها في غرفة الاستقبال عندما ذهبت لزيارة زوجاته . وكنت آمل ان محادثته ستكون مفيدة لولا انه بمجرد مـــا بدأ من الحديث، دخلت زوجته مندفعة يتبعها جمهور من النساء فجمع كتبه ومخطوطاته وخرج مسرعا .

و (قوت) زوجته أغبى شخص قابلته في حائل . وجاءت (زهوة) وهي زهوة اخرى، بنت سليمان تحمل طفلها . وكانت جميلة المنظر. ولكنها بدت تقريباً في نفس غباء امها واملالها .

كل مساء كنا متعودين أن نتلقى دعـوة من الأمير لنقضي المساء في مجلسه ، وكان هذا دائما أجمل جزء في اليوم ، لأننا نجد بعض الزوار الذين يثيرون الاهتمام. فتدور أحاديث شيقة، وذات مساء كان الأمير في غاية الانشراح عندما تلقى نبأ هزيمة صطام رغم أن رجاله كانوا أكثر عدداً. ولم يستغرب أحد أن ينتصر الجانب الأضعف لأنهم يعتقدون هنا ان « الهزيمة والنصر من الله » . ولما سألني الأمير ماذا أظن هل لصطام عقل ؟ أجبت: « أخشى انه ليس له نصيب كبير منه . إلا اني آسفة

من أجله . انه ضعيف ولا يعرف كيف يدير قومه . ولكن له قلباً طيباً » . وسألني : « وماذا تقولين في ابن سعيّد ؟ » فأجبت : « ان له من العقل أكثر مما له قلب » وسر الأمير . وقال : « آه يا خاتون أنت التي لك عقل .. والآن ماذا تقولين فيّ ؟ » فقلت : « إن لك عقلاً » .

فقال : وحمود ؟ فأجبت : كلكم هنا ذوو عقول ، طبعاً ، أكثر من البدو الذين معظمهم كالأطفال .

فقال : ولكننا بدو أيضاً .

قال هذا مؤملاً أن يجعلني متناقضة فيما قلت . فأجبت : « اني أحب البدو أكثر . وأن يكون للمرء قلب أفضل من أن يكون له عقل » ثم مضى الأمير في استجوابي عن الشيوخ الآخرين الذين يعرف أسماءهم .

قال : — من أحسن الذين قابلت ؟

. محمد الدوخي أذكاهم ، وفرحان بن هديب أكثرهم تهذيباً ، ولكن الذين احب أكثر هو قريبك في الجزيرة ، فارس الجربا .

وما أظن انه سر من هذا . وقال انه لم يسمع حسناً أو سيئاً عن ابن هديب ، وهو ينتمي إلى البشر . ولم يكن (أي الأمير) على وفاق مع أي من البشر باستثناء ابن مرشد الذي

زاره منذ سنتين . ان ابن رشيد تأكله الغيرة من كل من له أقل سمعة في الصحراء .

ولقد أدهشنا ، على أي حال ، ان نجده مطلعاً على كل شيء ، وعارفا عن كل انسان في أقصى الشمال ، ونحن مهتمون كثيراً ، من حيث انه قد حل لنا احدى المشاكل عن نجد التي طالما حيرتنا ، وتلك هي العلاقات التي ترعاها قبائل جبل شمر مع قبائل الشمال . فقد أخبرنا الامير ان شمر الذين في الجزيرة وشمر أتباعه يعدون أنفسهم أقرباء قرابة رحم وقال : « ان دماء خيولنا واحدة » .

عربي يرطن بالانجليزية

لم نكن قد تحدثنا طويلاً مع الامير وحمود حينما قدم الينا رجل سمين تبدو عليه الفظاظة وكان من الواضح انه ليس من حائل ، لأن ملامحه كانت غليظة . وطباعه شرسة . وتحدث بلهجة بغدادية قوية ، وكان يخاطبه كل فرد « بالحاج » ومن الجلي انه كان ينتمي إلى الحجيج ، ولكن ما الذي أتى به إلى هنا؟ واتضح السر بسرعة فبعد محادثة هامسة بينه وبين حمود ، اتجه الزائر إلى (ولفرد) - (وهو زوج الكاتبة) وبدأ يخاطبه بلغة حسبناها في أول الامر رطانة ، وإذا لم نرد جواباً ، قال متعجبا بالعربية : « ألم أقل لك انه ليس من الانكليز !؟ » ثم استجوبه (ولفرد) وكشف انه كان يعمل وقاداً في احدى

بواخر شركة الهند البريطانية على الخليج الفارسي وان اللغة التي تحدث بها كانت انكليزية وكلمتان اثنتان فقط نجحنا في تمييزهما Werry Cood – Cfhief Engineer وبكوننا عرفناهما وأعطينا ما يقابلها بالعربية اعترف بهويتنا . ثم صرف الرجل إلى حال سبيله .

صائغ من حائل

وفي وقت متأخر من المساء قدم صائغ محلي ، ومعه عدد من السلع من صنعه في حائل . كانت جميلة ولكنها لم تكن مثيرة للانتباه أو عديمة الشبه بما يمكن أن يرى في أي مكان آخر ، مقابض خناجر وغمد ، وبعض حلي وعلى أي حال ، فانه هو الرجل الذي قد صنع كل المقابض الذهبية للسيوف التي يلبسها أفراد العائلة . واختبرنا هذه فوجدناها متقنة الصنع .

اطرف حادثة

ولعل أطرف حادثة في ذلك المساء ، وهي احدى الحوادث التي لم نكن مستعدين لها ، كانت إبداع الامير المفاجيء تواحدة من هـذه اللعب التي تسمى (التلفونات) وكانت في السنة الماضية بدعة جديدة في اوروبا . فقد جعل الامير اثنين من عبيده ليقوما بالدور معه ، احدهما خارج البهو . والآخر

يصغي . وصلت الرسالة بنجاح ، فالعبد الذي في الخارج ، ليجعل الامر اكثر وثوقاً ، يصيح بأعلى صوته . « يا عبد الله وين انت ؟ الامير يريدك » ومقاطع شبيهة بهذا . وعبرنا عن دهشة عظيمة ، كما يقضي الواجب ، « حقاً » لقد كانت المرة الاولى التي رأينا اللعبة بالفعل، وهو أمر فريد أن تجد اختراعاً حديثاً كهذا قد وصل إلى حائل

القسم السادس : حكم ابن رشيد

(في الفصل العاشر قدمت المؤلفة ابن رشيد ، شخصية لعبت دوراً – وما زال لها دور ستلعبه –

وفي هذا الفصل تقدم الدور والمسرح – الأرض والناس والتاريخ ، العوامل التي تلاحمت وتداخلت فيما بينها ليكون نتاجها حياة هـذا الجزء من جزيرة العرب ، في ذلك الجيل ، ثم لأجيال تأتي من بعده) .

« سأحسن الصنيع : فالناس يحبونني ، والصحراء ملكي ، وقوتي هلال ، وأملي المتفائل يقول إنه سيكون بدرا » .

شكسبير

هذا الفصل هو نتيجة تحرياتنا التي أجريناها ونحن في حائل ، عن الحالة السياسية وموارد البلد . ولن ندعي الدقة القاطعة ، وبخصوص في الأرقام الواردة ، الا أن ما سنقدمه هنا سيساعد في اعطاء فكرة عن نوع الحكم الموجود في بلاد العرب ، والمقدرة على الحكم الذاتي لدى العنصر العربي .

طبيعة السلطان :

ان الدستور السياسي لجبل شمر عجيب للغاية ، ليس فقط من حيث أنه غير شبيه بما هو مألوف لنا في أوربا ، بل ربما كان فريدا ، حتى في آسيا ، وفي الحقيقة ، يبدو أنه يمثل شكلا قديما من اشكال الحكومة خاصا بالبلدة ، كما يبدو أنه

قد تنبع بالطبع من الضرورات الطبيعية للأرض ، وخصائص سكانها . واني لأنظر إلى حكومة ابن رشيد في كل الاحتمالات أنها مطابقة لحكومات ملوك العرب الذين أتوا لزيارة سليمان ، وملوك الرعاة الذين سيطروا في وقت أقدم على مصر وبابل ، ولا أشك كثيرا في ان نجاحها يعود إلى أنها في الواقع في تناغم مع أفكار العرب والتقاليد العربية .

الصحراء :

ومن أجل فهمها على الوجه الصحيح ، ينبغي للمرء أن يدخل في اعتباره ماهية بلاد العرب ، وخصائص العرب ، واسلوب الحياة . ان شبه الجزيرة كلها — ما عدا اليمن وبعض مناطق حضرموت الواقعة تحت تأثير الرياح الموسمية في اقليم صحراوي بلا مطر ولا مياه ، بكل معنى لكلمة صحراء . فالتربة فقيرة ، مكونة أساساً من حصباء أو رمال ، وغير صالحة للزراعة باستثناء بعض بقاع محظوظة ، وبالفعل فالزراعة غير ممكنة اطلاقا في نجد ، إلا بمساعدة الري ، والري من الآبار فقط إذ لا يوجد ماء على سطح الأرض وحتى الآبار نادرة . والصفة العامة للهضبة الوسطى ، لشبه الجزيرة ، هي نجود واسعة من الحصباء تكاد تكون خالية من النبات ، وغير قادرة على الاحتفاظ بالمياه ، حتى على عمق كبير . وقد

توجد الآبار في بعض المنخفضات في سهول منخفضة بمئات الاقدام عن السطح العام .

وحيث توجد الآبار بقـــدر كاف من الماء ظهرت مدن وقرى تحاط بالبساتين وهذه على أية حال ، كثيراً ما تكون متباعدة بحيث تبدو مجرد نقط على خريطة بلاد العرب ، ودون أن تربط بعضها ببعض منطقة زراعية . وحقاً ليست مبالغة أن نقول أن نجدا ليس بها أي اقليم زراعي ، بالمعنى الذي نفهم به الزراعة ، وأن كل انتاجها هو من منتجات البساتين .

المناطق الريفية ... وعدم الترابط بينها

وما دامت الحال على ما ذكرنا فالطبقة الريفية لا توجد وكل مدينة منفصلة عن جاراتهـــا إلى درجة كبيرة وتحيط الصحراء بها (أي المدن) كالبحر ، وليس بينها أية نقطة اتصال في شكل حقول أو قرى او حتى مراعي ، انها منعزلة بأدق المعنى الحرفي للكلمة ، ومن هذه الحقيقة تنبع الفردية السياسية ، التي ظلت العناية مركزة دائماً لرعايتها ، كل مدينة دولة مستقلة .

وفي نفس الوقت ، فالصحراء من حولهـــا ، ولو أنها لا يحوزها سكان مستقرون تتجول فيها القبائل البدوية، وهي تكون

سواد العنصر العربي. وهذه القبائل تحتل معظم صحراء النفود وفيها وحدها يوجد الكلأ بوفرة، غير أنهم يترددون أيضاً على كل جزء من المناطق المرتفعة ولانهم ميالون للحرب وأكثر عددا من سكان المدن ، فهم يسيطرون على كل الطرق المؤدية من مدينة الى أخرى ، بحيث أن قطع اتصال سكان المدن بالعالم ، يعتمد على حسن نيتهم (أي البدو) وعلى هواهم .

الحكم القبلي .. واثر البيئة :

والمدن ، كما قلت ، في الغالب تكفي نفسها بنفسها، ولكن انتاجها مقتصر على منتجات البساتين من الفواكه والتمر ، فهي لا تزرع برا ولا تربي ماشية، ولذلك فهي تعتمد في الخبز واللحم على الخارج وهي تحتاج أيضاً الى سوق لصناعاتها ، لنسيج القماش ، وصناعة السلاح والاواني ، ومن الضروري ، على الاقل في جبل شمر، أن ترسل قافلة سنوية الى الفرات من أجل الحنطة ولذلك فان سلامة السفر خارج أسوار المدن هو اساسي لحياة كل مدينة في بلاد العرب ، وعلى هذه الضرورة يقوم البنيان السياسي بأكمله . فكل مدينة تضع نفسها تحت حماية شيخ بدوي في منطقتها وهو ، لنظر الى الاتاوة السنوية (الاخاوة) يضمن لأهل المدينة السلامة خارج اسوارها ممكنا لهم بذلك من السفر في غير مضايقة على طول امتداد سلطته . وهذه في حالة ما تكون القبيلة قوية ، قد تبلغ مئات الأميال ، وتضم

مدناً كثيرة . ويقال عندئذ أن المدينة تتبع القبيلة الفلانية ويصبح الشيخ البدوي هو السيد الحامي ومن تبعيتها (أي المدن) المشتركة وحرية التمازج التي تهبها لها هذه التبعية المشتركة تنبعث بذور الاتحاد وتتطور أحياناً الى قومية .

وقد ظل هذا هو حال بلاد العرب دائماً ، فيما اعتقد .

ثم ينشأ عن ذلك تطور أبعد . فيبني الشيخ البدوي لنفسه قلعة بالقرب من احدى المدن، بعد أن يصير غنياً بفضل الاتاوة التي يتلقاها منها . ويعيش فيها خلال شهور الصيف. ثم بالهيبة المستمدة من مركزه كبدوي (لأن الدم البدوي لا يزال يعتبر هو الانقى) وقوته التي تظاهره في الصحراء يصبح بسرعة هو الحاكم الفعلي للمدينة ، ويتحول من حام للمدنيين الى صاحب سيادة عليهم . ثم يكرم منذ الان بلقب أمير، ولو أنه بالنسبة للبدو يظل شيخهم ، ثم يصير ملكا على كل المدن التي تدفع له الاتاوة .

بلاد نجد لم تخضع لحكم اجنبي

هذا الشكل من اشكال الحكم، وهو يقوم على أسس طبيعية قد ظلت البلد تعود اليه دائماً ، كلما نجحت في أن تحرر نفسها بعد فترة من الطغيان الاجنبي أو الداخلي وقليل هو المعروف عن بلاد العرب في القديم، إذ لم تدخل ضمن نطاق الامبراطورية الفارسية أو المقدونية أو الرومانية ، ومن المحتمل أن نجدا

عاشت تحت نوع الحكم الذي وصفته حتى زمن الرسول ﷺ وبعد ذلك، ولزمن قصير صارت جزءا من الامبراطورية الاسلامية وشاركت في الادارة المركزية أو شبه المركزية للخلفاء، التي استبدلت حكما ثيوقراطيا (دينيا) بالاشكال البسيطة التي سبقته . ومع انها مهد الاسلام ، فلم يكن هناك جزء من الامبراطورية العربية أسرع في التمرد من بلاد العرب ذاتها. ففي القرن الثاني لعصر الاسلام، عادت شبه الجزيرة كلها تقريباً الى استقلالها القديم، ولم تدخل بجد منذ ذلك الحين ، الا موقتاً في نطاق النظام الامبراطوري لاي ملك اجنبي أو متسلط .

دعوة الشيخ محمد .. وقيام الدولة السعودية

وفي منتصف القرن الماضي على أية حال ، تماماً مثلما أكد الرسول ﷺ سلطته الروحية على شبه الجزيرة ، أسس أمير العارض الوهابي [1] حكومة مركزية ثيوقراطية (دينية) في

(١) كلمة « وهابي » او « وهابية » مما اطلقه اعداء الحركة الاصلاحية الدينية التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله . فأصبح اعداء هذه الحركة يطلقون على معتنقي تلك الفكرة الاصلاحية ومؤازريها ذلك اللقب ، ويطلقون على الدولة السعودية التي آزرت الشيخ لقب الدولة الوهابية . واضطررنا للمحافظة على الأصل ايراد الكلمة كما اوردتها الكاتبة الانجليزية مع اعتقادنا بعدم صحة اطلاقها على تلك الدعوة الاصلاحية . (المترجم)

بلاد العرب . فجرد الأمراء البدو واحداً بعد الآخر، وقامت امبراطورية عربية جديدة . وهذه لم تشمل جميع نجد فحسب ولكن أيضاً ، وفي أحد المرات ، اليمن ، والحجاز ، والاحساء ، والصحراء الشمالية حتى خط عرض دمشق ، ولستين سنة خلت تقريباً حطم استقلال كل المدن والقبائل الداخلية ، واستبدل نظام امبراطوري بالنظام القديم . وحكم أئمة نجد من آل سعود حكماً لا يقل ولا يزيد عن حكم الخلفاء الأوائل ، إلا أن حكمهم أتى الى نهايته في سنة ١٨١٨ حينما فتح الترك نجداً وأخذ ابن سعود الحاكم أسيراً وقطع رأسه في القسطنطينية ، ثم عند جلاء الترك ولأنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بفتحهم طويلاً ، أكد حكم الرعاة نفسه مرة أخرى ، وأسست إمارة جبل شمر .

تأسيس حكومة ابن رشيد :

وقبيلة شمر هي الاقوى في شمال نجد . وقد وضعت مدن حائل ، وقفار ، وبقعا . وبقية المدن الاخرى ، نفسها تحت حماية عبدالله بن رشيد الذي نجح في ان يكسب لنفسه شياخة شمر ، ويبدو أنه كان رجلاً ذا مقدرة عظيمة ، واليه تنسب سياسة الحكومة التي تابعها خلفاؤه من بعده . اتخذ مقامه في حائل ، وبنى القلعة هناك ، وكسب الاعتراف لنفسه بالامارة ، كتابع في البداية لابن سعود ، الذي ظهر مرة اخرى في العارض ، ثم ، في النهاية ، لحسابه الخاص . ويبدو ان سياسته كانت أولاً ان يسترضي قبائل نجد الاخرى أو أن يخضعها ، مجبراً اياها على ان تصير تابعة لقبيلته ، شمر ، وثانياً ان يقيم

حمايته على جميع مدن الشمال . وكانت هذه خطة غـاية في البساطة ، قد يتوسل بها أي شيخ بدوي ، غير أن جدارة عبدالله تكمن في طريقة تطبيقها . لقـد رأى لكي يكسب هدفه ، انه يجب ان يستثير الأفكار القومية والعصبية القومية ، وكان ينفق الاثارة التي يستمدها من المدن بسخاء في الصحراء . ويمارس كرماً لا حدود له تجاه كل شخص يصادف ان يزوره . أعطى الهدايا للجميع ، وبهرهم بعظمته ، فيعودون الى القبائل بانطباعات ضخمة عن ثروته وقوته ، وبهـذا كسب اصدقاء عديدين وبمساعدتهم استطاع ان يخضع البقية من اعدائه ومنافسيه . وفي معاملته لهؤلاء يبدو أنه دائمـاً كان يحاول اولا طريقة الاسترضاء ويكتفي ، اذا أجبر على الالتجاء الى السلاح ، بنصر واحد ، متخذاً من المنهزمين اصدقاء ، وحتى انه يعيد اليهم ممتلكاتهم وهو عمل من أعمـال المروءة يلقى كل تقدير في الصحراء .

وبهذه الوسيلة تزايدت قوته وسمعته بسرعة ، وكذلك اخوه وساعده الايمن عُبيد ، الذي هو الآن بطل اسطوري في نجد .

عبد الله بن رشيد وثروته ..

وأمر آخر أولاه مؤسس دولة آل رشيد انتباهاً كبيراً ، هو المالية . فبالرغم من صرفه سنوياً مبالغ ضخمة على الهدايا والضيافة ، فانه اجتهد ألا تتعدى هذه المصاريف دخله ،

وعند موته ترك داراً مملوءة بقطع الفضة، طبقاً لتقرير شائع ، ولم يكن أحد من خلفائه – ومن المستحيل بالطبع– أن يخمن بالدقة مقدار المال المدخر ، ولكن من المؤكد أنه يمثل مبلغاً خيالياً في بلاد العرب ، وامتلاك هذا ، بجانب الصيت الذي تمنحه الثروة في بلد فقير ، هو مصدر هائل للقوة .

الحالة السياسية والإدارية

وأخيراً ، فإن عبدالله ، وكل عائلة ابن رشيد ، قد وهبوا قسطاً وافراً من الحيطة ، فما من مشروع هام اتخذ فيه قرار على عجل ، ومن المؤكد أن جميع شئون الدولة الآن تبحث في مجلس عائلي ، قبل أن يتخذ أي أمر ، ويبدو أن القاعدة دائماً عند آل رشيد أن يفكروا مرتين وثلاثاً أو اثنتي عشرة مرة قبل أن يبرموا أمراً ، حتى أعمال محمد العنيفة تجاه أبناء أخيه قد أمعن فيها النظر،وفكر فيها شهوراً قبل القيام بها ، وهم في سلوكهم نحو آل سعود وسلاطين الترك ، ينتظرون دائماً الفرصة المناسبة ويتجنبون انشقاقاً علنياً ، ومن المدهش جداً أن كثيرين من هذه الاسرة رجال متفوقون، فمن الصعب أن تقول من هو أقدرهم ، عبد الله ، أو عبيد ، أو طلال ، أو محمد ، أو ابن عمه حمود . وليس الجيل الجديد أقل في ما يبشر به .

وبعد أن وحد جميع قبائل شمال نجد في نوع من الاتحاد

التعاهدي ، أصبح عبد الله بالطبع السيد الاعلى في جميع المدن، إلا أنه لم يكتف بمجرد السلطة ، بل هدف إلى جعل حكمه محبوباً ومن مفاخره ومفاخر خلفائه أنه ما من أحد منهم ، فيما يبدو ، قد أساء استعمال مركزه

سياسة آل رشيد :

وقد كانت سياستهم مطبوعة بطابع التحرر ، والاسترضاء المقرونين بالتلويح بالقوة في المناسبات ، وطبقت هذه السياسة بالنسبة لسكان المدن والبدو ، وبهذا وضعوا حكمهم على القاعدة المضمونة الوحيدة الشعبية ، وقد كان على آل رشيد في أيامهم المبكرة أن يحاربوا من أجل مركزهم في حائل ، ثم في الجوف وسكاكا ولكن حكمهم الآن معترف به باختيار في كل مكان، وبحماسة في جبل شمر .

وانها لغرابة مفاجئة يقابلها المسافر الجديد من تركية ان يسمع التعليقات التي يطلقها سكان حائل عن حكومتهم ، فمن المستحيل ان تتحادث عشر دقائق مع أحد منهم دون أن يؤكد لك ان حكومة الأمير أحسن حكومة في العالم .

(الحمدلله ، بلدنا محظوظ ، الأمر معنا يختلف عما هو مع الترك والفرس . الذين حكومتهم ليست حكومة . هنا نحن في سعادة ورخاء ، الحمدالله) . ولقد أدهشتني هذه النعرة القومية .

الجند ، والمحافظة على الامن

وفي حائل يعيش الأمير في أبهة ، فله حرس مكون من ٨٠٠ أو ١٠٠٠ رجل لهم نوع من الزي الموحد ، أثواب بنية وكوافي (غتر) حمر او زرق ومسلحون بسيوف مقابضها من الفضة ، ويجند هؤلاء من بين شباب المدن والقرى بالاختيار ، والذين يرغبون في الخدمة يسجلون اسماءهم في القلعة ،ويستدعون اذا تطلبت ذلك مناسبة ، وواجباتهم خفيفة ، ويعيش معظمهم مع عـائلاتهم ، ولا يتلقون رواتب ولا أرزاقاً الا حينما يستخدمون بعيداً عن مواطنهم في حاميات القلاع النائية وفي الجوف . فتكاليفهم بالنسبة للامير ، إذن ، تزيد قليلاً عن تكاليف ملابسهم وسلاحهم . واليهم توكل اعمال الشرطة التي قد تكون ضرورية في المدن ، الا أن من النادر ان تحتاج سلطة الأمير سنداً آخر غير سند الرأي العام . وعرب نجد عنصر فريد في اعتداله ، وقلما يدخلون في شغب أو تعكير لصفو الأمن ، فان ثار نزاع بين المواطنين فانه يسوى في الحال بتدخل الجيران ، ومبدأ المشاغبة والعنف المعروفين في المدن الاوربية غير معروف في حائل وحينما لا تسوى الخصومات بتدخـل الاصدقاء ، فإن المتنازعين يذهبون بقضاياهم الى الامير ، وهو يصدر قراره فيها في محكمة مفتوحة (المجلس) وكلمتـه نهائية .

النظام والقانون

ويخيل لي أن قانون القرآن ولو أنه يشار اليه ، ليس هو القاعدة الرئيسية في قرارات الامير ، وانما العرف العربي ، وهو سلطة أقدم بكثير من الشريعة الاسلامية . وأشك في أن هناك ضرورة لتدعيم هذه القرارت بقوة الجنود . وقد أكد لي باستمرار أن السرقة غير معروفة في حائل ، غير أن قطاع الطرق أو اللصوص الذي يضبطون متلبسين يفقدون يداً واحدة للجريمة الاولى ورؤوسهم للجريمة الثانية .

وفي الصحراء ، وفي كل مكان آخر خارج أرباض المدينة ، يقوم البدو بحفظ الأمن ، والامير يقضي معهم جزءاً من العام . وهو عندئذ ليس بأقل ولا أكثر من بدوي ، فيخلع نعليه وكل ترف المدينة ويتسلح بحربة ، ويعيش جواباً في صحراء النفود . وعادة يقوم بهذا في بداية الربيع ، والربيع هو فصل حروبه . وعندما تبلغ حرارة الصيف أقساها يعود الى حائل .

الضرائب والاتاوات

وتقدر الاتاوة التي تدفعها كل مدينة وقرية طبقا لثروتها من أشجار النخيل ، ومن الاغنام التي يحتفظ بها أهل المدن مع البدو . واعتقد أن كل شجرة يدفع عليها أربعة قروش ،

وتعفى الأشجار دون السبع سنوات . وفي حائل يقوم أعوان الأمير بفرض هذه الضريبة ، وفي الأماكن الأخرى يقوم بذلك الشيوخ المحليون ، وهم مسئولون عن جبايتها ابان استحقاقها . وفي الجوف وسكاكا ، اللتين لا تزالان اقليمين ضما حديثا ، يمثل ابن رشيد وكيل ، ويقوم بفرض الضريبة في شكل نقود ، والعملة التركية هي وسيلة التبادل المعترف بها في كل مكان .

الدخل والمصروفات

وبدون ادعاء الدقة فقد أجرينا عمليات حسابية وقدرنا أن دخل الأمير من جميع الموارد ، اتاوة وضريبة ، يمكن أن إلى ٦٠ ألف جنيه سنويا ، ورسم مرور الحج في ممتلكاته يمكن أن يأتي لخزينته بمبلغ يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ الفا من الجنيهات .

أما فيما يتعلق بمصروفاته ، فربما كان حسابها أسهل . فهو يدفع مبلغا ضئيلا كاتاوة لشريف المدينة ، كقربان ديني من جهة ، وليضمن حصانة لممتلكاته النائية ، كخيبر ، وكاف ، وغيرها ، من اعتداء الاتراك ، وسوف أخمن هذه الاتاوة بين ٣ آلاف جنيه و ٥ آلاف جنيه ، ولم أستطيع أن أتأكد من الرقم الحقيقي ونفقات الأمير على جيشه مع المدنيين المدرجة

اسماؤهم تحت الخدمة وكل مصاريف الحكومة لا تكاد تبلغ أكثر من عشرة آلاف جنيه .

وقد تبلغ مصاريف منزله ٥ آلاف جنيه ومصاريف الاسطبل ألف جنيه. وأضخم بند في ميزانيته هو بند الضيافة. فمحمد بن رشيد تقليداً لأسلافه، يطعم يومياً بين مائتين وثلثمائة ضيف ، ويكسو الفقراء ، وتعطى هدايا من الجمال والملابس للأغنياء الاغراب ، القادمين من بعيد . والوجبة تتألف من رز ولحم جمال ، وأحياناً لحم ضأن، وبجانب ذلك تقدم الكليجا [1] والقهوة والتمر باستمرار ، ولا يمكن تقدير ذلك بأقل من ٥٠ جنيهاً في اليوم ، ولكن ٢٠ ألف جنيه سنوياً ، أو مع الهدايا ٢٥ ألفاً من الجنيهات وعلى ذلك تكون الميزانية في حدود ٤٠ ألف جنيه نفقات مقابل ٨٠ ألف إلى ٩٠ ألف جنيه دخلاً - وبهذا يتحقق فائض لا بأس به من أجل الحرب وحوادث اخرى ، ولتكديسه في الخزانة وهو أمر تقليدي في آل رشيد ، وعلى أية حال فمن المحتم على أن أقول مرة اخرى أنني أخمن فقط وربما ما من إنسان في جبل شمر ، ما عدا الأمير نفسه وحده، يستطيع أن يصنع أكثر مما قلت .

---

(١) الكليجا نوع من الخبز يعجن بالسمن ويضاف اليه السكر ويخبز حتى ييبس ويبقى وقتاً طويلاً . والكلمة فارسية ذكرها ابن بطوطة في رحلته (المترجم) .

الازدهار في جبل شمر :

وسوف يتضح من كل هذا أن جبل شمر في حالة ازدهار، من الناحية المالية . فلعنة تسليف النقـــود لم تغزه بعد ، ولا يستطيع لا الأمير ولا الشعب أن يصرف سنة بنسات زيادة عما لديهم .

وحتى الآن،ليس هناك أشغال عامة في سبيل الانجاز تحتاج الى نفقات عامة ودين عام ؛ ومن الصعب أن نتصور مكونات هذه الأشغال العامة . وحفر بئر جديدة هي الواجب الوحيد الوحيد الذي يمكن أن تقوم بتنفيذه « جماعة » لأن الطرق غير ضرورية في بـــلد كلها أشبة بطريق مرصوف بالحصباء ، وليس هناك من أنهار حتى تنشأ قنوات،أو ضواحي حتى يحتاج سكانها الى (ترام) ويمكن للمرء أن يتنبأ بثقة أن مبر استخدام البخار في النقل سوف يكون قد نسي حتى قبل أن تصل السكة الحديد جبل شمر

لا يحكم العرب الا العرب :

وبالنسبة لشكل الحكومة ، فهو حسن فقط لأنه فعال . وانه لأمرٌ غير مطابق لملائمة الأفكار السياسية الاوربية أن تستقر السلطة العليا في أيدي البدو . إلا أن هذه الأيدي هي

الوحيدة التي تستطيع أن تديرها في بلاد العرب . فالمدينة لا تستطيع أن تقهر الصحراء ، ولذلك من أجل العيش بسلام يجب أن تقهر الصحراء المدينة .

عجز الترك عن حكم الصحراء:

والترك بكل جهـــازهم الاداري وسلطة الثروة والقوة العسكرية ،لم يستطيعوا قط أن يؤمنوا أرواح وأموال المسافرين في الصحراء ، وقد ظلوا في بلاد العرب لا سلطان لهم في السيطرة على غير المدن . حتى طريق الحج من دمشق ، رغم انه اسمياً في يدهم ، لا يمكنهم عبوره إلا بجيش ومخــاطرة عظيمة .

الاستقرار والامن

أما ابن رشيد فبمجرد تأثير ارادته ، يحفظ كل الصحراء في سلام مطلق . وفي جبل شمر بأكمله وهو من أقفر الصحاري ويسكنه ناس من أشرس من في العالم ، يمكن للمسافر أن يسير بلا سلاح ولا حراسة . بتسهيلات أو عقبات أكثر مما لو كان يسير في احدى طرق (انجلترا) .

وعلى كل طريق في جبل شمر ، يمكن أن تجد رجالا من المدن يتلكأون على حميرهم ، أو على أقدامهم وبمفردهم ، يحملون كل ما يملكون . وإذا سألتهم عن مخاطر الطرق أعادوا إليك

السؤال : (أو لسنا في بلاد ابن رشيد ؟) . لن يستطيع أي نظام ، مهما كان كملا ، من نظم العامة والحصون والحرس أن يأتي بنتائج مثل هذه والأمير البدوي في المدينة ، على استبداده واقع تحت ضبط محكم من الرأي العام .

النظام والقانون :

ومواطنوا جبل شمر ليس لهم ما تسميه بالحقوق الدستورية ، فليس ثمة جهاز منهم لتأكيد سلطتهم غير أن من المحتمل أن ليس هناك مجتمع مـــا في العالم القديم ، يمارس فيه الشعور الشعبي نفوذاً على الحكومة أقوى مما في حائل . فالأمير ، مهما كان غير مسؤول في اعماله الفردية ، يعرف جيداً انـــه لا يستطيع أن يتخطى القانون التقليدي غير المكتوب في بلاد العرب دون أن ينال جزاءه فالشيخ غير المحبوب سيتوقف عن أن يكون شيخاً ، ورغم أنه لا يجرد من مركزه باحتفال عام ، ولا يمس بتجريح في شخصه ، إلا أنه سيجد نفسه قد أهمل لصالح عضو آخر من عائلته أكثر قبولاً لدى الناس وجنود المدينة لن يسندوا طاغية معترفاً به في المدينة ، ولا البدو خارج المدينة سيفعلون ذلك . واذن فان امراء بلاد العرب عليهم أن يعتبروا الرأي العام قبل كل شيء آخر .

فوضى وراثة الحكم

ولعل الخلل في النظام، ولكل نظام خلل، هو في التباس حق الخلافة في الشياخة أو العرش البدوي. فعند موت الأمير، إن لم يكن له ابن في سن الرشد وذي مقدرة معترف بها ليتولى مقاليد الحكم، يقوم النزاع المسلح بين المتنافسين — من اخوة، وأعمام، وأولاد العم على الخلافة، وكثيرة ومريرة هي الحروب التي نشأت نتيجة لذلك. ومن ذلك، الخصومة التي هزت العارض عند موت فيصل ابن تركي آل سعود، وقادت إلى تحلل المملكة الوهابية [1].

الطائبة كانت تتوقع النهاية

وعلى هذا، فلا يستطيع المرء أن يكتم مخاوفه من أن يكون هذا هو مصير جبل شمر عند موت محمد. فليس لمحمد أبناء، وأبناء طلال وهم الذين يلونه في سلسلة العرش، لهم من

---

(١) كلمة (الوهابية) من الكلمات التي أطلقها أعداء الدعوة الاصلاحية التي قام بها الامام محمد بن عبد الوهاب — رحمه الله — على تلك الدعوة، تنفيراً للناس عن قبولها، وقد شاعت حتى أصبحت علماً لتلك الحركة الاصلاحية، وللدولة السعودية الكريمة التي آزرتها ونصرتها.

والكاتبة غربية لا تفهم مدلولها، فاستعملتها كغيرها من الكتاب الذين يجهلون معناها.

حمود منافس خطير. والأمير ما زال صغير السن، (١٥ سنة) وقد يعيش طويلاً، ويبدو، إذا حدث ذلك، أن خلافة المملكية الوهابية في يديه. لقد صنع هو وأسلافه، اتحاد جميع مشايخ البدو، من (مشهد علي إلى المدينة)، تحت قيادته، وهو على صلة قريبة بمشايخ القصيم والعارض. وسلطته مسيطرة شمالاً حتى (كاف). وعيناه ترصدان مدناً أبعد إلى الشمال، فيما لو تحركت ضد القيود التركية.

واني لأنتظر اليوم الذي تتحالف فيه معه أيضاً الرولة وولد علي، وجائز أن تنضم أيضاً السبعة وابن هذال، ولو انه ليس من المحتمل ولا من المرغوب فيه أن يعاد تأسيس الامبراطورية الوهابية بأسسها المركزية، فاتحاد تعاهدي بين قبائل الشمال يمكن أن يستمر على أحسن تقاليده، وقد كانت مدن حوران واللجاه والفرات ذات مرة توابع لآل سعود، ويمكن أن تكون كذلك يوماً ما لآل رشيد. وقد يبدو هذا بعيداً، ولكنه ليس أبعد مما ينظره محمد [١]

---

(١) حاشية المؤلفة :-

كون محمد بن رشيد لم يقصر اطماعه على نجد فحسب قد ثبت مؤخراً. ففي ابريل الماضي ١٨٨٠ خرج بجيش مكون من ٥٠٠٠ رجل من حائل ومر بوادي السرحان وباغت محمد بن دوخي بن سمير في (حزرا؟) وسلب مخيمه ثم واصل سيره الى حوران. ولم يكن ذعر اهل دمشق قليلا حين علموا ذات صباح ان الامير في (بصرى) على بعد اقل من ٦٠ ميلا من العاصمة السورية وكانت هناك تخمينات كثيرة بالنسبة لاهدافه من التوغل شمالا الى هذا الحد ←

جـــفلم يمكن قد شوهد أي جيش من نجد في (الشمال) منذ ايام الامبراطورية الوهابية ثم دار الهمس في ان ابن رشيد قد عقد صداقة مع ابن سعيد ، وان الخصومة بينهما كانت خطأ ، وان دليلا قراريا قد اعتبر مسؤولا عن الخطأ فقطع رأسه ، واخيراً اقام ابن رشيد وليمة فخمة لقبائل الشمال للمصالحة وفيها ذبح ٥٠٧ جملا ، و٦٠٠٠ خروف ، وعاد الامير الى نجد بعد ان مكث بعض اسابيع في (الأنج) .

ويمون أن أتظاهر بمعرفة ما كان يدور في ذهن محمد القيام بهذه الغزوة أو كل ما حدث فعلا ، يبدو لي أنه ليس من الصعب تخمين هدفه الرئيسي . فتغلب ابن سعيد على ابن شعلان قد وضعه في مركز قيادي بالنسبة لقبائل الشمال . وغارته ضد دروز حوران - وهو اقليم كان في يوم من الأيام من توابع امراء نجد - احنق محمداً عليه ومن سياسة ابن رشيد أن يضرب ضربة واحدة ثم يتبعها بعقد سلام . وبذلك يقلل من أهمية أنجح الرؤساء ، ويصبح صاحب الانعام عليه، وقد نجح محمد بهذه الخطة في أن ينال السمعة التي يقدرها أكثر بين قبائل الشمال . فقد أكد تفوقه ، حيث اختار أن يكون كذلك ، في الصحراء ، وفوق ذلك ذكر سكان الحدود في سوريا بالمطالب الوهابية القديمة في سوريا الشرقية .. ومما يمكن تصوره انه ، وقد أجبر أو أقنع عنزة على الانضمام لجماعته ، قد يتجمع بعد تحطيم الامبراطورية العثمانية ، في ضم ذلك الجزء من ميراثها ، ويعترف بسيادته على كل الأراضي الواقعة خلف الأردن .

القسم السابع : في طريق العودة من حائل

(في هذا الفصل ـ وهو الثالث عشر من الجزء الأول من الكتاب ـ تقدم المؤلفة انطباعاتها عن الحياة في حائل ، وعن مشاهد من نجد ، وملاحظات عن العرب ، وموكب الحجاج الفرس ، وهو مشهد قد اختفى منذ أن حلت وسائل المواصلات الحديثة محل الوسائل القديمة ، وكان مورد دخل مهم لحكومة ابن رشيد ، أشارت اليه الكاتبة في الفصل السابق) .

«كانت بابل مقصورة للصيد النمرود ، ثم أصبحت مدينة البساتين ، والأسوار ، والقرية المدهشة وفيها ساد بنو خذ نصر ، ملكا بين الرجال الى أن انكب على الرعى ذات يوم ذات صيف »
بيرون

«... آه ما اتعس ذلك الرجل الفقير الذي يعيش على احسان الأمراء..»
شكسبير

حديث عن الدليل:

لقد أشرت إلى الغموض الذي وجدنا أنفسنا محاطين به بعد بضعة أيام من وصولنا إلى حائل، والذي سبب لنا آنذاك قلقاً ليس بالقليل . لقد كان مصدره بعض تصرفات صبيانية من جانب محمد (دليل الكاتبة)، الذي أسكرته الحفاوة اللطيفة التي قابله بها الأمير باعتباره من (آل عروج)، وأخشى ، أن تدليلنا له كان له أيضاً دخل في هذا . وحتى اليوم ، لست متأكدة تماماً من اننا سمعنا بكل ما حدث، ولهذا فاني أمتنع عن الدخول في الموضوع بالتفصيل ، إلا أنه قدر ما سمعنا ، يبدو أن غرور محمـــد قد قاده إلى أن يكبر من مركزه في عيون رجال بلاط ابن رشيد بتقديمنا كأشخاص وضعهم تحت حمايته،ومن هم بطريق ما معتمدون عليه ، مفاخراً أن الجمال، والخيول ، والأموال الاخرى هي من ماله ، وأن خدمنا هم قومه . وتحت ظروف عادية كان يمكن أن يكون لهذا الأمر نتيجة غير ذات أهمية،وما كنا لنتذمر منه بسبب تمجيد نفسه

قليلاً على حسابنا ، مدركين - كما كنا - اننا مدينون بالنجاح في رحلتنا حتى الآن أساساً ، إلى اخلاصه .

نتكدر من الامير .. ثم صفاء : —

ولكن ،لسوء الحظ ،كان الدور الذي عينه لنا بهذا الشكل ، قد جعل علاقتنا بالأمير ليست محرجة فحسب ، بل خطرة بالتأكيد . كان استقبالنا في البداية ودياً للغاية مما جعلنا نتكدر أن نجد بعد أربعة أيام من وصولنا إلى حائل ،اننا لم نعد نحظى بالاهتمام الذي حظينا به حتى ذلك الوقت . فقد وقفت هدايا اللعب ، والخروف ، الذي كنا نتحف بـه للغداء ، حل محله لحم جمل . وبدلاً من جنديين يحرساننا في الطريق إلى القصر ، أتى غلام صغير مملوك برسالة . وفي اليوم الخامس لم ندع إلى حفلة المساء ، وفي اليوم السادس ، عندما ذهب (ولفرد) لزيارة القصر ، أخبر باقتضاب أن الأمير لم يكن هناك . ولم نستطع أن نتصور سبباً لهذا التغيير ، وأصبح محمد ، وهو عادة ، المرح المنشرح الصدر ، عابساً ومحرجاً ، يقضي معظم الوقت مع الخدم في المنزل الخارجي .

و (حنّا) المخلص ، بدأ يلمح بغموض أن الأمور ليست على ما يرام ، وبدا أن عبد الله وبقية الخدام المسلمين غير عازمين على القيام بواجبهم وتذكرنا أننا بين .. قوم متعصبين ، فبدأنا نترعج بشدة .

كنا ما زلنا بعيدين عن تخمين السبب الحقيقي . ولم يعلم

(ولفرد) حقيقة الأمر إلا بعد أسبوع من مجيئنا إلى حائل ، في مقابلة له مع مبارك كبير عبيد الأمير . ولم يكن من المقبد أن نغضب ، فسلوك محمد في الواقع كان صبيانياً أكثر منه عدم ولاء ، وما كان التشكي يستحق الذكر إلا كتصوير لطباع العرب وطريقة تفكيرهم ، وإلا كتوضيح لسبب تقصير مدة إقامتنا في حائل أكثر مما نوينا ، ولماذا انضممنا إلى الحجاج الفرس في طريقهم إلى (مشهد علي) ، بدلاً من ذهابنا إلى القصيم .

وبالطبع لم تقف الأمور عند ذلك ، فعند عودته من مقابلة مبارك وبخ (ولفرد) محمداً على حماقته ، ثم أرسل إلى القصر يطلب مفرج ، رئيس التشريفات ، وهو نفس الرجل المهيب الذي استقبلنا عند وصولنا ، وبعد أن أوضح له الظروف رجاه بدوره أن يشرحها للأمير ووعد الرجل الشيخ في أن يقوم بهذا . ولا شك في أنه وفى بوعده ، لأننا استدعينا إلى القصر مرة أخرى في نفس الليلة واستقبلنا بنفس الود القديم . وانه لما يسجل للترتيبات بلاط حائل أن أي نوع من أنواع الايضاحات لم يكن مدار حديث . ورغم أن محمد وضع في محله اللائق به ، فانه استقبل بلطف ، ان المزيد من الرعاية المحببة هو فقط ما جعلنا نتذكر انه كان هناك سبب للشكوى في وقت ما . أما بالنسبة لمحمد فان علي أن أقول أنه بمجرد ما تبخر غروره ، لم يعد يحمل أي نوع من الحقد بسبب ما

أجبرنا على عمله ، وصار مرة أخرى الصديق البالغ اللطف واليقظة والخدوم الذي كأنه حتى الآن. إن سوء المزاج نقيصة لا يعرفها العرب . ومع ذلك فالحادثة كانت درساً وتحذيراً ، درساً في أننا كنا ما زلنا اوربيين بين آسيويين ، وتحذيراً في أن حائل هي عرين الأسد , ولو أننا لحسن الحظ كنا أصدقاء للأسد . وبدأنا نضع خطتنا للرحيل .

زيارة لمخيم الحجاج : على الخيل :

لم أقل بعد الا قليلا عن الحجاج الفرس ، المخيمين خارج اسوار حائل ، والذي كان مخيمهم من الملامح الرئيسية للمكان ففي يوم ثلاثاء ، أرسل الينا الأمير رسالة يقول أنه يتوقع خروجنا معه للركوب ، وانه سوف يقابلنا في بوابة المدينة حيث كان الحجاج ، وكان يوماً سعيداً لنا ، لا لأننا رأينا الحجاج،بل لأننا رأينا ماكنا قد قمنا بالرحلة من أجل مشاهدته وكدنا نيأس من ذلك ، أحسن خيول الأمير وهي تعدو :

لقد انشرحنا للمناسبة ، واسرعنا بالاستعداد . وفي نصف ساعة كنا نمتطي أمهارنا ، في الشارع .وكان هناك حشد كبير من الناس، يتحرك نحو المخيم ، وخارج المدينة وجدنا موكب الأمير ، استوعب هذا كل فكري لحظة،لاني لم أر قبل خيول حائل وهي مركوبة. وكان الأمير بملابسه الفاخرة يمتطي مهراً أبيض جميلاً ، بينما تبعته (كروش) الشقراء يمتطيها عبد

وكان جميع الاصدقاء هناك ، حمود ، وماجـد ، وصبيان هما أخواه ، وصبي آخر أصغر قدموه لنا على أنه ابن متعب ، الأمير المتوفي ، والجميع في روح عالية ،وفي لهفة لعرض خيولهم وفروسيتهم ، والى جانب الأمير وتحت حمايته الخاصة ركب الشاب ذو التاريخ المحزن ، نائف ،البقية الباقية من ابناء طلال الذين قتلهم أخوه محمد، والذي كما يجرى الهمس ، سيدعى يوما ما للانتقام لقتلهم وكان هناك أيضاً مبارك ، العبد الابيض عبد بالاسم فقط، لأنه يعامل كواحد من أسرة الأمير وهو أغنى وأشهر شخصية في حائل .

وتتألف بقية الجماعة من أصدقاء وخدم ، يرتدون أحسن ملابسهم ويمتطون أمهار الأمير . وكان حمود على حصانه الكميت الجميل ، باديا للعيان ، وكالمعتاد ، قام بواجب الضيافة نحونا ، فشرح لنا الاشخاص والاشياء المختلفة التي رأيناها .

صفاء الجو في نجد :

وكان صباحاً لا يمكن للمرء أن يجد مثله إلا في نجد . فالجو مشرق ، منير ، الى درجة لا يستطيع المرء أن يتصورها في أوروبا ، ويملأ النفس بمعنى للحياة مثـــل ذلك الذي يتذكر الانسان انه أحس به في الطفولة ، ويملؤه رغبة في أن يصيح . والسماء كثيفة الزرقة ، والتلال من أمامنا كأنما هي منحوتة من ياقوت أزرق ، والسهل هش (متجعـــد) ومستو كمنضدة

(بلبارد) يرتفع بلطف في اتجاهها وعلى الجانب ، أسوار حائل وبروجها ذات المشارف ، والقصر يبزغ من بين كتلة النخيل الكثيفة التي تكاد تبدو سوداء في نور الشمس ، وفي الجانب الآخر ، مخيم الحجاج ، كتلة من الخيام المتعددة الألوان ، زرقاء ، وخضراء ، وحمراء ، وبيضاء . والحجاج أنفسهم في جمهرة سوداء ، يراقبون بتطلع ، وعيون نصف فزعة ، المعرض البربري الذي كونا نحن جزءاً منه .

عرضة ... ومعركة مصطنعة :

وأعطى الأمير إشارة التقدم وفي اتجاه الجنوب الغربي تحرك جمعنا في اتجاه دغل من النخيل على بعد ميلين . وفجأة اندفع الامير بمهره في العدو ، والتحم الجمع في معركة مصطنعة في طراد وازدواج الواحد تلو الآخر ، ثم في عودة الى الأمير الذي ظل معنا وارتفع الصراخ كما لو كانوا سيدفعون السماء من آذانهم . وفي النهاية لم يعد الأمير بقادر على المقاومة ، فاندفع بنفسه بين الآخرين ، بعد أن اختطف جريدة نخل من أحد العبيد . وفي لحظة نسي هيبته وطباعه المدنية ، وصار بدوياً من جديد ، بدوياً على حقيقته هو وجميع أسرته ، فارقت عمامته الحريرية الى الخلف ، وبدا حاسر الرأس ، تنسل ضفائره البدوية في الزوبعة حافي القدمين ، عاري الساعدين ، يعدو هنا وهناك ، هاجماً

على الحشد ، يطارِد ويطارَد ، صائحاً ، كأنه لم يشعر قط بهمّ ، ولم يرتكب جريمة في حياته قط .

ووجدنا أنفسنا وحيدين ، مع وجيه صغير كنا قد رأيناه يركب بجانب الأمير ، وبدا أكثر منا نفوراً في مظهره من هذه التسلية الرائعة . وآمل على الأقل ، أننا بدورنا أقل إثارة للسخرية مما بدا . فهو على كديش صغير عسيف ، وفي ملابس من طراز ملابس أطفال أوروبيين منذ ٥٥ سنة : صدرية عالية ذات ثنية من الاسفل وسراويل تصل ركبتيه ، وفي قدميه نعل (شبشب) ، وعلى رأسه غطاء بني ، وله وجه حليق يشبه غلاماً سريع النمو ، ولكنه ما كان في الحقيقة الشخص الرئيسي بين الحجاج الفرس كان (علي كولي خان) ابن خان البختيارية الكبير ، الذي عامله الامير من أجل والده بكل تجلة ممكنة ، وكان الآن ، مع بقية الحجاج ، في طريق عودته من مكة . وقد كان من أهداف تنظيم هذه الحفلة هو التأثير عليه بهيبة الامير .

لم نبق وحدنا طويلاً ، فقد توقف العدو في بضع دقائق ثم سرنا بازائنا السابق ، وبمرور الوقت وصلنا الى نخيل ، اتضح فيما بعد أنه من أملاك الأمير ، في بستان محاط بسور عال . وهنا دعينا الى أن نترجل ، وجلسنا فوق سجاجيد بسطت تحت الاشجار ، وبسرعة كان الخدم مشغولين بتقديم غذاء خفيف من اللحم الحار . وترك الاطفال يتسلقون أشجار الليمون

ويساقطون الفواكه ، ثم دارت القهوة . ثم أدت الجماعة كلها الصلاة ما عدانا ، نحن والفارسي ، الذي لم ينضم اليهم في العبادة باعتباره (شيعيا) . وركبنا مرة أخرى عائدين الى المنزل ، وهذه المرة ، انضممنا الى الجماعة في العدو ، الذي استؤنف بسرعة ، ناعمين باللهو ، وبهذه الطريقة عدنا الى حائل .

مع رئيس حجاج العجم :

وفي اليوم التالي زار (ولفرد)[1] (علي كولي خان) في خيمته مصطحباً محمداً الذي عاد الآن رفيقاً معقولاً وتابعاً رادعاه محمد بالحسب والنسب في الخيم الفارسي[2] ، لم يكن في الواقع ليؤبه بـه ، لأن الفرس لا يهتمون اطلاقاً بالنبالة العربية ، بل يعاملون العرب جميعاً كبدو وبربريين[3] .

و (علي كولي) ، رغم انه أصغر اخوته ، كان مسافراً في ابهة ، مصطحباً امه معه ، وعدداً كبيراً من الخدم ، رجالاً ونساء إلى جانب متعهدي احماله ، والعرب الذين يسوسون حيواناته .

وكان مترجمه شخصية مهيبة ، وأتباعه في ملابس كهنوتية مما أضفى عليه مظهراً يشعر بأنه رئيس ذو أهمية . وكانت

---

(١) زوج الكاتبة .

(٢) مخيم حجاج العجم .

(٣) هذا بحسب رأي الكاتبة . والواقع ان المسلمين منهم يحبون العرب .

خيمتا تركية الطراز، حسنة الخطوط ومريحة، أرضها مفروشة ببسط أعجمية، وفيها أريكة .

وهناك وجده (ولفرد) يجلس مع صديق قديم . هو عبد الرحمن، ابن تاجر من (كرمان شاه) وهـــو في نفس الوقت وكيل قنصل بريطانيا هناك . وكان أطفـــال الفرس لطافاً جداً، ولكن تباين طباعهم عن طباع العرب المتكلفة أثارت انتباه (ولفرد) في الحال . لم يكن هناك أي شيء من ذلك النساء المحكم، والاستفسارات المهذبة، التي يجدها المرء في حائل، ولكنه استقبال أوربي في شكله . ومن أجل راحة ولفرد اجلسوه الاريكة، وأتوا بالشاي الذي اعـــد على (سَماوَر) ، وفي الحال صَبّوا عليه تاريخاً طويلاً من معاناتهم في الحج . رووا هذا في عربية مكسرة جداً، وبنبرة لا يستطيع المرء مقاومة لكنتها، لأن الفرس يتكلمون بنغمة بطيئة، غريبة بالنسبة للعربية ولغة (علي) الطبيعية، كما يقول، هي الكردية، ولكن حيث انه شخص متعلم، وضابط في جيش الشاه، فهو يتكلم الفارسية بنفس الاتقان. وفي فارس تلعب العربية في التعليم نفس الدور الذي لعبته اللاتينية في اوربا قبل أن تصبح لغة ميتة تماماً .

حديث عن العرب

وكان علي وعبد الرحمن يصرخان بالشكوى من كل ما هو

عربي ، وبالرغم من وجود محمد ، لقد شتما كل العنصر العربي ، فقر المدن ، وجهل المواطنين ولصوصية البدو ، والأجور الباهضة للجمالين العرب ، والجمالين ، وبؤس السفر في الصحراء . وهل هناك شيء أبأس مما في سوق حائل ، حيث لا يمكن ان تجد كيس حلوى بالحب أو النقود ؟ ان العرب مجرد برابرة ، وشراب قهوة بدلا من الشاي . ، وبين وقت وآخر ، ينفجرون في محادثة بلغتهم .

وعلى أية حال ، فقد أحب (ولفرد) (على كولي) ، وافترقا صديقين حميمين ، بدعوة من الشابين الفارسيين للسفر معهم إلى (مشهد) على الفرات ، حيث ينهي الفرس حجهم دائماً بزيارة ضريح علي والحسين .

وبدت هذه فرصة ممتازة ، وبعد مشاورة مع الأمير ، الذي وافق على الخطة ، قررنا السفر مع الحجاج حين يسافرون .

زيارة بلدة عقدة ، ووصفها

ولم تكن أيامنا الاخيرة في حائل أقل متعة ، بأية حال . وكبرهان على حسن نية الأمير فقد أعلن انه يمكننا ان نزور (عقدة) ، وهي قلعة في الجبال على بعد اميال من حائل ولم يرها احد من الغرباء قط من قبل .

كتمان موقع عقدة بأمر الأمير !

ولست في حل أن أقول أين تقع بالضبط ، لأننا أرسلنا

لتراها على وعد الكتمان ، ولو اني آمل ألا يتعرض ابن رشيد لخطر غزو أجنبي فلن أقدم مفتاحاً لاعداء احتماليين . يكفي أن أقول : انها تقع في الجبال ، في مركز ذي قوة طبيعية ، وازداد قوة بمجهودات بدائية للتحصين ، وهي بكل تأكيد من أغرب الأمكنة في العالم .

يقترب المرء إليها من السهل عن طريق واد ضيق متعرج ، يذكره كثيراً بوديان جبل سيناء (الطور) ، حيث تبرز صخور (الجرانيت) بغتة على الجانبين خارجة من قاع رملي نقي .

خربة « سنحاريب » !

وعلى واحدة من هذه الصخور نقشت كتابة عربية نقلناها ، ولو انها غير جيدة الوضوح إلا انها يمكن أن تقرأ كالتالي :

« هذه خربة سنحاريب » هذا هو المعنى على الأقل في رأي المستر (سابنجي) من ثقات دراسي العربية ، ولو اني لن أغامر لأشرح المناسبة التي اتخذ (سنحاريب) فيها طريقه إلى نجد ، ولا السبب الذي جعله يكتب بالعربية بدلاً من كتابته المسمارية .

ومن داخل التحصينات يتسع الوادي الى مدرج مكون من اتصال ثلاثة وديان أو أربعة ، حيث توجد قرية وبستان من النخيل ، وبجانب ذلك تمتلىء الوديان بالنخيل الوحشي تسقى بالعناية الالهية . أو كما يقول العرب (من الله) ، على الأقل ليس بيد بشرية .

وصف شعري للبلدة :

وهي جميلة جداً في تكوينها - التباين بين خضرة الخصب الخلابة وبين الصخور الجرانيلية العادية التي تطل عليها من جميع الجهات ، وربما كان ارتفاع هذه الصخور الف قدم ، وتنحدر عموديا الى سطح الوديان الرملي . بحيث تذكر الناظر اليها بوادي الماس حيث تعيش الحيات ، وحيث رمى التجار اللحم لطيور الرخ من اجل جمع الماس ، في قصة (السندباد البحري) وما من حيات تعيش في (عقدة) وانما يعيش هناك قوم من شمر الأمناء ، الذين اضافونا بعطاء سخي من اصناف التمر والقهوة ، كان من الصعب ان تعدل بينها . وصحبنا فارسان من فرسان الأمير ، من شمر ، قاما بواجب الضيافة في الطريق الى (عقدة) وكل ما فيها كان في الحقيقة ملك خاص لابن رشيد . وقد قدم لنا هذان الفارسان والقرويون كثيرا من المعلومات عن التلال التي كنا فيها ،وأرونا موقع المعركة الكبيرة التي حارب فيها ابو محمد ، وعمه عبيد (ابن علي) الأمير السابق للجبل .

ويبدو ان (عقدة) هي اقدم ممتلكات آل رشيد وانهم عند اخذهم لحائل مشى اليهم (آل علي) فتراجعوا الى القلعة من حيث اداروا المعركة ، وانزلوا هزيمة بأهل (قفار) ضمنت لآل

رشيد السلطة العليا منذ ذلك الحين [1] . وأرونا أيضاً باعتزاز كبير سوراً بناه عبيد ، ليسد الوادي الضيق ، وجعلونا نتفرج على كل شيء ، الآبار والبساتين ، والمنازل بحيث اننا قضينا كل اليوم تقريباً هناك .

حيوان الوبر

كما اخبرونا أيضاً عن الحيوان الغامض الذي يأتي من التلال في الليل فيتسلق النخل من اجل التمر . ويحجم الارنب البري ذي ذيل طويل ، وهو جيد للاكل ، كما وصفوه بأنه يجلس على قائمتيه الخلفيتين ، ويصفر ، مما جعل (ولفرد) يظن أنه فأر بري . ولكن هل تتسلق الفئران البرية؟ ويسمونه (الوبر)

أغنية حربية لشمر

وفي عودتنا سارت الخيل تعدو بنا عدوا مبهجاً يرافقنا بدويان (لم يكن محمد معنا) تعلمنا منهما احدى اغاني الحرب لشمر وتجري كالاتي :

(١) لأهل هذه البلدة قصص وملاحم شعرية حول استيلاء (السناعيس) على عقدة ، واخراج (بيبج) منها . ومن شعرهم قصيدة مشهورة عندهم جاء فيها : —

قـبـلـك (بيبج) حدّرْ زوره (السناعيس)

منْ (عقدة) اللي ما يزحزح قنداها

والسناعيس : عزوة أهل حائل .

ما ورِيتَ أنا رِكبَ الذلولْ
لو زيّنوا لي شدادَها(1)
أريدْ أنا حمـراً يشنوفْ
حمراً سريعْ أوزادَها(2)

وكانا يمتطيان فرسين رشيقين صغيرين، إلا أنهما لم يستطيعا العدو بنفس السرعة التي عدونا بها .

إباء عربي وترفع

ولو كنا في (تركية)، أو أي مكان آخر عدا بلاد العرب لكان علينا أن ننفحهما بسخاء بعد رحلة من هذا النوع ، أما في حائل فشيء من هذا النوع لم يكن ليتوقع وكان كل من هذين الشمريين بالغ الذكاء ، حسن السلوك، وروحاهما تسموان على النقود . كانا يقومان بواجبهما نحو الأمير ، كشيخ، وليس نحونا كغريبين وقاما به متحمسين .

أجمل أيام حائل

و (عقدة) على ارتفاع ٣٬٧٨٠ قدماً فوق مستوى سطح البحر ، وحائل على ارتفاع ٣٬٥٠٠

(١) لا أريد ركوب الناقة المذللة للركوب ، ولو كان (شدادها) رحلها الذي يجلس فيه الراكب قد زين وجمّل بغاية الجمال والراحة .
(٢) أريد فرساً حمراء ، طويلة قوية ، سريعـة السير ، الانقضاض على العدو ، أبوانها (إيرادها) وهو انحدارها سرعة .

كان هذا أجمل الأيام التي قضيناها في حائــل ، وسوف تعيش طويلا معنا كذكرى منعشة .

في وداع ابن رشيد :

وفي اليوم التالي كنا سنرحل وكان محمد أثناء غيابنا يقوم باستعدادات الرحيل . فابتاع جملين آخرين ومؤونــة شهر من التمر والرز ، بالاضافة الى هدية ممتــازة من بن اليمن ، أرسلها الينا الأمير وكانت آخر مقابلة مــع ابن رشيد متميزة . فلم يكن في القصر ، وإنما في بيت بالقرب من بوابة مكة ، من حيث يستطيع أن يراقب من نافذة دون أن يلاحظه أحد كل ما يجري في مخيم الحجيج أسفل منه . وجدناه وحيــداً ، فقد زال عنه الآن كل خوف من أن نكون مغتالين ، كان هناك في النافذة كطير كاسر ، يحسب بدون شك كم قطعــة أخرى من الفضة يمكن أن يجمعها من الفرس قبل أن يكونوا بعيدين عن مخالبه . وبين آونة وأخرى كان يميل الى خارج النافذة التي كانت جزئياً مغطاة بضلفة ، ويصيح بأحد رجاله الذين كانوا يقفون بالخارج مبلغاً إياه رسالة تتعلق بالحجاج . وبــــدا أنه يستمتع بسلطته عليهم ، وهي سلطة مطلقة .

وكان بالنسبة لنا ودوداً ، مجدداً إقامة الحجة على صداقته واهتمامه ، عارضاً أن يعطينا أي شيء نختــــاره ، (هجن) للرحلة ، أو أي واحد من أمهاره . وهذا ، وإن كنا نحب

أن نقبل العرض الأخير ، ما أبيناه ، بالطبع ، وألقى (ولفرد) خطبة قصيرة بالطريقة العربية قائلا فيها : ان الشيء الوحيد الذي نطلبه هو صداقة الامير ، متمنياً له طول العمر . ورجا ابن رشيد أن يعتبره وكيله في أوروبا في حالة احتياجه الى أية مساعدة من أي نوع ، وشكر له اللطف الذي تلقيناه على يديه. ثم اقترح الأمير أن نرجىء رحيلنا ، ونذهب معه في غزو كان سيبدأ به بعد أيام قليلة ، وهو عرض جذاب كان من الصعب أن نرفضه لو تقدم به في وقت مبكر ، فأبيناه الآن. وفي الواقع كانت رؤوسنا بين فكي الاسد وقتاً طويلا فيه الكفاية ، وكان هدفنا الوحيد الآن هو أن نخرج من العرين بهدوء واحتشام . ومن أجل ذلك اعتذر (ولفرد) بضيق الوقت ، وأضفنا ان جمالنا كانت في الطريق الى الرحيل ، وقلنا : وداعا ! واستأذنا .

عند الامير حمود :

وكان علينا أن نؤدي زيارة لاعتبارات الصداقة هذه المرة أكثر من اعتبارات الرسميات . فحينما سرنا راكبين خلال المدينة توقفنا عند منزل حمود ، ووجدناه هناك مع كل عائلته . وكان وداعنا لهم بحق تعبيراً عن الأسف للفراق ، وقدم لنا حمود نصيحة سليمة حول ذهابنا مع الحجاج الى

(مشهد علي) بدلا من محاولتنا العبور الى البصرة . فقد نزلت الامطار ، كما قال ، على طريق الحج ، وان البرك ملأى بالمياه (برك زبيدة) ، ولذلك فان رحلتنـــا ستكون سهلة بصفة استثنائية ، بينما ان العبور إلى البصرة سيحتم علينا ان نمر في إقليم عديم المياه ، بدون أن يكون هناك شيء ليعوض عن عن هذه الصعوبة .

ولكن هذا ما يمكن ان ننظر فيه بعد الرحيل ، فالشيء الاول ، كما قلت ، كان هو أن نغادر ، وسوف يكون هناك وقت كاف فيما بعد لوضع تفاصيل خط سيرنا .

هدية للطائية وزوجها:

وكان ماجد هناك وتلقى من (ولفرد) كذكرى ، خنجراً اسبانيا ذا مقبض فضي ، ومن أجل ذلك أرسل من ياتي بعباءة سوداء، طوقها مطرز بالذهب، وقدمها هدية إليّ، وكانت هدية مناسبة ، فلم يكن لدي شيء من نوعها ، نعم لم يكن لدي عباءة محترمة على الاطلاق ، وكانت هذه ذات مظهر مهيب وهادىء . ان ماجداً ، على الأقل ، وأنا متأكدة ، بأسف لفراقنا ، ولو تأخذنا الظروف مرة أخرى الى حائل، فسوف يكون أحسن حظ لنا أن نجــده أو أباه على العرش . انهما يعتبران الوارثين الطبيعيين للشياخة ، وابن رشيد لا يبدو كمن سيعيش طويلا .

خارج المدينة

امتطينا خيولنا بعد هذا ، وفي خمس دقائق اخرى كنا خارج المدينة . ثم ملتفتين الى الوراء ، شد كل منا نفساً عميقاً فحائل بكل سحر غرابتها ، وسكانها اللطـــاف ، أصبحت كسجن باللسبة لنا . وفي وقت ما عندما تخاصمنا مع محمــد بدت كثيرة الشبه بقبر .

غادرنا حائل من نفس البوابة التي دخلنا منها ، وبدا كأنما كان قبل سنين ، ولكن بدلا من أن ندور في اتجاه الجبال ، حاذينا سور المدينة ، ثم بساتين النخيل التي هي امتداد لها في نحو ثلاثة أميال ، منحدرين الى وهدة ضيقة ، ثم خرجنا الى السهل مرة أخرى . وعند مجموعة منعزلة من شجرات الاثل ، توقفنـــا لنتمتع بالظل للمرة الاخيرة قبل أن ننضم الى ركب الحجيج الذي كان يبدو كخط طويل من النمل يعبر السهل بيننا وبين سلسلة جبل شمر الرئيسية .

صفاء الجو في الصحراء

وبدون استثناء ، كان أجمل منظر رأيتــه في حياتي وساحاول وصفه ، ويجب أن يكون مفهوماً ، منذ البداية ، ان الجو وهو دائماً صاف في جبل شمر ، كان هذا اليوم ، ذا

صفاء شفاف ، يفوق كل المرئيات في الصحاري العادية أو في المناطق العليا من (الألب) أو في القطب الشمالي ، أو في أي مكان آخر باستثناء – ربما – القمر . لأن هذا هو نفس مركز الصحراء على بعد أربعمائة ميل من البحر ، وعلى ارتفاع ٤الاف قدم تقريباً من مستوى سطح البحر .

جمال ضواحي المدينة

ومن أمامنا امتدت واجهة أمامية خشنة لرمال محمرة ، وما غسلت الأمطار من صخور جبل أجا (الجرانيتية) مع أدغال عظيمة من الاثل هنا وهناك ، أشجار عظيمة ذات فروع مقاس جذورها بين ٢٠ – ٣٠ قدماً . (قسنا إحدى هذه الاشجار ذات الفروع فوجدنا محيط جذعها ٣٦ قدماً وارتفاعه عن الارض ٥ أقدام) وتنمو هذه الاشجار على روابي صغيرة مبينة مواقع البيوت في الماضي – تماماً مثلما تفعل أشجار السدر في (سوسيكس) – لأن المدينة قد انتقلت من نهاية الواحة هذه إلى حيث تقوم الآن . وعبر هذا الرمل يمتد حزام طويل أخضر من الشعير ، ربما كان فدانين وسنابل الغلة الخضراء متألقة ، وقد ارتفعت الى المستوى الذي يسمح بحجب (السواقي) مجاري الماء . وخلف هذا ميل أو أكثر ، يتحول متلاشياً أفق الصحراء من اللون الأحمر الى البرتقالي ، حتى بقطعه ما يبدو صفحة مشعة من المياه يعكس

زرقة السماء العميقة – سراب بالطبع ، ولكنه أجمل وهم يمكن تصوره .

وعبر هذا ، وهو ما يبدو خائفاً في الماء ، كان خط جمال الحجاج ، وكل واحد منها ينعكس تماماً في السراب الذي تحته مع نقط زرقاء ، وحمراء ، وخضراء وقرنفلية ، ، ممثلة الفش أو الخيمة التي يحملها . ويمكن ان خط الموكب كان خمسة أميال أو أكثر طولاً ، لم نستطع أن نرى آخره . وما وراء ذلك ، مرة أخرى ، شمخت قنن جبل (أجا) بلون الياقوت في كتلة مختلطة رائعة ، كأغرب وأجمل سلسلة جبال يمكن أن تخطر على الخيال – مرأى حبيب . !!

الكاتبة وزوجها يهزجان بالعربية !

وبعد ان توقفنا معجبين بكل هذا ، وانهيت رسما تخطيطياً له – فلم يكن هناك من داع للسرعة – امتطينا جيادنا من جديد وانطلقنا نعدو متمتعين – نحن والجياد – بجريتنا ، ونغني اغنية شمر :

مَا ريدَ انا رِكْبَ الذَّلولْ

لَوْ رَبَّنُوا لِي شَدَادَهـا

أريدَ انا حَمْراً بِنْبُوفْ

حَمْراً سِربيعْ أوْزَادَهـا

وهَزْجنا بهذه الأغنية أثرْ في جيادنا أكثر مما كان يستطيعه

سوط أو مهماز ، وجعل الجمال عندما قربنا من قافلة الحج ، تجفل، ودفع الحجاج الى ان يفزعوا ظانين ان بدو(حرب) في طريقهم اليهم مرة أخرى .

اللحاق بالحجاج :

هكذا سرنا يتبعنا محمد حتى وصلنا الى طليعة الحجاج والى العلم ذي اللونين الاخضر والاحمر الذي يسير امام الموكب . وبالقرب من هذا وجدنا جمالنا، وبعد ذلك بفترة وجيزة خيمنا معهم ، ليس على بعد لا يبلغ عشرة أميال من حائل ، في واد صغير ركز فيه العلم .

نصبنا خيامنا على بعد ۲۰۰ ياردة من مخيم الحج ، الذي انتصب في احتشاد خوفا من اخطار الصحراء .

أذن المؤذنون لصلاة المغرب، وها هم الناس يؤدون عبادتهم خيولنا تقضم شعيرها ، وصقرنا (وهو طائر مدرب اشتريناه امس بستة مجيديات من بدوي في حائل) يقبع امامنا ناظراً الى وكره . انه مساء بارد ، ولكن آه كم هو نظيف ومريح في خيمتنا !

الامير الرشيدي يؤخر سير الحجاج

٢ — فبراير :

يبدو أن نصف الحجاج فقط غادروا حائل أمس . لقد

كانت هناك صعوبة فيا يتعلق بالجمال – يقول البعض ، ويقول آخرون إن ابن رشيد لن يتركهم يذهبون. ويحتمل أنها مسألة نقود في كلا الحالين . وهكذا ما كدنا نسير حوالي الميلين ، حتى اصدر أمير الحج (عنبر) وهو عبد اسود لابن رشيد أمراً بالتوقف، وبقيت الجمال وراكبوها متراصة على قطع مرتفعة من الارض ، لغرض عدم – كما نظن – وعلى اية حال ، فقد استمر الدراويش والحجاج المشاة في سيرهم كما يحبون، وكذلك فعلنا نحن ، لاننا لا نعتبر انفسنا مقيدين بأية قاعدة من قواعد موكب الحج ، وعند عبدالله اوامر ان يسير جمالنا خارج حدود الجماعة الرئيسية .

لم يكن هناك أي طريق أو درب اليوم ، وواصلنا سيرنا في مكان ما ، امامنا ، عابرين ارضاً صعبة ووديانا هي أقرب الى الوهاد ، لقد اصبحنا الآن – بحثا عن ماء سمعنا انه يقع – متعودين على الصحراء ، الى حد اننا ميزنا الماء من بعد كبير ، مخمنين موقعه عن طريق اللون الابيض للارض القريبة منه . ان البياض سببه ترسبات شبه صخرية يكونها الماء حينما يبقى طويلا في أي مكان وفي هذا المثل يقع في مستودعات طبيعية أو في عدة مستودعات في بطن واد ضحل. وهذه (المستودعات) لا بد انها قد امتلأت في وقت ، ماء اثناء الشتاء بفعل المطر ، واسرعنا لنملأ قربنا منها ، وهي لا تزال نظيفة ، لأن الحجاج سريعاً سيشربون منها وسيلوثونها. انها ليست سوى برك صغيرة وجدنا (عواد) قد وصل الى هناك، وكان قد ارسل في المقدمة

مع ذلول ليضمن تموينتنا،ولم تكد اجراءات ملء القرب تنتهي حتى وصل الدراويش الذين يسيرون دائماً على رأس الحجاج . ولهم عادة كريهة هي انهم يغتسلون في الماء اولا ، ثم يشربونه بعد ذلك ، وهي طبقاً لما سمعنا جزء من طقوسهم الدينية .

كانت الريح تهب بعنف طول اليوم محملة بقدر كبير من الرمال ، ولكنها الآن قد كفت . كان طريقنا منذ غادرنا حائل شرقاً بشمال . ويتجه نحو تل مرتفع ، جبل (جلديه)، وهو علم بادي الظهور . ان مخيمنا الليلة أسمر منه بالامس لأنه أبعد عن الحجاج ؛ ولدينا واد صغير كله لنا ، مع وفرة في الوقود الجيد ، وعلف للجمال .

٣ – فبراير :

مع ان النيران اوقدت هذا الصباح في الساعة الرابعة كما لو كان استعداداً للرحيل المبكر ، فلم تبدا اية حركة ، اليوم . نصف الحجاج ما زالوا في حائل – كما اخبرونا – ويجب ان ينتظروا . ذهب اليوم (ولفرد) ليبحث عن صديقنا (علي كولي خان)، ولكنه لم يجد احداً سواء هو او عبد الرحمن، او أي شخص آخر يعرفه قد وصل .

مقارنة بين اخلاق العرب واخلاق

العجم

ان الحجاج الفرس ، مع انهم غير مقبولين في أشخاصهم

وعاداتهم (لأنهم يفتقرون الى اللباقة التي هي سجية عربية) وَدُودُون بشكل كاف ، ولو أمكن التحدث اليهم ، لكان ذلك ممتعاً ، غير انهم يبدون من المقارنة السطحية مع العرب أفظاظاً وعلين . ومعظمهم ذوو سحن صافيــة ، وقد يكون شعرهم أشقر وعيونهم زرقاء، ولكن ملامحهم خشنة (غليظة)، وهناك من الفرق الكبير بينهم وبين (شمر) الذين يحرسونهم مثل الفرق بين حصان عربة (هولاندي) وبين مهر من أمهار ابن رشيد . وبالرغم من الاستحمام الذي يقومون بـه بمناسبة وبدون مناسبة طول اليوم ، فانهم يبدون قذرين ، بشكل لا يوصف ، في ملابسهم ذات الملمس النعني ، كما لم يبد أي عربي لم يستحم . وبين آونة وأخرى يثور النزاع بين(عواد)والآخرين وبينهم كلما اقتربوا من خيامنا بحثاً عن وقود ، ومن الواضح انه ليس هناك حب مفقود بين الفرس والعرب .

قضيت يومي بشكل مريح في المنزل،أعيد حشو سرجي، الذي كان يحتاج الى ذلك بشكل يرثى له .

وقد عاد محمد الى نفسه الاصيلة تماماً ، بدون تعاظم ، ولا تظرف من أي نوع ، ويقول : ان هواء حائــــل لم يناسبه . ويبدو أنه الآن قلق ليمحو كل أثر لذكرى الماضي ، وقد جعل نفسه مقبولا ، يحكى لنا القصص المتعلقة بـ (السبعة)وخيولهم وكلها ذات عبرة ، وبعضها مسل .

يوم آخر.. حتى يؤذن للحجاج بالسفر

٤ - فبراير : -

يوم آخر من الانتظار ، والحجاج مثلنا عجلون ، ولكن العجلة ليست حسنة . ولكي نشغل الوقت ، ذهب (ولفرد) بنفسه في عملية مسح ، مع مهره والكلاب السلوقية ، سار في خط مستقيم في اتجاه الشمال ، نحو صف من التلال المنخفضة ، التي يمكن رؤيتها من هنا من الارض المرتفعة وهي على بعد ١٢ ميلا . لم يقابل أي انسان ما عدا بدويين على ذلول ذاهبين إلى (عطوه؟) حيث توجد بئر - على حد قولهما . نظرا اليه والى بندقيته بريبة ، ولم يحبا أن يكونا موضع استجواب . وبعد ذلك وجد الصحراء خالية من الحياة ، متتابعات من السهول الرملية المستوية ، وسلاسل خشنة من الصخور الرملية . والتلال ذاتها التي وصلها قبل ان يقفل عائدا كانت ايضا من الصخور الرملية الصفراء ، تميل إلى السواد في بعض البقع ، ومن قمة السلسلة قدر ان يميز النفود كبحر احمر . وقطع المسافة ذهابا وأوبة في ثلاث ساعات عدوا . وكان ذهابه مفيدا من حيث انه مكنه من ان يعرف موقع عدد تلال رئيسية ، (باطب) و (جلدية) ، وتلال أخرى ، ويضعها على خريطته . لم يخبرني أين كان قاصدا ، وبما ان الامر قد وقع ، فقد عاد قبل أن يمر وقت كاف يجعلني أقلق .

وفي الوقت ذاته ، كان عواد وعبد الله بمطيان الصقر درسا

بطعم صنعاه من الخلاة . ويبدو أن الطائر أليف، فيذهب إلى عواد عندما يدعوه صائحاً (اشو آشو) ، والتي يفسرها بانها اختصار لاسمه ، (رشام) وهي تحريف لكلمة (راشمون) والتي تعني (لامع كالبرق) . وتأمل الآن بمساعدة (رشام) أن يكون مــددنا من اللحم متصلا ، فان الارانب البرية موجودة بوفرة .

جاء زوار بعد الظهر ، بعضهم بدو من شمر من عائلة ابن طوالة ، الذين فضلوا أن يخيموا بجانبنا ، كجيران أخف ظلا عليهم من الفرس . انهم في طريقهم من حائل إلى خيامهم في النفود ، ومعهم رسالة من الأمير أن جمالا اخرى مطلوبة ، ثم يذهبون بعد ذلك مع الحجاج إلى مشهد علي ، وربما حتى السماوة على الفرات ، ليشتروا رزاً (تمّن) وبرا .

مرتين في السنة فقط يستطيع جبل شمر أن يتصل بالعالم الخارجي ، مناسبة عبور الحجاج ذاهبين وعائدين من مكة . انهم حينئذ يجمعون مؤنهم للسنة . وأكبر هؤلاء (الطولة) رجل في الستين من عمره ، حسن الطباع ، ولطيف ، تناول غداءه مع محمد والخدم في خيمهم ، ثم جاء للجلوس معنا بعد ذلك في خيمتنا . اننا حائرون بين أمرين : بين أن نسافر مع الحجاج المتلكئين وبين أن نذهب معه غداً . ولكن خيامه تقع – إلى حد ما – يسار طريقنا .

وبالاضافة إلى (الطولة) ، يوجد بعض فقراء البدو مع جمالهم التي أخذوها في وادينا،حتى تكون بعيدة عن الأنظار. انهم خائفون أن يوهموا بانهم حجاج،وفي البداية كان من الصعب أن نفهم سبب هذا الخوف .

وإذا كان الأمر كذلك ، فكان يجب أن يقتربوا منه . ولكنهم أوضحوا انهم أملوا أن ينغمروا في الحشد ، وأملوا أن ينالوا ميزات مصاحبته ، بدون أن تثقل جمالهم بالأحمال. وهم ، مثل غيرهم في طريقهم إلى (مشهد علي) لشراء حنطة.

هناك اخبار ان الامير قادم غداً من حائل، وانه سيسافر ثلاثة ايام مع موكب الحج ، متجها بعد ذلك الى حيث لا يعلم انسان ، في غزو . سيكون هذا امراً متعباً ، لأننا الآن ، وقد ودعناه ، نريد ان نبعد عنه .

رحلة قصيرة

٥ فبراير :

واخيراً تحركنا ، ولكن عشرة اميال اخرى فقط ، الى واد اكبر ، يبدو انه مسيل الجهة بأكملها ، ويدعونه وادي (الخنصر) ، اما لماذا سمي هكذا ؟ لا استطيع القول . وتوجد هنا عدد من الآبار ، وبقع كبيرة من كلأ الإبل ، من النوع الذي يسمى (رمث) وتكثر في هذا المكان

الارانب البرية ، وقد قمنا ببعض المطاردة مع كلابنا السلوقية ، يساعدها كلب من كلاب الصيد ، ألحق نفسه بنا ، ويسميه الخدم (مرزوق) ، وهو حيوان غير جذاب ولكنه يمتاز بجسامة شم قوية .

مكان اثري ، ذو كتابات وصور

وبعد ساعتين أتينا الى تل عجيب يلتصب وحيداً في السهل . وهو ، مثل سائر الجهات ، الآن ، من الصخر الرملي وسرنا ان نجده مغطى بنقوش ، وصور طيور وحيوانات من نفس النوع الذي شاهدناه من قبل ، ولكنها بطريقة احسن كثيراً ، وعلى مقاس اكبر [1] .

والكتابة ، اياً كان اسمها ، جميلة جداً وواضحة ومتناسقة كوضوح وتناسق الحروف الاغريقية او اللاتينية الكبيرة ، وبعض الرسوم لها خصائص الفن الخام ، ولكنها فنية حقاً ،

(١) يخبرني السيد رسام ، الذي أجرى حفريات في بابل ، ان هذه النقوش هي بالحروف الفينيقية القديمة . ويبدو أن الفينيقيين ، وهم أمة من التجار ، كان من عاداتهم ارسال مسافرين تجاريين بعينات من بضائعهم في كل أنحاء آسيا . وحينما يتوقفون على الطريق ، ينقشون اسماءهم ، اذا وجدوا صخرة لينة ، ويرسمون صور حيوانات . وقد يكون هذا التفسير هو الصواب ، لكن كيف يعمد هؤلاء التجار الى اختيار موضوعات صحراوية بحتة لفنهم جمال ، ونعام ، ووعول ، وفرسان برماح . اني اتخيل أن هذه من أعمال العرب . أو من يمثل العرب كائناً من كان ، في عهد مضى ، انها على أي حال من أعمال قوم كانوا يعيشون في البلد . ولكني لست من علماء الآثار . (الأصل)

وهي لا يمكن ان تكون عمل مجرد بربريين

ومن الملحوظ ان الحيوانات الممثلة هي بشكل اساسي عربية ، الغزال، والجمل ، والوعل ، والنعامة . ولاحظت ايضاً ان شجرة النخل عولجت بطريقة تقليدية ، ولكن لا شيء مثل بيت ، او حتى خيمة . والموضوع الرئيسي هو تكوين من جملين متقاطعي العنقين ، هو تكوين لا يستهان بخصائصه ، ويصاحبه نقش منتظم الحفر . ويدل على ان هذه الاشياء قديمة . لون الخطوط ، والصخرة من اصل رملي محمر ، مع ميل الى الاسوداد ، ومن الواضح ان الحروف والرسوم عندما كانت جديدة كانت حمراء على ارضية سوداء ولكنها الآن قد تغلب عليها مرة اخرى ، وهي عملية لا بد انها احتاجت الى قرون لتحدث تأثيراً في هذا المناخ الجاف .

كنا في مقدمة الحجاج عندما اتينا إلى هذا التل (تل السلية ؟) وانتظرنا على قمته ، بينما كان الموكب يمر بنا ، ساعة أو اكثر . كان منظر غريبا . ومن الارتفاع الذي كنا نقف فيه ، استطعنا أن نرى مسافة ثلاثين أو اربعين ميلا ، حتى جبل (أجا) على السفح الذي تقع عليه حائل .

موكب الحجاج

وكان الموكب بطول ثلاثة أميال ، مؤلفا من نحو أربعة آلاف جمل (ولم يكن هذا كل الحجاج) ، مع عدد كبير من المشاة .

وفي المقدمة كان الدراويش ، يسيرون مسرعين ، يجرون تقريبا ، أناس قذرون متوحشون ، ولكنهم لطيفون ، ومستعدون لتبادل الحديث . لو كانوا يعرفون العربية ، ثم مجموعة من الناس في ملابس محترمة ، يمشون بدافع الورع ، رجل بعمامة خضراء ضخمة نعتقد أنه افغاني ، وشاب نحيف ، حسن المنظر ، قد يكون من الكتبة أو مساعد صاحب دكان ، يقرأ في قرطاس ملفوف يمشي . وآخرون يحملون في ايديهم زمزميات من الجلد تحتوي على ماء وضوئهم ، الذي يقفون بين آونة وأخرى ليقوموا به . وأحيانا يغنون أو يرددون أدعية

كل هؤلاء المتعبدين خشنون معنا ، لا يردون إذا حييناهم ، ويسقطون في الفزع إذا اقتربت منهم الكلاب خشية أن تمسهم فتدنسهم . وقف واحد منهم ، الشاب ذو القرطاس الملفوف ، هذا الصباح عند نارنا ليدفىء يديه ، فقدمنا له كوبا من القهوة ، ولكنه قال : انه قد افطر ، واستدار ليتحدث إلى الخدم ، زملائه المسلمين ، غير ان الخدم أخبروه أن ينصرف ، لأن رفض فنجان من القهوة عند العرب يعتبر اهانة ، وتكادتكون معادلة لاعلان حرب ، ان العرب لا يفهمون تعصب الشيعة الفرس الديني .

الموكب .. والعلم الرشيديان :

وخلف هؤلاء المسرعين في المقدمة يأتي (البيرق) محمولا في وسط جماعة تمتطي هجنا عليها حلى ، وتمشي مسرعة . هذه المخلوقات الجميلة لها معاطف كالاطلس . وعيون كعيون الغزلان ، وحركة رشيقة يعجز عنها الوصف حتى الحصان العربي ليس له مثل منظر الجمال الكريمة الاصل ، انها تعرف بـ (النائمية) لان المرء قد يذهب في النوم وهو راكب عليها دون أدنى هزة تزعجه .

و (البيرق) وهو لواء ابن رشيد ، مربع من الحرير الارجواني ذو حافة خضراء يتوسطه شعار أبيض . ويقوم بحمله خادم على هجين طويل ، وعادة يطوى جزئيا اثناء السير ، و (عنبر) أمير الحج الزنجي ، غالبا ما يصاحب هذه المجموعة وله مهر صغير أبيض يسوسه عبد يسير وراءه لم نره راكبا .

وخلف (البيرق) يأتي جمع الحجاج ، كل اثنين يركبان جملا أحيانا ، وعلى الجمل أحيانا صندوقان من كل جهة . يضمان الاثاث . والجمال يملكها البدو ، هم غالبا من شمر ، وكثير منهم من الغير ، أو الشرارات أو (الحويس ؟) ويسيرون وراء جمالهم مشيا على الاقدام ، وهم في خصام دائم مع الحجاج ، الا أنه لو وصل الامر إلى الاشتباك فان شرطة ابن رشيد الهجانة تتدخل ، وتنتهي الخصومة بطريقة مختصرة .

بين الفارسي .. وبين الجمل !

والفارسي ، وهو يركب جملاً أعظم منظر في العالم مثير للسخرية . فهو يصر على أن يركب مدلياً رجليه على الجانبين ويبدو أنه غير قادر على الأطلاق ان يفهم طباع (الحيوان) الذي يركبه ، وهو يتحدث اليه بصوته النشاز بلغة لا يمكن أبداً لجمل عربي أن يفهمها ، والنكات التي يطلقها العرب على الفرس لا تنقطع قط من الصباح حتى المساء .

وصف المحمل (الهودج)

وأحسن طبقات الحجاج ، وطبعاً جميع النساء عدا الفقيرات ، يسافرون على محامل – ملال من القش على كل جمل منهما اثنان – مغطاة ، مثل عربة التاجر بستارة زرقاء او حمراء ، شخص او اثنان يملكان (تختروانات) ، وهي معدات اكثر تكلفة ، وتحتاج الى بغلين – او جملين لحملها – واحد من الامام وآخر من الخلف ، وفي أي من هذين الوسيلتين يمكن المسافر ان يقعد القرفصاء او يتمدد لينام ، والجمال التي تختار لحمل المحامل قوية ، ذات خطو مستو ، وبعض هذه (الهوادج) المزدوجة مهيأة بعناية ورشاقة بالبسط الفارسية الفاخرة ، ويقود الجمل سائق موثوق به ، ويسير الخدم أحياناً على جانبه (الجمل) ويحتفظ احد الحجاج برجل يمشي أمامه يحمل (نارجيلة)

يدخن منها بواسطة انبوبة طويلة ، وهو جالس في (الهودج)
ويوجد عدد من الخيول - ربما ستة . ويسمى احدها (خيلان
حرقان ؟) اشتراه منذ يومين حاج غني من بدوي من شمر -
أحد الحرس . ويبدو ان هذا الحصان كريم الأصل . طبقاً لما
يستطاع الحكم عليه من رأسه وقنبه ؟ وارساغه، وبقية جسمه
يخفيه (بعلان ؟) او سرج للحمل - مزين بالحلي ، وعليه
يركب مالكه الجديد . ولم أر شيئاً آخر يستحق الذكر

تتابع الموكب أمامنا بينما كنا جالسين على تل (السلية)
فوق رؤسهم تماماً .

حجاج من أهل المدينة

عرفنا بعض الناس - حجازيين من المدينة - الذين أتوا
اليوم إلى خيمتنا وجلسوا بعودة لشرب القهوة معنا . والحجازيون،
ولو انهم معدودون عرباً خلصاً ، سود كالزنوج تقريباً ، ذوو
ملامح قميئة دنيئة ، لا تشبه قط ملامح شمر والعناصر القحة
التي شاهدناها . وهم يفتقرون أيضاً إلى الكرامة ولهم سمعة
غير حسنة ، في هذا الجزء من بلاد العرب .

حديث مع شيخ الحرم المدني

وكان هؤلاء أناساً معروفين . ورئيسهم ، (صالح بن

بنجي ؟) هو سادن المسجد الكبير في المدينة ، وهو الآن مسافر إلى فارس لجمع الصدقات . وقد أخبرنا انه ، مع عزمه التام على أن يصادقنا هنا ويشرب قهوتنا لا يستطيع أن ينصحنا بالذهاب إلى المدينة . لا لأن ليس للانجليز كانكليز صيت حسن ، ولكن لأنه يخالف القاعدة : (لن يسمح لغير المسلمين بدخول المدينة) فاذا جئنا كمسلمين ، فذلك حسن ، أما كنصارى فغير ممكن – انه هو نفسه سيكون أول من يحاول أن يتمم موتنا . لقد وجدوا يهوديا في السنة الماضية في المدينة فأعدموه ، وغضب الناس جداً لأن السلطان أرسل مهندساً (افرنجيا) ليقوم بمسح المنطقة، وأشاع انه كان مسلماً. وتطبق القاعدة بالنسبة للمدينتين المقدستين ، مكة والمدينة ، وليس لبقية البلاد .

والمسلمون من رعايا الملكة (فكتوريا ملكة انجلترا) الذين يأتون من الهند يستقبلون دائما استقبالاً حسنا (حتى ولو كانوا شيعة) ، وكذلك سنكون لو أسلمنا .

والفرس ، وان عاملهم الحجازيون بتسامح ، مكروهون كفرس ، وزنادقة ، وكثيراً ما يضربون في المدينة . وهو ، (أي صالح) كان ذاهباً ليجمع منهم نقوداً ، وكأنهم أغبياء إلى الدرجة التي يعطونه اياها، إلا أنه لم يحرص على مرافقتهم، انه حالاً سيسافر معنا . وقد نلتقي في هذه الجولة خلال فارس . شيء واحد لم يستطع فهمه عن الحكومة البريطانية ،

هو : ما هي مصلحتها القنصلية في تدخلها في تجارة الرقيق ؟.
قلنا : انها منع القسوة. ولكنه أصر على ألا قسوة فيها وسأل:
(من ذا الذي رأى زنجياً تساء معاملته ؟) لم نستطع أن نقول
اننا رأينا ذلك في بلاد العرب ، وحقاً انه لشيء مشهور أن
العبيد عند العرب كالأطفال المدللين أكثر من كونهم خدماً .
وكان علينا أن نوضح أن العبيد أسيئت معاملتهم في اقطار
أخرى ، ولكن بما أن (صالحا) ظل غير مقتنع ، فاننا
استطعنا فقط أن نخلص إلى أن ننتهي إلى ملاحظة عامة ،
وهي أن هذا التدخل في تجارة الرقيق هو (شغل حكومة)،
وليس من شئوننا . ويبدو أنه مطلع اطلاعاً لا بأس به على ما
كان يجري في العالم فقد سمع عن الحرب الروسية ، ولو انه لم
يسمع كل الظروف المتعلقة بانتهائها ، والتنازل عن (قبرص)،
التي أشار الينا على أن السلطان أعطاها كـ (بخشيش) لملكة
الانكليز . وكانت آخر كلماته : (الكلام بصراحة أحسن .
هنا أنا صديقكم ، لكن ، تذكروا ، ليس في المدينة ، لأمر
يتعلق بالدين) .

من (حائل) الى (الفرات)

« تعالى ، يا ميرها ، فلنذهب الى الفرات . »

بيرون

٦ فبراير : (١٨٧٩ م) .
نحن متعبون من تلكؤ الحجاج ، وفوق ذلك ، لا نحرص

أن نرى ابن الرشيد الذي يتوقع وصوله اليوم ، مرة أخرى . انها قاعدة طيبة الا تتجاوز اقامتك الترحيب بك ،وأن تذهب عندما تكون قد قلت كلمة الوداع ، وهكذا ، عندما لم نجد أية شارة للتحرك في معسكر الحجاج هذا الصباح ، قررنا أن نسير بدونهم . اننا لم نذهب بعيداً بعد ، حقا ، فمن الأرض العالية حيث نخيم نستطيع أن نرى دخان المعسكر يرتفع في طرف السهل ، ويوجد كلأ وفير هنا .

(بقعاء) أو (طيبة اسم)

ولدينا منظر رقيع واسع الى الجنوب والغرب جبل « جلدية » في اتجاه الجنوب منا ، وجبل « أجا » الى الغرب بجنوب ، وحائل على بعد اربعين ميلا تقريبا ، والى الشمال النفود ، وخلفنا من الشرق الى السلسلة التي فوق مخيمنا ، نستطيع ان نتصفح سبخة تبعد ستة او سبعة اميال ، مع واحة (بقعا) او (طيبة اسم) — طاب اسمها — حول شواطئها . لقد كان المحل يسمى دائما (نقعة) ، هكذا أخبرنا ، حتى سنوات قليلة ، حينما ظن ان الاسم كان سيء الحظ ، أوغيره ، ولو انني لا استطيع ان افهم تماما لماذا ، لأن الكلمة تعني المكان حيث يمكن ان يجمع الماء .

لحم ارانب برية .. على ضوء القمر

طيرنا صقرنا اليوم ، وبعد مرة او مرتين من خيبة الأمل

قبض لنا على ارنب بري . ان الوديان مليئة بالارانب البرية ، ولكن الكلاب لا تستطيع رؤيتها في الاجمات العالية ، وكان هذا هو الوحيد الذي انطلق في المكشوف . خيمنا في وقت مبكر ، واننا لننعم بالعزلة . سيكون القمر مكتملا الليلة ، وانه ليدفع الى التفكير ،كم من ضوئه قد ذهب سدى بالتأخير ، ان القمر ذو فائدة قليلة للسفر بعد ان يكتمل .

٧ فبراير (١٨٨٠م)

مع اننا لم نحرك مخيمنا اليوم ، فقد ركبنا طويلا ، وبلغنا بعيدا حتى قرية (طيبة اسم) ، التي هي جديرة بالمشاهدة ، انها مكان غريب ، يشبه (جبة) فيما يتعلق بالموقع . حقا ، يبدو محتملا ان معظم مدن نجد تشترك في هذا المدح ، ذلك انها تقع في تجاويف ينصرف الماء نحوها ، كما انه في موقع كهذا يمكن ان تحفر الآبار بدون جهد كبير ، مثل جبة ، قطيبة اسم سبخة ، ولكن الاخيرة في جملتها واسعة اكثر اهمية ، لأن بساتين النخيل تصل تقريبا الى كل ما حوالي البحيرة ، ولو انها ليست متصلة تماما ، فمن المحتم ان لها امتداد يبلغ اربعة او خمسة اميال . وتبدو البيوت متناثرة في مجموعات على امتداد هذا الطول ، وليس هناك مدينة خاصة [١] .

---

(١) كانت طيبة اسم هي المكان الذي فر اليه عبد الله بن سعود منذ عشر سنين حينما أخرجه أخوه من العارض ، ومنها أرسل تلك الرسالة الغادرة الى مدحت باشا في بغداد والتي أتت بالترك الى الاحساء ، وحطمت الامبراطورية الوهابية وهناك وجدت بقع من رمل النفود مع عاذر النفود الأخضر . (الأصل)

(جيولوجية) اقليم الجبل

(ان جيولوجية) الاقليم هي أكثر ما يثير الاهتمام ففي طرف السبخة ينبثق الصخر الرملي من جروف غريبة رائعة ، ليس أكثر من ٥٠ قدماً ارتفاعاً) ولكنها ذات شكل مهيب بعضها ، وقد اتخذ شكل الفطر (نبات المشروم) يكشف أن السبخة كانت حتما في زمن ما بحيرة هامة ، بدلا من الشبيه الجاف لبحيرة كما هي الان . قسنا أكبر هذه ، فوجدناها اربعين قدما طولا باتساع ٢٥ قدما في اعلاها ، بجذع ذي خمسة اقدام فقط ، والكتلة كلها ترسو على قاعدة عالية . وبدت الصخور الاخرى كما لو كانت قد بردت فجأة وهي في حالة غليان وحارة حمراء ، وتحجرت الفقاعات عندما جمدت . كانت هناك الواح عريضة من الصخر ذات لون وردي مثل القشدة بالفراولة (كريم فراولة) اكثر من صب القشدة فيها ولما تمزج بعد، معرقة بلون أحمر فاتح وأبيض. وهنا النبات نامياً عليها ، مع تجمعات من النخيل الوحشي ، ونباتات الطرفا مع بركة أو بركتين من الماء المر .

واحة (بقماء)

والسبخة ، ولو أنها جافة تماماً ، بدت مثل بحيرة هكذا كان السراب كاملا من الماء الازرق الصافي بدون تموج تعكس

النخيل والبيوت على الشط المقابل . درنا الى بعض من هذه ، فوجدنا بساتين جميلة،ومزارع حسنة مع بقع من الشعير الاخضر نام في الخارج، كانت هذه تروى من آبار عمقها حوالي ٥ ؛ قدماً ذات ماء طيب ، منع الناس منه من اجل أمهارنا للسقي . مررنا ولكننا لم نذهب داخل قصر الميدان الكبير الذي يملكه ابن رشيد ، حيث كان بضعة (دزن او هكذا) من دراويش الحج يتسكعون حوله - سألونا عن الأخبار ما اذا كان الامير قد جاء ، وما اذا كان الحجاج ما زالوا منتظرين . ولم يكن معظم هؤلاء من دراويش الفرس ، ولو انهم شيعة ، بل من بغداد ومشهد على ناس من العنصر العربي .

لبن الابل.. ورسالة من الامير

وفي طريق عودتنا ، مررنا بجماعة من بدو شمر ، يأتون بجمالهم للسقيا من النفود ، وهو قريب من هنا.قدموا لنا بعضا من اللبن لنشرب ، اول ما ذقنا هذا العام. كانت هناك نساء معهم . قابلنا ايضاً رجلا وحيداً على ذلول رفيعة . وابدى محمد ملاحظة عن هذا الحيوان كانت نوعاً ما عارية عن الثناء وعند ذلك اوضح المالك في ازدراء عظيم انها كانت (بنت عدهان) ، احسن سلالة للنجائب في بلاد العرب ، وان محمدا لو قدم له مائة جنيه لما باعها ؛ وانها كانت الراحلة التي كان ابن رشيد يبعثها في مهمات تحتاج الى سرعة . ثم هب مبتعداً

في خطوات ، رغم انها بدت شيئا لا يستحق الملاحظة ، فانها سرعان ما اخفته عن الانظار .

ذهب عواد وابراهيم القصير عائدين الى معسكر الحجاج من اجل الماء، وعادوا يحملون اخباراً تقول: ان الامير وصل بالفعل ورسالة منه، مؤداها اننا اذا ذهبنا الى آبار (الشعيبة) فسوف يقابلنا هناك .



القسم الأخير : عن الخيل

(هذا هو الفصل الثاني عشر ، تصف فيه الكاتبة مشاهداتها عن الخيل في نجد –

وموضوع الخيل كان هو الدافع الأول للقيام بالرحلة) وقد أنشأت الكاتبة اصطبلا (مزرعة) في لندن ، لتربية الخيول العربية ، لا يزال موجوداً) .

شهرة خيل ابن رشيد

« ولم اجد فيها هذه الاشكال التي توقعت ان اجدها في موطن زيد الخيل » — غراماني[1]

وعدت بفصل عن الخيل التي رأينا في حائل ، وقد يكون حسناً أن آتي به هنا .

ان مزرعة ابن رشيد لتربية الخيل هي الآن أشهر من نار على علم في جزيرة العرب ، وقد احتلت في تقدير الجمهور مكان مزرعة فيصل بن سعود التي رآها المستر بلجريف منذ ستة عشر عاماً في الرياض، والتي وصفها في فقرات تصويرية أصبحت منذ ذلك الحين موضع اقتباس .

ويكمن السبب في انتقال التفوق هذا من العارض الى جبل شمر في التغييرات السياسية التي حدثت منذ ١٨٦٥ ، والتي

---

(١) كارلو غراماني رحالة اوربي جاء الى حائل سنة ١٨٦٤ م للبحث عن الخيول الأصيلة (أنظر طرفاً من أخباره في كتاب « اكتشاف جزيرة العرب » ص ٢٨٨) وزيد الخيل هو الفارس الطائي المعروف .

أخرجت زعامة اواسط بلاد العرب من أيـــدي آل سعود ووضعتها في أيدي أمراء حائل .

وليس محمد بن رشيد الآن أقوى شيوخ البدو فحسب ، بل أغنى أمير في بلاد العرب ، وبهذه الصفة لديه من الوسائل أفضل مما لدى الآخرين لاقتناء أحسن خيول نجد ، وما كان هو ليهمل هذه .

ان امتلاك أمهار أصيلة هو بين العرب دائماً رمز للقوة ، وبفقدان مركزهم المتفوق في نجد ، فقد آل سعود سيطرتهم على السوق ، ومالت حظيرتهم لتربية الخيل الى التضاؤل ، وان نزاع الاخوين عبدالله وسعود ، ابني فيصل ، عند موت أبيهما ، وانتصاراتهما وحروبهما المتبادلة في العاصمة ، والتدمير الذي أنزله الترك بهما ، كل ذلك حطم مؤسسة اعتمدت على الثروة والأمن والطمأنينة من أجل صيانتها ، وفي اللحظة الحاضرة اذا صح ما تتحدث به التقارير الشائعة لا يكاد الجزء الذي بقي في الحظيرة القديمة يوازي الخمس . وانتقلت البقية الى أيد أخرى .

خيل آل سعود :

أما ان حظيرة فيصل لتربية الخيل في أيامها كانت أحسن حظيرة في بلاد العرب فذلك محتمل ، وقــد تكون – لعدم

وجود تجميع الآن هناك -- مزية مساوية ، الا أن هناك سبباً صغيراً ، فيما يبدو ، لافتراض انها اختلفت في أي شيء فيما عدا الدرجة عما رأينا نحن بانفسنا ، او ان الحيوانات المكونة لها كانت متميزة عن تلك التي لا تزال تمتلكها مختلف قبائل البدو في نجد . على العكس ، كل تحرياتنا (ولم ندخر مناسبة لطرح اسئلة) تميل الى أن تبين ان من الخطأ ان نفترض أن الخيل التي يحتفظ بها أمير الرياض كانت من سلالة خاصة ، حوفظ عليها في مدن العارض منذ أزمنة مغرقة في القدم ، أو انهــــا كانت مختلفة بأي شكل عن تلك التي تربى في أي مكان آخر ، في أواسط بلاد العرب . كانت ، كما أكد لنا مراراً ، مجموعة جلبت من قبائل شتى من (النفود) -- مجموعة رفيعة ، بدون شك ، الا أنها مع ذلك مجموعة ، كل بدوي سألناه ضحك من فكرة كونها سلالة نجدية خاصة ، توجد فقط في العارض . في معرض الاجابة على أسئلتنا ، اخبرنا ان مسنين من الرياض في أيام فيصل كانوا دائماً في بحث عـــن الأمهار حيثما أمكنهم وجودها ، وان الامير كثيراً ما قام بغزو ضد هذه القبيلة او تلك ، دون أي غرض آخر غير حيازة حيوان معين من سلالة معينة . والقبيلة التي حصل منها على أحسن السلالات : (حمداني السمري)و(كحيلان الكرش) كانت (مُطَيْر) أحياناً تسمى (الدوشان) ، بينما أمدته بنو خالد ، والظفير ، وشمر ، وحتى عنزة بعينات في مناسبات . وما يزال عبدالله بن سعود ، خليفته ، يحتفظ بقليل منها.

انتقال الخيل الى آل رشيد

ولكن معظم المجموعة قد تشتتت ، انتقل الكثير من أحسنها إلى ايدي (متعب) و (بندر) سلفي محمد بن رشيد ويتبع محمد نفسه بدقة نفس النظام ، باستثناء انه لا يأخذ بالقوة ، بل بالثمن . فهو يقوم بعمليات الشراء من جميع القبائل المحيطة ، ولو انه يربى في المدينة ، فمجموعته باستمرار تجد مدداً من الخارج . ولو لم تكن هذه هي الحال ، فسرعان ما كانت ستتدهور ، لأن الخيل التي تربى في المدينة في بلاد العرب ، وهي تطعم في الاصطبل ، ولا تجد اي نوع من التمرين ، نادراً ما تكون صالحة للامور العظيمة .

شيء عن تربية الخيل

ان هناك فكرة خاطئة في ان الواحات ، مثل واحات جبل شمر والعارض ، هي مواقع موافقة بصفة خاصة لتربية الخيل ، وان القفار الرملية خارجها لا تحتوي على مراع . ولكن العكس تماماً هو واقع الحال . فالواحات التي تقوم فيها المدن لا تنتج شيئاً غير التمر ، ومنتجات البساتين ، كلا وليس هناك نصل واحد من الحشيش ، أو حتى عذق واحد من كلأ الابل فيما يجاورها .

وأهل المدن يحتفظون بحيوانات باستثناء قليل من الجمال تستعمل لمتح المياه من الآبار ، والا حمارا تجده هنا أو هناك . حتى هذه يجب ان تعلف اما حنطة أو تمراً ، وهذا ما لا يطيقه الا الأغنياء . إن الخيل ترف مقصور على الامراء فقط ، وحتى أغنى أغنياء المدن يقومون باسفارهم من قرية الى اخرى على اقدامهم . وفي الرحلات الطويلة تستخدم نجائب يؤتى بها من الصحراء لهذا الغرض ، وهي إما يمتلكها البدو أو يتركها أهل المدن لديهم مشاطرة . ومن جهة أخرى ، يحتوي النفود على كلأ وفير ، ليس فقط من أجل الابل ، بل أيضاً من أجل الاغنام والخيل ، وفي النفود ربى كل هذه .

وابن رشيد يذهب كل ربيع مع معظم مواشيه الى الصحراء ويتركها خلال جزء من الصيف مع القبائل ، محتفظاً فقط ببعض الحيوانات للاستعمال في المدينة . والامر لا يمكن الاصرار عليه بشدة : ان هضبة نجد العليا ، حيث توجد المدن والقرى ، قفر صخري يكاد يكون خالياً تماماً من النبات ، بينما يقدم النفود مددا من الكلأ لا ينفد . وانما يحد من القيمة الرعوية لهذا (أي النفود) الحاجة الى الماء فقط ، فالمنطقة المسكونة محدودة بالضرورة بدائرة نصف قطرها ٢٠ ميلا حول كل بئر — والآبار نادرة . هذه الحقائق ، أظن ، لما تعرف حتى الآن معرفة كافية لتقدر .

وصف لخيل ابن رشيد

اما بالنسبة لمجموعة ابن رشيد في حائل ، فقد نظرنا اليها اكثر من ثلاث أو أربع مرات في الاسطبلات ، ورأيناها في الخارج مرة في يوم عيد ، حينما هيء كل منها ليبدو أحسن ما يكون . وتتألف الاصطبلات من أربعة أفنية مكشوفة متصل بعضها ببعض ، فيها تقف الحيوانات ، وكل منهـا مربوط الى مذود مربع من اللبن . وهي ليست مستورة بأية طريقة ولكنها تلبس قطائف طويلة ثقيلة مثبتة الى صدورها . وتغل الى الارض بواحد أو أكثر من أطرافها ، وليس عليها لجم . ومن حيث أن الفصل كان شتاء ، فقد كانت في أقسى حالة ممكنة .

مظهر لا ينم عن مخبر

وكانت اولى انطباعاتنا ، كما ذكرت ، خيبة أمل . وهي إن الخيل عندما تكون في حائل لا يجري عليها تدريب منتظم ، وتبقى كما يبدو أسابيع مجتمعة مربوطة هكذا ، الا دقائق قليلة في المساء عندما تؤخذ لتشرب . وتعلف في الغالب شعيراً جافاً في الربيع فقط ، لأسابيع قليلة ، تأكل حنطة خضراء تزرع لهذا الغرض ، وبعد ذلك تؤخذ الى النفود في غزوات وانه لأمر مدهش انها تستطيع القيام بأعمالها تحت ظروف كهذه .

كان أول فناء ، يدخله المرء في مروره خلال الاصطبلات ،

بضم –عندما رأيناه– بين٢٥ الى ٣٠ مهراً. وكان في الثاني ٢٥ أخرى، موضوعة تحت ظرف معين من أجل استخدامها في حال الضرورة، ولكن حتى هذه تلقى قليلا جدا من التمرين. وكما تقف هناك في الفناء، محلولة وشعثاء، ليس لها الا قليل من تلك الروح التي يتوقع المرء أن يجدها في الخيـــل الكريمة الأصل، والمرء بحاجة الى قدر كبير من الخيال لينظر اليها باعتبارها حقاً من تلك السلالة العربية التي ليس مـــا يفوقها. ولقد وقعنا في خطأ، وخطأ شائع جداً، ان نحكم على الخيل بحالتها، لأن هذه، في حالة امتطائها وانطلاقهـــا، تغيرت هيئتها في النو.

ويمكن ان اقدم هنا وصفاً لحيوانات معينة، كتبت بعـــد احدى زياراتنا للحظيرة، وهذا قد يقدم فكرة عنها افضل من أية ملاحظات عامة. فى مذكراتي اجد ما يلي:

من أنواع الخيل

١ – كحيلة الكرش:

شقراء، ذات ثلاث قوائم بيض (مطلق اليمين)، ١٤ «قبضة»[1] او ١٤٫١، ولكنها قوية جداً؛ رأسها أبسط من معظم ما هنا– سوف يعتبر رأساً جميلاً في انجلترا – هزيلة وضيقة نوعاً ما. لها عنق ثقيل جداً، إلا ان كتفها رفيـــع

(١) مقياس طوله ١٠ سم.

جداً ، كاهلها عال ، حوافر كالصلب ،مؤخرة خشنة حتماً ، شعر كثير في الكعوب ، عندما يراها المرء في الحظيرة يميل الى القول انها ذات بقية اكثر منها ذات مران ، ولو انها مؤثرة ، وعندما يكون المرء على ظهرها ، يجب ان يكون المرء عيابا ان لم يعجب بها انها فرس محمد المفضلة ، وهي من افضل سلالة في نجد. حصل محمد على هذه السلالة من اصطبلات ابن سعود من الرياض ، ولكن في الاصل جاءت من(مطير).

٢ – حمدانية سمراء :

كميت ، من مجموعة ابن سعود ايضا ، رأس رشيق ، غير انه لا ميزة اخرى هناك ملحوظة : هذا المهر من نفس سلالة مهرتنا شريفة ، لكنها اقل منها في الدرجة .

٣ – صقلاوية شغي :

غبراء ، في غاية البساطة ، كما تبدو لأول وهلة ، واهنة الاطراف ، ذات رأس لا يثير الاعجاب بأية حال ، الا انها ذات كتفين رفيعين . وهذه الصقلاوية ذات سمعة كبيرة هنا ، وتولى اهتماماً خاصاً ، لأنها آخر ما بقي من أصيلتها ، الخلف الوحيد للفرس الشهيرة التي اشتراها عباس باشا ، الذي ارسل عربة تجرها الثيران من مصر الى نجد لأخذها ، لأنها كانت عجوزاً ، وغير قادرة على السفر سيراً ، والقصة معروفة تماماً هنا ، ورويت لنا بالضبط كما سمعناها في الشمال ، بزيادة ان

مهرة ابن رشيد هذه هي الممثلة الوحيدة للسلالة الباقيـــة في جزيرة العرب [1] .

٤ – كحيلة عجوز :

مهرة سوداء ، هادئة، ٢'٤١ قبضة، احدى قوائمها بيضاء، رائعة في كل جزء منها ، الكتف ، والجانبان ، وكل جسمها ، ارشق رأس واسع عين في كل الموجود هنا . لها حركة مثالية، رأسها وذيلها مرتفعان إلى درجة الجمال ، تذكر بمهر (بطبان بن مرشد) ولكن رأسها أرفع .

انها ملك حمود الذي هو فخور بها ، ويخبرنا أنها جاءت من جبرة شمر وانها لمفاجأة لنا ان نجد هنا مهر من بلاد ما بين النهرين ، ولكنه يروى لنا ان تبادل الخيل بين شمر الجنوبيين وشمر الشماليين ليس نادرة بأية حال ، .

٥ – كحيلة عجوز :

بلون بني غامق ، لا بياض فيها عدا بوصة واحدة في ما يعلو الحافر مباشرة ، رأس جميل، ومظهر يدل على الاصالة ، ربما كانت أفضل بالنسبة للعدو هنا ، ولو انها أقــل قوة من

---

(١) يقال ان صقلاوية عباس باشا أنجبت فلوين في مصر ، احدهما مات والاخر أهدي الى ملك ايطاليا المتوفى ، ولدى ملك ايطاليـــا الحالي خيل من نسله (الأصل).

حصان الأمير الكميت ومن مهر حمود . ومن الصعب أن نختار بين الثلاثة » .

أحسن حصان بين الثمانية جياد .

سويعان صباح : ذو قوة كبيرة ، رأس كبير وممتاز ، انه يذكرنا بمهر فارس جبر الذي هو من نفس السلالة ، من المحتمل أن بينهما صلة نسب قوية ، فله نفس الاطراف ، المقدمة كاملة ، المؤخرة قوية ولو أنها أقل تميزا . وهو ، على أية حال ، من نتاج نجد » .

صقلاوي جدران :

أغبر ، من ابن نديرى من جمسة عنزة ، عينة بائسة لتلك السلالة العظيمة ، ولكن البدو يحترمونه لأنه هو الغالب هنا ، ولو أنهم ليس لديهم في نجد صقلاوية جدران الخالصة .

خيل (عنزة) وخيل نجد

وانه أمر مثير للاهتمام ان نجد هذا الحصان يحظى بالتقدير هنا ، لان الواقع يبرهن على أن خيل (عنزة) تحتل مركزا كبيرا في النفوس في نجد وكلما ازدادت رؤية المرء هنا الخيل نجد ، ازداد اقتناعا بتفوق خيل (عنزة) من ناحية السرعة . ومع ان كل انسان هنا فخور بالخيل النجدية » ، فإنه يبدو كأمر معترف به ، أن خيل عنزة تبزها في هذه الناحية » .

« ان مهرينا (العنزيين) ينظر اليها كآيتين في السرعة ، وبمقارنة ما نرى هنا ، بما رأينا في العام الماضي في الشمال ، فأول شيء يخطر على بالنا أن هذه خيل صغيرة « بوني » ، وتلك خيل حقة . وان الفرق الحقيقي هو ليس كثيرا في الارتفاع ، ولو انه من الحتم أن هناك ثلاث بوصات في المتوسط ، كما هو في الشكل ، الذي يولد هذا الانطباع . فخيل نجد كقاعدة ، اعناقها في احتمالها أقصر ، وكذلك أجسامها ، وتقصر كثيرا عن خيل عنزة . ثم – ولو أن أكتافها بدون شك صالحة وكواهلها أعلى من تلك التي يراها المرء في الشمال – فإن مؤخرتها قصيرة ، ولو لم يكن وضع الذيل بشكل فريد ورائع ، لكانت بالتأكيد تفتقر الى ميزة . يبدو أن اطرافها طيبة الى حد بعيد ، ولكننا لم نر في أي منها ذلك الخط الرائع في الرجل الخلفية حتى الركبة الذي يجذب انتباهك في خيل عنزة الأصيلة .

أما بالنسبة لحوافرها فمن الصعب أن نصدر حكما ، فإن طول الوقوف من غير تدريب ، قد جعل حوافر أمهار الأمير تنمو نموا كبيرا . أما أعرافها وأذيالها فأثخن مما كان المرء يتوقع .

« وفي رؤوسها ، على أية حال ، يوجد بالتأكيد تفوق عام على أمهار عنزة ، على الأقل في النقط التي يكبرها العرب غالبا ولقد جذبت انتباهنا ، عندما رأيناها مباشرة ، بالفرق » .

وصف دقيق لاجسام الخيل

ومن حيث أنه يمكنني ان افترض باطمئنان الى ان قليلين م الاشخاص خارج بلاد العرب لديهم فكرة عمـا هي الصفات المعتبرة هناك مناسبة في رأس حصان ، فسوف أقدم هنـا وصفاً لها :

يجب ، قبل كل شيء ، ان يكون الرأس كبيراً ، لا صغيراً فالرأس الصغير يكرهه العرب بصفة خاصة ، ولكن يجب ان يكون الحجم جميعه في الاجزاء العليا من الجمجمة . ويجب ان يكون هناك مسافة كبيرة بين الاذنين والعينين ، وبين العين الواحدة والاخرى ، ولو انه ليس بين الاذنين .

ويجب ، فوق ذلك ، ان تكون الجبهة وكل الجزء الذي بين العينين وما تحتهما محدبا ، وأن تكون العينان ذاتهما تقفان نوعاً ما و يحجوط ، . ولكن يجب ألا يكون هناك امتلاء حول نتوء العظام ، وكل عظم يجب ان يكون حـاداً ، فالجبهة المسطحة ليست محبوبة .

ويجب ان يكون ما حول العينين خالياً من الشعر ، حتى تظهر الادمة السوداء ، وما حول العينين تماماً يجب ان يكون بصفة خاصة أسود وصقيلا وعظم الخد يجب ان يكون عميقاً ونحيلا ، وعظم الفك ذا علامة واضحة .

ثم يجب ان يضيق الوجـه فجأة وينحدر الى أسفل حتى ينتهي تقريباً الى طرف دقيق . ولكن ليس على أية حال الى تلك الدرجة كما يجد المرء في حصان السباق الانكليزي ، الذي يبدو ان القطاع الجانبي لوجهه « بروفيل » ، وينتهي بالأنف ، ولكن الى طرف الشفة . والانف في حالة السكون .

يجب ان تكون منبسطة مع الوجه ، يبدو فيها مما هو اكبر قليلا من شق طولي ، وطيقة ومجعدة .

وكذلك يجب ان يكون الفم ، الذي يجب ان تكون الشفة السفلى اطول من العليا . « مثل شفة الجمـل » كما يقول البدو . ويجب ان تكون الاذنان ، خاصة في المهر ، طويلتين ، رفيعتين ومرسومتين باناقة ، كأذني غزال » .

ويجب أن يلاحظ أن الرأس والذيل هما النقطتان اللتان ينظر اليهما العرب بعين الاعتبار ، عند الحكم على حصان ، كما أنهم يظنون انهم يستطيعونها أن يكشفوا آكد العلامات على سلالته .

وذيول خيل نجد غريبة كرؤسها ، وأساسية بالنسبة لجمالها .

ومهما اختلفت الصفات الاخرى ، فكل حصان في حائل يتخذ ذيله نفس الوضع ، وفي حالة السكون يكون أشبه بذيل حصان متايل ، لا كما وصف بأنه : « منتصب في قوس كامل » وفي أثناء الحركة يرتفع الذيل عاليا في الجو ، ويبدو كما لو كان يستحيل ان ينخفض تحت أية ظروف

وصرح محمد بن عروج بوضوح أن هذه الظاهرة كانت بفعل الفن ، جزئياً على الاقل .

وأكد لنا أن الفلو قبل أن يصير عمره ساعة يعقد ذيله الى الخلف على عصا ، ويحدث الالتواء نتيجة دائمة . ولكن هذا يبدو محتمل ، وهو على أية حال قل أن يؤثر على وضع الذيل عند العدو .

ألوان الخيل الرشيدية

وفيما يتعلق بلون المائة من الخيل في اسطبلات حائل ، فكان هناك حوالي الأربعين غبراء أو بيضاء على الأصح ، وثلاثون كُمَيتاً، وعشرون شقراء، والبقية ذات لون بني لم نر أية منها ذات لون أسود حقيقي ، وبالطبع لا توجد هناك سمراوات او بلقاء، أو شهباء ، لأن هذه ليست ألوان عربية .

سألنا الأمير أحد الأيام : أي الألوان نفضله في انكلترا؟ ، وعندما أخبرناه أنه اللون الكميت أو الأشقر ، وافق معنا تماماً . كل العرب تقريباً يفضلون الكميت ذا النقط السوداء ، ولو أن النقط المحض مع الادمة السوداء والحوافر السوداء محبوب أيضاً . وفي الكميت أو الأشقر ، ثلاث أطراف بيض والطرف الأمامي أسود ، أمر لا اعترض عليه . إلا أن الاعتبار كقاعدة ، لا يؤخذ في الاعتبار كثيراً في حائل ،

لأن السلالة هناك كما هو الحال في أي مكان آخر في بلاد العرب هي الكل في الكل .

سوء التربية في اصطبلات ابن رشيد

« والى جانب الحيوانات الكاملة النمو يضم فناء ابن رشيد ثلاثين او اربعين فلوا ، وحوليا ، مخلوقات جميلة ولكنها تعاني سغبا وبائسة بشكل مرعب . والافــلاء المولودة في الصحراء بائسة بما فيه الكفاية ، أما هذه المولودة في المدينة فلها مظهر عليل بين . ولكونها مربوطة من قدمهــا طول اليوم ، يبدو انها قد خارت عزيمتها تماما ، ولا تبين أي شيء من المــرح الذي يجب أن يكون فيها في مثل هذا السن

وأن استئناسها ، « كاستئناس الدواجــن والوحوش » يصدمك ان تراه . ويخبرنا الامير انه يرسل كل ربيع مائة حولي الى الكويت على الخليج الفارسي تحت مسئولية واحد من عبيده ، يبيعها في (بومباي) بما يعادل مائة جنيه لكل واحد منها . انها الآن طبعا في أسوأ سني حياتها ، ولكن امامها ما ينتظرها ، بضعة أشهر من الرعي في النفود قبل ان تظهر في السوق » .

« على العموم ، كلانا مصاب بخيبة امل نوعا ما بما نراه هنا من كل الامهار في اسطبل الامير ، لا أظن أن أكثر من ثلاثة أو

أربعة تستطيع أن تبرز أية ميزة بين الجاموس ، ونحن في الواقع منزعجان فقد يقترح الامير أن يبادلنا بشقرائنا « رأس الفداوي » التي يبدي كل انسان اعجابا عظيما بها . وان فعل فسوف لا نستطيع ، ولا نستحسن ، ان نرفض » .

عن خيل (نجد) وندرتها :ـ

وفيما يتعلق بخيل نجد بصفة عامة ، فالملاحظات الآتية مبنية على ما رأينا وسمعنا في حائل ، وفي اماكن اخرى من بلاد العرب .

فأولاً ، أياً كانت الحال فيما مضى ، فالخيل من اي نوع اصبحت الآن نادرة بصفة متزايدة في نجد . فقد يسافر المرء مسافة شاسعة في شبه الجزيرة بدون ان يقابل حصاناً واحداً او حتى بدون ان يرى آثار أقدام حصان . وفي اثناء سيرنا في النفود وفي طريق عودتنا الى الفرات ، اختبرنا بعناية كل اثر للانسان او الحيوان صادفناه ، بيد انه من وقت مغادرتنا (الروله) حتى قرب (مشهد علي) ، لم تبرهن عشرون من هذه على ان تكون آثار خيل . والريح بلا شك تطمس آثار الأقدام بسرعة ، ولكنها لا تستطيع ان تفعل ذلك كاملاً ، لو كان هناك عدد كبير من الحيوانات . وأخبرنا (الكثيريون) وهي قبيلة نجدية صميمة وفرع من (بني خالد) أخبرونا بشيء من الاعتزاز أنهم يستطيعون ان يجهزوا عشرين فارساً ، وحتى

(مطير) ، المشهورة بانها اعظم من يربي الخيل الاصيلة في نجد، يقال انها تملك فقط ٤٠٠ مهر . ان الخيل هي ترف بالنسبة لبدو شبه الجزيرة وليست - كما هي بالنسبة لأولئك الشماليين - ضرورة من ضرورات حياتهم اليومية . ان أسفارهم وغاراتهم وحروبهم كلها يقومون بها على الجمال ، لا على ظهور الخيل ، وعلى الاكثر يمتطي الشيخ مهرة في لحظة المعركة . ان الافتقار الى الماء في نجد سبب كاف لهذا . فالخيل هناك يحتفظ بها للعرض اكثر منه للاستعمال الفعلي ، وينظر اليها كشيء ثمين الى حد بعيد لبعرض لمخاطر غير ضرورية .

قلة الكلأ في نجد..

ثانياً : كل ما هنالك من خيل في ، تربى النفود، والهضاب الداخلية لا تحتوي على أي مرعى ملائم باستثناء أماكن قليلة جداً ، بينما يقدم النفود حشيشاً ، أخضر ويابساً ، على مدار السنة . و (مطير) ، و (بنو خالد) ، و (الظفير) ، و (شمر) هي الآن القبائل المنتجة الرئيسية للخيل في نجد ، ولكن (عنزة) تعتبر انها تملك أحسن السلالات .

وقد اختفت (عنزة) من نجد . لقد شرعت في الهجرة شمالا منذ حوالي مائتي عام ، وقد استمرت منذ ذلك الحين ، تنتقل في هجرات متوالية، حتى هجروا جميعاً منازلهم الأصلية.

ومن المحتمل ان الاسم الضخم الذي تحظى به — بدون شك — خيل نجد في الشرق كان الفضل فيه أساساً لهؤلاء العنزيين الذين بخيولهم تقارن هذه . كانت (بشر عنزة) تقيم بجوار خيبر ، على الطرف الغربي للنفود . و (الرولة) في جنوب الجوف ، و (العمارات) في أقصى الشرق .

ومن المحتمل ان هذه من بينها كانت تمون الخيل النجدية في الأزمنة الماضية الى سورية ، وبغداد ، وفارس . ومن الجائز ان بعض بطون القبيلة شقت طريقها الى الجنوب ، لأن آل سعود أنفسهم من عنزة . ولذلك فمن المحتمل ان احسن سلالات الخيل كانت ، آنذاك ، كما هو الآن في أيديهم . والى يومنا هذا تميز (عنزة) في الشمال نسل الامهار التي أحضروها معهم من نجد بكونها (نجدية) ، بينما يسمون نسل الامهار التي غنموها من قبائل الشمال (شمالية) .

تمرين الخيل في « نجد »

ويبدو ان ادارة الخيل وتعليمها تختلف قليلاً في نجد عنها في أي مكان آخر بين العرب. الا اننا فوجئنا ان نجد الشكيمة تستعمل في (حائل) محل الرسن البدوي . وفي البداية خيل الينا ان هذا كان تقليداً للطريقة التركية ، غير ان الاكثر احتمالا أن تكون عادة قديمة لعرب المدن . حقاً ان بدو الصحراء الكبرى ، ليسوا أقل من الترك في استعمال حلقة

الشكيمة ، وربما كانت بعد كل شيء من مخترعات جزيرة العرب وسينة كما هي بالنسبة للفم ، فانها بالتأكيد نافعة في الركوب اختيالا ، الذي ينغمس فيه في حائل لعبة الجريد (والمعارك الصورية) . أما بين بدو نجد فالرسن فقط هو المستعمل .

سباق الخيل

وعن أي شيء كالسباق ، فلم نستطع ان نسمع عنه شيئاً. ومحاولات السرعة لم تعد طرازا ، كما كانت فيما مضى، والبراعة في الدوران وفي التثني هي الوحيدة التي لها قيمة . اما ان بعض تقاليد التمرين لا تزال توجد بين العرب ، فان الوصف الآتي لتربية فلو يثبت ذلك ، هذا الوصف قدم لنا في معرض الرد على وصفنا للسباق الانكليزي ولخيول السباق ، وقد يمثل ممارسة تقليدية ، في جزيرة العرب ، تعود في قدمها الى أيام محمد (ص) .

وصفة عربية لتربية فلو .

قال محدثنا : اذا احببت ان تجعل فلوا يجري اسرع من لداته ، فتذكر القواعد الآتية :

« أثناء الشهر الأول من حياته دعه يكتف بلبن امه ، فيكون كافياً له . ثم أضف الى هذا ، اثناء الأشهر الخمسة حليباً طبيعياً من حليب الماعز ، بالقدر الذي سيشربه ، ومدة

ستة أشهر اخرى اعطه حليب نياق ، والى جانب ذلك أعطه كيلا من البر منقعاً في الماء مدة ربع ساعة ، ويقدم اليه في مخلاة .

« وفي العام الأول من عمره سيكون الفلو قد فطم عن اللبن ، ويجب ان يطعم براً وحشيشاً ، براً ناشفاً في مخلاة ، وحشيشاً أخضر إذا وجد .

« وفي العام الثاني يجب ان يعمل ، والا فسيكون غير ذي قيمة . فاطعمه الآن شعيراً كحصان كامل النمو ، اما في الصيف فاعطه أيضاً ثريداً كل يوم عند الظهر . اصنع الثريد هكذا :— خذ مداً من الدقيق واخلطه في الماء جيداً بيديك ، حتى يبدو الماء كالحليب ، ثم رشحه ، تاركاً رواسب الطحين ، وقدم ما هو سائل الى الفلو ليشربه .

« احرص منذ اللحظة التي يولد فيها على ان تتركه يقف في الشمس ، فالظل يضر بالخيل ، ولكن دعه يشرب ماء كثيراً عندما تشتد حرارة النهار .

« ثم يجب ان يمتطى الفلو ، ويأخذه مالكه معه الى كل مكان ، حتى يشاهد كل شيء ويتعلم الشجاعة . ويجب أن يظل دائماً تحت التدريب . ولا يبقى أبداً مدة طويلة في الحظيرة . ويجب ان يؤخذ في رحلة ، لأن العمل سيقوي عضلاته .

« وفي عامه الثالث يجب ان يمرن على العدو . وعندئذ إذا كان أصيلا حقاً ، فلن يسبق . يا الله ! » .

فهرس

الموضوع	الصفحة

ملاحظة: لم تتضح بعض الأعلام لمواضع وغيرها فكتبت بحسب نطق الحروف الانجليزية ووضع بجوارها علامة ستفهام (؟).